

إيران والعراق

في

العصر السلجوقي

تأليف

الدكتور عبد النعيم محمد حسنين

أستاذ ورئيس قسم بكالوريوس الآداب بجامعة
عين شمس ومدير كلية الآداب بجامعة عين شمس

مكتبة المدرسة

طرابلس ليبيا

إيران والعراق

في

العصر السلجوقي

تأليف

الدكتور عبد النعيم محمد حسنين

أستاذ ورئيس قسم بكلية الآداب بجامعة
عين شمس وعميد كلية اللغات بجامعة الأزهر سابقاً

الناشر

دار الكتاب اللبناني - بيروت



جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر .

دار الكتاب اللبناني

بيروت - لبنان

ص.ب ٣١٧٦ - برقياً [كتالبيان]

هاتف ٤٢٧٥٣٧ / ٣٤٩٠٥٥

TELEX No 22865 K.T.L

LE BEIRUT

الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ارتبط تاريخ ايران بتاريخ العراق عبر العصور المختلفة قبل شروق شمس الاسلام وبعد شروقها ، ودخول الدولتين تحت راية الاسلام ومساهمتهما فى بناء صرح الحضارة الاسلامية الراقية التى لم يشهد لها التاريخ مثيلا باعتراف الدراسين المنصفين من المسلمين وغير المسلمين ، فقد كانت العراق عاصمة (١) الدولة الساسانية التى أسقطها المسلمون ، ثم أصبحت ايران جزءا من القسم الشرقى من الدولة الاسلامية فى العصر الأموى ، فكانت تخضع لادارة والى المسلمين فى العراق .

وقد ازدادت صلة ايران بالعراق فى العصر العباسى حين كانت بغداد عاصمة العراق عاصمة للدولة الاسلامية ومقرا للخليفة العباسى أكثر من خمسة قرون من الزمان ، امتزجت فى أثنائها دماء الايرانيين بدماء العرب بوجه عام ، ودماء العراقيين بوجه خاص بعد أن آخى الاسلام بينهم جميعا ، فنعموا بما فى هذا الدين القويم من أخوة ومساواة وعدالة تمحو اختلاف الأجناس والألوان والألسنة ، لأن الله خلق الناس جميعا من نفس واحدة كما قال سبحانه فى أول سورة النساء :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . ان الله كان عليكم رقيبا » (٢) .

(١) كانت تسمى طيسفون وسميت بعد الفتح الاسلامى المدائن ، ولا زالت أطلالها غير بعيدة عن بغداد الى يومنا هذا .
(٢) سورة النساء ، آية ١ .

فقد جعل الاسلام أساس المفاضلة بين الناس تقوى الله تعالى كما جاء
فى قوله عز وجل :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل
لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١) .

وكما قال رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم : « كلكم لأدم وآدم من
تراب ، لأفضل لعربى على أعجمى ولا لأحمر على أسود الا بالتقوى » .

وقد وضح ارتباط ايران بالعراق فى العصر السلجوقى الذى امتد
أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان فى ظل الخلافة العباسية بعد أن كون
السلجقة دولة فى عام ٤٢٩هـ لم تلبث أن دغظت باعتراف الخليفة العباسى
فى عام ٤٣٢هـ ، وكانت من أقوى الدول الاسلامية التى ظهرت على مسرح
التاريخ ، لما كان لها من تأثير فى توجيه سير الأحداث فى بلدان المسلمين
وغير المسلمين مازالت آثاره ملموسة الى يومنا هذا .

وظل ارتباط ايران بالعراق مستمرا بعد سقوط الدولة العباسية على
أيدي المغول ، فربطت بينهما وحدة المصير والإدارة فى العصورين المغولى
والتيمورى ، فلما قامت الدولة الصفوية الشيعية فى ايران فى عام ٩٠٦هـ
(١٥٠٠م) واشتبكت مع العثمانيين السنيين فى منازعات وحروب امتدت
أكثر من قرنين من الزمان لم تنقطع صلتها بالعراق ، فقد تبادل الصفويون
والعثمانيون احتلال العراق ثم رجحت كفة العثمانيين فى النهاية الى أن
أصبح العراق دولة مستقلة فى القرن الذى نعيش فيه .

ومازالت آثار ارتباط ايران بالعراق قرونا عديدة واضحة فى كلتى
الدولتين وضوحا بينا لا يحتاج الى من يشير اليه أو يسوق الأدلة على
وجوده .

وقد اخترت العصر السلجوقى موضوع الدراسة فى هذا الكتاب
لأنه من العصور البارزة فى التاريخ الاسلامى لصلته بالحروب الصليبية ،

(١) سورة الحجرات ، آية ١٣ .

ولشدة ارتباط ايران بالعراق فى أثناء ذلك العصر مما كانت له نتائج وأثار
باقية الى الوقت الحاضر .

وأسأل الله أن يوفقنى فيما بقى من عمر الى دراسة ايران والعراق
فى عصور اسلامية أخرى غير العصر السلجوقى ، كما أدعوه تعالى أن
يجعلها دراسة يستفيد منها المتخصصون وغير المتخصصين وأن يوقف
المسلمين فى ايران والعراق وسائر البلاد الى ما فيه خيرهم وعزتهم ومجدهم
وأن يهديهم سواء السبيل انه نعم المولى ونعم النصير .

وما توفيق الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

المدينة المنورة فى ٢٩ ربيع الثانى ١٤٠١هـ

الموافق ٥ مارس ١٩٨١م

عبد النعيم محمد حسنين

الفصل الأول

العالم الإسلامي قبيل ظهور قوة السلاجقة

تمهيد :

لعل من الضروري أن أعرف تعريفا موجزا بالعالم الاسلامى قبيل ظهور قوة السلاجقة وقيام دولتهم حتى تتضح العوامل التى ساعدت على تحرك السلاجقة وازدياد قوتهم الى أن أنسوا فى أنفسهم القدرة على اقامة دولة لهم ، كما فعل غيرهم من الترك .

وسنرى من استعراض الأحداث أن العوامل التى ساعدت السلاجقة على الظهور على مسرح التاريخ فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى هى التى وجهت سيرهم نحو العرب حين فكروا فى التوسع لبسط سلطانهم على المناطق التى يستطيعون الوصول اليها ، مما أدى الى اتساع دولة السلاجقة حتى شملت ايران والعراق ثم آسيا الصغرى وبلاد الشام ، فلم يمر خمسون عاما على قيام دولة السلاجقة فى عام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) حتى اعترف بهم الخليفة العباسى فى عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م) ثم دخلوا بغداد فى عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) ، ثم دخلوا بلاد آسيا الصغرى فى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) ثم دخلوا بلاد الشام فى عام ٤٦٨هـ (١٠٧٥م) ثم امتد نفوذهم من حدود الهند والصين شرقا الى البحر الأبيض المتوسط غربا ومن البحر الأسود شمالا الى الخليج جنوبا .

وقد أخذ التاريخ يذكر اسم السلاجقة فى أواخر القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى ، غير أنهم لم يظهروا بمظهر القوة التى يخشى بأسها ،

ويعمل حسابها إلا منذ أوائل القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، ثم ازدادت قوتهم حتى تمكنوا من الانتصار على الغزنويين وإقامة دولة لهم فى عام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) ، ولذلك فإن التعريف بالعالم الإسلامى قبيل ظهور قوة السلاجقة ، وإلى حين قيام دولتهم يلقى الأضواء على عصر السلاجقة ، وعلى كثير من الأحداث التى شهدتها هذا العصر ، فجعلت دولة السلاجقة من أهم الدول الإسلامية التى ظهرت على مسرح التاريخ .

ولقد كان العالم الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . الذى أخذ اسم السلاجقة يذكر فى أواخره - تتنازع قوى إسلامية مختلفة ، تنتظمها دينيا ثلاث دول من دول الخلافة هى : الدولة العباسية ومقرها بغداد فى العراق ، والدولة الفاطمية ومقرها القاهرة فى مصر ، والدولة الأموية ومقرها قرطبة فى بلاد الأندلس .

وكانت قوة دول الخلافة من الناحية الدينية أعظم من قوتها من الناحيتين السياسية والحربية ، مما يجعل أية قوة تطفو على سطح دولة من دول الخلافة ثم تسيطر على جزء من أراضى دولة الخلافة تحرص على اظهار ولائها لدولة الخلافة لتتوفر باعتراف هذه الدولة بها ، فتكتسب بذلك صفة شرعية تربط نفوذها فى الأراضى الخاضعة لسلطانها ، وتكسبها قبول الناس لحكمها ، والتفافهم حولها .

وسأعرف بدولة الخلافة العباسية السنية حين ظهور السلاجقة وبالدول الإسلامية التى كانت تدور فى فلك الخلافة العباسية حينذاك ، كما سأعرف تعريفا شديداً بالإيجاز بالخلافة الفاطمية الشيعية ، أما الخلافة الأموية ، فإن بعدها عن مسرح الأحداث فى العصر السجلى أبعدها عن المساهمة فى توجيه سير الأحداث فى الشرق الإسلامى ، مما لا أجد معه ضرورة للتعريف بها ، وأبدأ بالتعريف بالمعسكر السنى .

أولاً : الخلافة العباسية

كانت الخلافة العباسية حين ظهور قوة السلاجقة فى أوائل القرن الخامس الهجرى ضعيفة سياسياً وحربياً ، بحيث لا يستطيع الخلفاء العباسيون

توجيه سير الأحداث فى أرجاء دولة الخلافة بالصورة التى يشتهونها ، مما أتاح الفرصة للوزراء والحجاب وقواد الجيش وحكام الأقاليم والمجموعات القبلية للتدخل فى أمور الدولة المختلفة ، والتأثير فى سير الأحداث ، فوجدت قوى متعددة داخل دولة الخلافة ، واستطاعت بعض هذه القوى أن تستقل سياسيا وحربيا عن دولة الخلافة فطفت بذلك دويلات ودول فوق سطح الخلافة العباسية .

غير أن ضعف دولة الخلافة سياسيا ودينيا لم يفقدها قوتها الدينية الروحية (١) باعتبار الخليفة العباسى امام المسلمين وخليفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى سائر أنحاء المعسكر السنى ، مما يجعل جميع من يعيشون داخل حدود هذا المعسكر يدينون له بالطاعة والولاء ، ويحرصون على التقرب اليه ، والظفر بمرافقته على ما هم فيه من سلطان وجاه .

وقد ازداد نفوذ الترك فى دولة الخلافة العباسية منذ عهد الخليفة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٦١ م) فأخذوا يسيطرون على المناصب العسكرية والمدنية ، ويمسكون بأزمة الأمور فى الدولة .

وظلت قوة قواد الترك فى ازدياد بعد ذلك حتى بلغت أوجها فى القرن الرابع الهجرى .

وتتابع ظهور الدويلات والدول المستقلة فى أنحاء الدولة العباسية ، وهى دول أقامها القواد وأصحاب النفوذ من الترك وغيرهم من الأجnas المختلفة التى دخلت فى الاسلام ، واستظلت برايته ، ودانت بالولاء للخلافة العباسية السنية ، مما أدى الى انقسام دولة الخلافة الى مناطق نفوذ متعددة ، فغلب نفوذ البويهيين فى فارس (٢) والرى (٣) واصفهان وبلاد

(١) البيرونى : الآثار الباقية ، ص ١٣٢ .

(٢) المقصود بفارس اقليم فارس فى الجنوب الغربى من ايران .

(٣) كانت الرى مدينة وكانت طهران قرية تابعة لها وقد انقلب الوضع فى العصر الحديث فأصبحت طهران المدينة والعاصمة والرى قرية تابعة لها .

الجبيل (١) ، واستقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر ، وسيطر الاخشيديون على مصر والشام ، ثم خلفهم الفاطميون ، وظفر السامانيون بحكم خراسان ثم حل محلهم الغزنويون ، وأعلن عبد الرحمن الثالث الأموي نفسه خليفة في بلاد الأندلس ، وانفصل عن جسم الدولة العباسية حين أيقن أن الخليفة العباسي غير قادر على التحكم في أنحاء دولته المترامية الأطراف .

وكان الترك أقوى الطوائف نفوذا في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، فكان سلطانهم طاغيا في النواحي السياسية والحربية ، فسلبوا الخلفاء سلطتهم في هذه النواحي ، وكانت أمهات بعض الخلفاء العباسيين تركيات ، فتدخلن من وراء حجاب في توجيه دفة السياسة ، وفي تولية الوزراء وعزلهم كما تدخلن في ولاية العهد ، واختيار من يلي الخلافة ، مما أشعل نيران الفتنة والمنافسة بين أفراد البيت العباسي ، وهى فرص التنازع والانقسام داخل الدولة العباسية ، فأدت الأحوال المضطربة الى تقلبات في الأوضاع السياسية ، وسقوط دويلات ودول ، وحلول أخرى محلها .

وساعدت الأحوال المضطربة على انتشار التصوف الداعي الى نبذ الدنيا بالجنوح الى العزلة والاعتكاف ، فكثرت البدع والخرافات ، ونشط دعاة الشيعة فكثرت الخلافات المذهبية واشتعلت نيران المنازعات بين الفرق الدينية المختلفة (٢) ، فكان بعضها باللسان ، وبعضها الآخر باللسان ، فقلت الطمأنينة في قلوب الناس مما ساعد على ازدياد التصوف رواجاً ، وارتفاع قدر شيوخ الصوفية ، بحيث ظهرت صبغة التصوف في كثير من مظاهر الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري والقرون التالية له .

وقد قامت دولة السلاجقة في شرقى ايران في هذا الجو العاصف

(١) هى منقطعة داخلية فى نطاق ما يسمى بالعراق العجمى .
(٢) وجدت فرق دينية سنية وشيعية مختلفة ؛ نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ، الزنادقة والمعتزلة والاسماعيلية والصوفية .

الذى يجتاح دولة الخلافة العباسية ، ويوجه سير الأحداث فى ربوعها ، مما كان له أثر ملموس فى تحرك السلاجقة – سواء قبل قيام دولتهم أو بعد قيامها – ظهر فى الأحداث التى شهدتها العصر السلجوقى فى ايران والعراق .

وقد كان الخليفة القائم بأمر الله هو الخليفة العباسى الذى قامت فى عهد خلافته دولة السلاجقة فى عام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) فى مدينة نيسابور فى اقليم خراسان ، وكان كغيره من الخلفاء العباسيين حينذاك غير قادر على توجيه سير الأحداث – سياسيا وحربيا – الوجهة التى يريدونها أو يفضلها ، فأثر أن يقر الأمر الواقع ، ويؤيد بموافقته من كانت له الغلبة ، فلما طلب منه السلاجقة الاعتراف بقيام دولتهم بعد انتصارهم انتصارا حاسما على الغزنويين فى عام ٤٣١هـ (١٠٣٩م) لم يتردد فى الاعتراف بقيام دولة السلاجقة فى عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠) ، وبإصدار دعوة السلطان طغرل السلجوقى – الذى جلس على العرش وأعلن قيام دولة السلاجقة – الى زيارة بغداد مقر الخلافة العباسية ، ليوثق صلته بهذه الدولة الفتية القوية .

ويهمنا أن نعرف بالدول التى طفت على سطح الخلافة العباسية وكانت قائمة فى ايران والعراق وقت ظهور السلاجقة ونكتفى منها بثلاث دول هى السامانية والغزنوية والبويهية ، لصلتها بالأحداث التى ساعدت على تكوين دولة السلاجقة فى ايران والعراق .

١ - الدولة السامانية :

كان السامانيون ولاية على بلاد ما وراء النهر (١) ، ثم امتد نفوذهم حتى شمل بلاد طبرستان والرى وقزوين .

وينتسب السامانيون فى الأصل الى أسرة فارسية عريقة (٢) وقد

-
- (١) اقبال : تاريخ ايران از ظهور اسلام تا حمله مغول ، ص ١٢١ .
(٢) ورد فى أكثر من كتاب أنهم ينتسبون الى بهرام چوپين القائد الذى حاول اغتصاب العرش الساسانى من خسرو پرويز وهو الملك الساسانى الذى دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم الى الدخول فى الاسلام فأبى ، فدعا الرسول عليه أن يمزق الله ملكه واستجاب الله لدعوة رسوله .

أخذ نجمهم فى الارتفاع والتألق منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وكانت الصلة بينهم وبين الخلفاء العباسيين تقوم على أساس المودة والمصالح المتبادلة ، فكان الخلفاء العباسيون يوكلون الى السامانيين اقرار الأوضاع فى بلاد المشرق .

وفى أثناء القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) بدأ الصراع بين السامانيين والبويهيين ، فقامت الدروب بين الطرفين وتبادلا النصر والهزيمة (١) . وأخذت قوة السامانيين فى الضعف ، ثم ازدادت ضعفا حين شق بعض قواد السامانيين عصا الطاعة ، وأعلنوا تمردهم ، وزاد الطين بلة ظهور الخلافات والمنازعات بين أفراد البيت السامانى طمعا فى الجاه والسلطان ، مما قل شوكتهم ، وأغرى حكام الأطراف بهم ، فأخذت دولتهم تسرع الى النهاية والزوال منذ منتصف القرن الرابع الهجرى (٢) .

وفى النصف الثانى من هذا القرن قامت دولة الغزنويين - التى سيأتى التعريف بها - وبلغت هذه الدولة أقصى قوتها فى عهد السلطان محمود ، وكانت توجد فى بلاد ما وراء النهر دولة تركية أخرى هى دولة الخانيين التى ارتبطت فى عهد محمود برباط المصاهرة والصداقة مع الدولة الغزنوية ، فأغرى ضعف السامانيين جيرانهم من الخانيين والغزنويين باقتطاع أجزاء من دولتهم ، فاستولى السلطان محمود الغزنوى على بخارى ونيسابور وتمكن من بسط نفوذه على إقليم خراسان ، والقضاء على نفوذ السامانيين فى هذا الاقليم ، بينما استولى الخانيون بقيادة بغراخان على ممتلكات السامانيين فى بلاد ما وراء النهر ودخل بخارى بموافقة السلطان محمود الغزنوى ، وهكذا اقتسم الخانيون والغزنويون ممتلكات السامانيين (٣) . وأزالوا دولتهم فى الوقت الذى كان السلاجقة فيه قد أخذوا فى الظهور على

(١) ابن الأثير : حوادث سنة ٣٣٣هـ .

(٢) أقبال : تاريخ ايران ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٣٨٩هـ ، أقبال : تاريخ ايران ، ص ١٢٠ - ١٣٥ .

مسرح الأحداث فى تلك المنطقة ، ثم لم يلبثوا أن حلوا محل الغزنويين
والخانيين فيها .

٢ - الغزنويون :

قامت دولة الغزنويين قبل قيام دولة السلاجقة بأكثر من ستين عاما ،
وكانت فى أوج قوتها فى أواخر القرن الرابع الهجرى حين كان السلطان
محمود على رأسها ، وقد بلغت أقصى اتساع لها قبل وفاته فى عام ٤٢١هـ
(١٠٣٠م) فقد غزا هذا السلطان بلاد الهند مرات عديدة على مدى أكثر من
ربع قرن من حكمه الذى ظل أربعة وثلاثين عاما من ٣٨٧ الى ٤٢١هـ ،
وأدت غزواته لبلاد الهند الى فتح أقاليم البنجات وقنوج وكجرات وسومنا
وضمها الى ممتلكات الغزنويين ونشر الاسلام فى ربوعها كما تمكن السلطان
محمود فى أثناء حكمه من بسط سيطرته على بلاد الغور وبلاد ما وراء
النهر (١) وهاجم بنى بويه ، وانتصر عليهم واستطاع الاستيلاء على
اصفهان وتمكن كذلك من ازالة الدولة السامانية من اقليم خراسان .

وهكذا كانت دولة الغزنويين حين ظهور قوة السلاجقة قوية مرهوبة
الجانب ، فسيحة الأرجاء ، يخشاها جيرانها ويقدرها الخليفة العباسى الذى
منح سلطانها لقب يمين أمير المؤمنين ، فاكسب السلطان محمود الغزنوى
بذلك مكانة عظيمة ، وصار من أبطال المسلمين الذين ذكروا بلقب
« الغازى » (٢) ، لأنه صلب غزواته لبلاد الهند بصيغة الجهاد فى سبيل
الله ، لنشر الاسلام ، دين الله الحق ، ونصرته كما حققت له الانتصارات
المتتالية الوفير من الغنائم والثروات .

وقد اتسعت ممتلكات الغزنويين فى عصر محمود حتى شملت الجزء
الشمالى من شبه القارة الهندية من جهة الشرق والعراق العجمى من جهة
الغرب وخراسان وطخارستان وقاعدتها بلخ وقسما من بلاد ما وراء النهر

(١) حمد الله مستوفى قزوینی : تاریخ گزیده ، ص ٣٩٦ .
Browne : A Literary History of Persia, Vol. I, P. 376. (٢)

من جهة الشمال وسجستان من جهة الجنوب ، فصار الغزنويون أقوى دولة طفت على سطح الخلافة العباسية .

وقد أمسك الغزنويون فى عصر محمود بزمام الزعامة فى القسم السنى من العالم الاسلامى تحت ظل الخلافة العباسية فى بغداد ، وأثبتت قوتهم تفوق العنصر التركى ، منذ القرن الرابع الهجرى على غيره من الأجناس التى دخلت فى الاسلام واستظلت برايته .

غير أن دولة الغزنويين(١) أخذت فى الضعف بعد وفاة سلطانها محمود ، فكثرت الفتن فى ربوعها ، كما كثر النزاع على العرش الغزنوى بين أبناء محمود وأحفاده من بعده مما أتاح الفرصة للسلاجقة للظهور بقوة والتحرك لبسط نفوذهم على اقليم خراسان ثم اعلان قيام دولة لهم ، وانتزاع الزعامة من أيدي الغزنويين فى القسم السنى من العالم الاسلامى ، مما سنتبينه بشئ من التفصيل حين التعريف بالسلاجقة وقيام دولتهم .

وقد ظلت دولة الغزنويين قائمة حتى أواخر القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) غير أن قوتهم كانت تسير بخطى واسعة نحو الضعف والانهيار بعد قيام دولة السلاجقة وبسط نفوذها على ايران والعراق وآسيا الصغرى والشام .

والواقع أن وفاة السلطان محمود كانت من العوامل التى ساعدت على ظهور قوة السلاجقة على مسرح التاريخ الاسلامى ، لأنهم لم يتمكنوا من الظهور فى عصر محمود ولم يستطيعوا الوقوف فى وجهه حين غدر بهم وقبض على زعمائهم وسجنهم - كما سيأتى - لأنهم كانوا يعرفون مدى قوتهم أمام قوة السلطان محمود ويدركون خطورة التصدى له ، والاشتباك معه فى قتال، فآثروا الانتظار حتى تنهيا لهم فرصة الظهور ، فلما تهيأت لهم هذه الفرصة بعد اختفاء محمود الغزنوى سارعوا باغتنامها ، ونجحوا فى اقامة دولة

(١) سميت الدولة بهذا الاسم نسبة الى عاصمتها غزنة القريبة من كابل عاصمة أفغانستان الحالية ، وهى نسبة على الطريقة الفارسية لا العربية ، وقد اشتهرت الدولة بهذه النسبة الفارسية ، فأثرت ذكرها بهذه الصورة .

لهم فى خراسان ثم انطلقوا منذ عام ٤٢٢هـ (١٠٤٠م) - بعد اعتراف الخليفة العباسى بهم - فى طريقهم الى بسط نفوذهم غربا على كل ما استطاعوا اليه وصولا من بلاد الخلافة العباسية وبلاد الدولة الرومانية .

٣ - البويهيون :

ظهر بنو بويه منذ أوائل القرن الرابع الهجرى (١) فى صورة طائفة قوية تستطيع توجيه سير الأحداث فى ايران والعراق واحتلال مكان على مسرح التاريخ الاسلامى فى منطقة الشرق الأوسط .

والبويهيون طائفة من طوائف الديلم ، وقد أسلم الديلم فى النصف الأول من القرن الأول الهجرى وحسن اسلامهم ، ثم جنحوا الى التشيع ، واعتنقوا المذهب الاسماعيلى (٢) .

وقد تمكن البويهيون بقيادة معز الدولة أحمد بن بويه من دخول بغداد عاصمة الخلافة العباسية السنية فى عام ٣٣٤هـ (٩٤٥م) ، وبسط نفوذهم عليها ، وقبل الخليفة العباسى مضطرا وجودهم فى عاصمة الخلافة ، وأمر بذكر حاكمهم فى الخطبة بعد ذكر اسمه ، وهكذا تيسر للبويهيين أن يساهموا فى توجيه سير التاريخ الاسلامى مدة استمرت أكثر من قرن من الزمان منذ دخولهم بغداد فى العام المذكور فشهدوا ظهور قوة السلاجقة ، وقيام دولتهم التى أسقطت دولة البويهيين وأخذت مكانها فى دار الخلافة العباسية ببغداد .

وقد انتهج البويهيون منذ دخولهم بغداد سياسة متعاطفة مع الشيعة ، وبخاصة فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى بعد غزو الفاطميين الشيعة لمصر ، واتخاذهم القاهرة عاصمة للدولة الفاطمية التى اتخذت المذهب الشيعى الاسماعيلى مذهبا رسميا لها ثم تمكنت من بسط نفوذها على بلاد الشام ، والوقوف على حدود العراق توجد عاصمة الخلافة العباسية السنية .

وكان البويهيون يتعدون على الخلفاء العباسيين ، وينتقصون من حقوقهم

(١) مسكويه : تجارب الأمم ، ج ١ ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٢) سيأتى التعريف بالاسماعيلية فى موضعه بعد ذلك .

حتى انهم فكروا فى ازالة الخلافة العباسية ، واقامة خلافة علوية مكانها ،
أو اعلان الانضمام الى الخلافة الفاطمية الشيعية لولا أنهم خشوا ثورة
المسلمين من أهل السنة فى ايران والعراق عليهم .

وقد أدى تعصب البويهيين للشيعية الى اشاعة الاضطرابات فى العراق ،
كما أدت الى قيام الفتن الطائفية (١) وكثرة الثورات بين الجند . كما ذهبت
هئية الخلافة العباسية (٢) ، فلم يبق منها غير اسمها ؛ فلم يكن للخليفة
العباسى من الأمر شئ سوى ذكر اسمه فى الخطبة ، ونقش اسمه على
السكة .

وكان نفوذ البويهيين حين ظهور قوة السلاجقة قد امتد حتى شمل جميع
أنحاء العراق ، وتجاوز العراق الى عدد من البلاد التابعة للخلافة العباسية
مثل عمان وفارس والرى وهمدان واصفهان .

غير أن هذا النفوذ أخذ فى الضعف تدريجيا فى أواخر القرن الرابع
الهجرى حين كثر التنازع بين أمراء الجند ، وكان هؤلاء من الأتراك الذين
استعملهم البويهيون فى خدمتهم . فلما قوى نفوذ هؤلاء الأمراء تدخلوا
فى أمور الدولة المختلفة ، وطغى نفوذهم على سلطان الحكام البويهيين ،
فأمسكوا بزمام الأمور ، وأخذوا يوجهون سير الأمور فى الدولة العباسية .

وظهر ضعف الحكام البويهيين فى النصف الأول من القرن الخامس
الهجرى حين أصبحت الكلمة لأمراء الجند فأخذوا يتدخلون فى تولية هؤلاء
الحكام وعزلهم ويحملونهم على أن يدلفوا لهم على الطاعة والوفاء ، والخليفة
فى ذلك كله لا يملك الا تنفيذ رغباتهم (٣) .

فلما أخذ السلاجقة فى الظهور على مسرح التاريخ بعد وفاة محمود
الغزنوى فى عام ٤٢١ هـ (١٠٣٠م) كان نفوذ البويهيين آخذاً فى الأقول
والزوال ، وساعدت على أفوله وسرعة زواله الحروب التى قامت بين الملك

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٣ ، ص ٤٤ .

(٢) الآثار الباقية ، ص ١٣٢ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤١٩ هـ .

الرحيم البويهى واخوته ، فلم يستطع البويهون الوقوف فى وجه السلاجقة حين اتجهوا بزعامه سلطانهم طغرل الى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ليدخلوها دخول الظافرين تلبية لدعوة الخليفة العباسى القائم بأمر الله بعد أن اعترف الخليفة بدولتهم كما اعترف بحكمهم على البلاد التى فتحوها ، فزال دولة البويهيين بدخول طغرل السلجوقى بغداد فى عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥) (١) فزال النفوذ الشيعى من دولة الخلافة العباسية السنية ، وازداد السلاجقة قدرا ، فأمسكوا بزمام الأمور فى سائر أرجاء المعسكر السننى .

ثانيا : الخلافة الفاطمية

لعل من اللازم ومن المفيد لقاء الضوء على دولة الخلافة الفاطمية الشيعية حين قيام دولة السلاجقة ، حتى تتضح حقيقة الأوضاع فى العالم الاسلامى بمعسكريه السننى والشيعى ، فتظهر بجلاء العوامل التى ساعدت السلاجقة على التقدم والانتشار غربا حتى بسطوا نفوذهم على ايران والعراق وآسيا الصغرى والشام ، وكادوا يدخلون مصر حيث توجد القاهرة عاصمة الخلافة الشيعية منذ عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م) .

والواقع أن دولة الخلافة الفاطمية لم تكن حين ظهور قوة السلاجقة أسعد حالا من دولة الخلافة العباسية ، فقد كان الخليفة الفاطمى ضعيفا من الناحيتين السياسية والحربية ، ولم يكن له سوى قوة معنوية باعتباره اماما للمسلمين من الشيعة ، له نفوذ روحى عليهم يجعل الحكام فى جميع أنحاء دولة الخلافة الفاطمية يدينون له بالطاعة والولاء ، ويحرصون على الظفر بموافقة على توليهم الحكم حتى يكسبوا حكمهم صفة شرعية ، تجعل الناس يرضون بحكمهم ويلتفون حولهم .

وقد كان الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (٢) هو الخليفة فى وقت ظهور قوة السلاجقة ، وكانت الأحوال مضطربة فى دولة الخلافة ، نظرا لما

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٩ - ١٠ .
(٢) حكم الخليفة الحاكم بأمر الله فى المدة من ٣٨٦ الى ٤١١هـ أى من عام ٩٩٦ الى ١٠٢٠م .

أصاب مصر من جراء انخفاض النيل مدة ثلاث سنوات متتالية من عام ٢٩٨ الى ٤٠١ هـ (١) من ناحية ، وسياسة الحاكم مع رعاياه على اختلاف أديانهم ومذاهبهم من ناحية أخرى ، فقد كانت سياسة تتسم بالعنف والكثير من التذبذب والاضطراب (٢) .

وحين أقام السلاجقة دولتهم فى عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧م) كان المستنصر بالله هو الخليفة الفاطمى ، وكان فى التاسعة من عمره ، فازدادت الأحوال اضطراباً فى دولة الخلافة الفاطمية الشيعية ، نظراً لتدخل أم الخليفة فى إدارة أمور الدولة المختلفة (٣) ، وتنافس الوزراء على السلطة ، وتعاضم نفوذهم ، وتزعزع مركز الخلفاء الى حد كبير ، مما هيا للسلاجقة بعد وصولهم الى بغداد فى عام ٤٤٧ هـ أن يقتطعوا ممتلكات الفاطميين فى بلاد الشام وأن يفكروا فى إسقاط الدولة الفاطمية نفسها غير أنهم لم يتمكنوا من بلوغ هذا الهدف المنشود .

وهكذا كانت القوى المختلفة الموجودة فى أكثر أنحاء العالم الاسلامى بمعسكريه السنى والشيعى آخذة فى الضعف ، وكانت فى حالة لا تقوى معها على التغلب على قوة السلاجقة الفتية الصاعدة مما ساعد السلاجقة على سرعة الظهور والسيطرة على ايران والعراق وآسيا الصغرى والشام واحتلال مكان بارز فى التاريخ الاسلامى بخاصة والتاريخ العالمى بعامة سنوضحه فيما يلى . وبالله التوفيق .

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٥٣ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .
(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ١٥٥ .

الفصل الثاني

تعريف بالسلاجقة وقيام دولتهم

تمهيد :

كانت دولة السلاجقة من أهم الدول الإسلامية التي ظهرت على مسرح التاريخ ، لأنها وجهت سير الأحداث في المنطقة المعروفة الآن بالشرق الأوسط ، واشتبكت في قتال مع الغرب النصراني ممثلا في الدولة الرومانية أدى الى قيام الحروب الصليبية ، مما كان له أثره في تاريخ الشرق والغرب على السواء .

وكان السلاجقة مجموعة من القبائل التركية استقرت في إقليم ما وراء النهر في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين بعد أن أسلمت وحسن إسلامها ، ثم انتقلت بعد سنوات قليلة الى خراسان ، وكونت جيشا قويا ، تمكنت به من دخول مدينة نيسابور في عام ٤٢٩ هـ (١٠٢٧ م) ، فأعلن زعيمها طغرل قيام دولة للسلاجقة ، ونادى بنفسه سلطانا على هذه الدولة الفتية .

وقد شهد التاريخ حركات كثيرة من هذا القبيل - قبل السلاجقة وبعدهم - غيرت وجه التاريخ في أرجاء العالم المختلفة ، منها خروج القبائل العربية بعد إسلامها من شبه الجزيرة العربية ، وانتقالها شرقا وغربا ، واستقرارها في البلاد المختلفة التي فتحها المسلمون ، وقد نقل العرب المسلمون الى أهل تلك البلاد نعمة الاسلام ، مما ساعد على نشر الاسلام في تلك البلاد ، وأدى الى امتزاج الدماء ، والى انتشار اللغة العربية - لغة الدين الحنيف - التي نزل بها القرآن الكريم ، وقيلت بها الأحاديث النبوية الشريفة ، وصار تعلمها لازما لكل مسلم غير عربي حتى يستطيع تعلم أمور دينه .

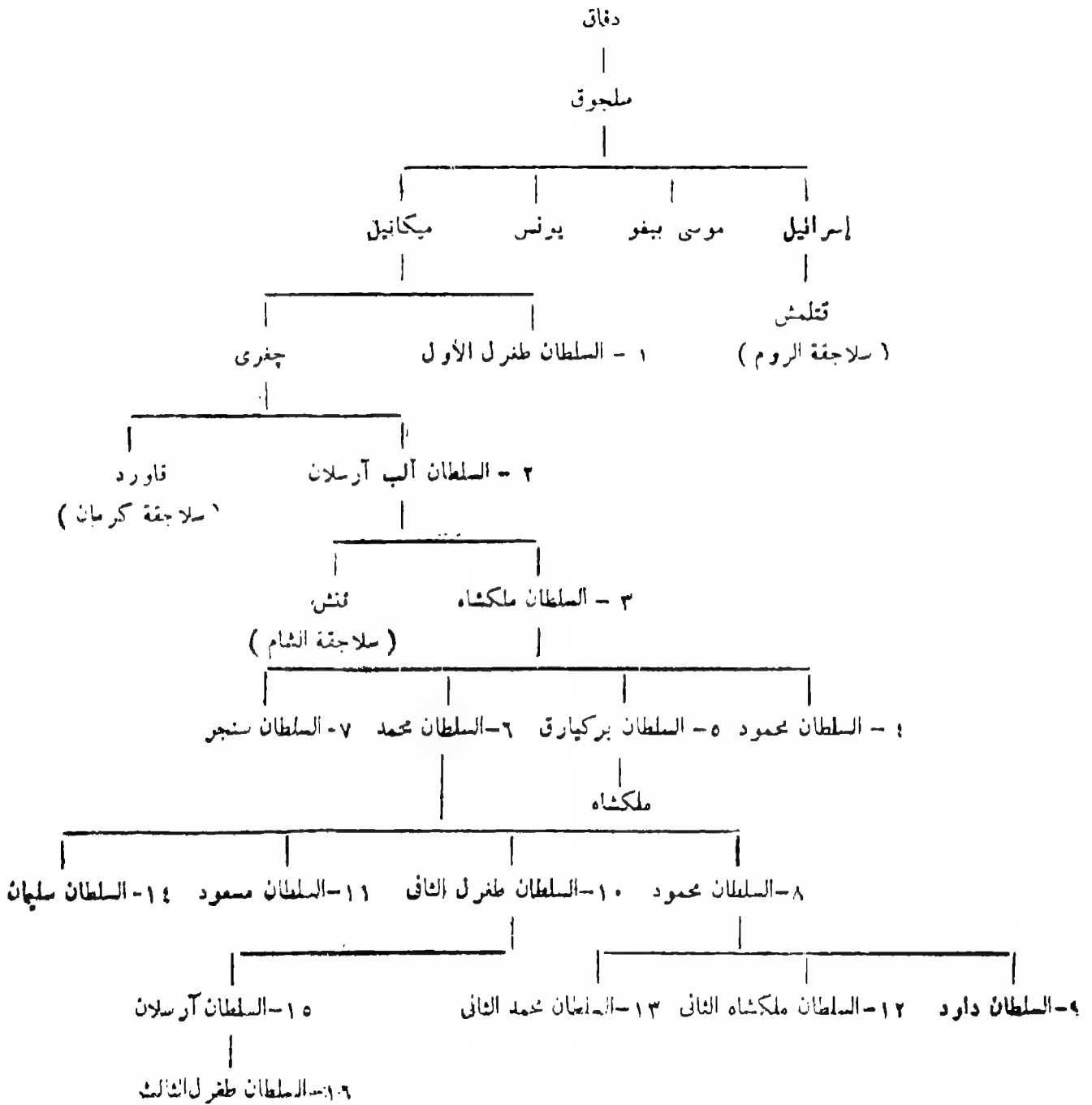
ولقد كان قيام دولة للسلاجقة ثمرة من ثمار حركة من تلك الحركات ،
ألا وهى خروج القبائل التركية من مواطنها الأصلية فى وسط آسيا ، وارتحالها
غربا ، ووصول جماعات منها الى غربى آسيا والى شرقى أوروبا ووسطها ،
وهى حركات ظهرت طلائعها فى القرن الرابع الهجرى ، واستمرت بضعة
قرون بعد ذلك ، وكان السلاجقة احدى هذه الجماعات التركية ، التى ظهرت
منذ بداية الهجرات التركية فى التاريخ الاسلامى .

وكان اسلام الترك نقطة تحول فى تاريخهم ، فقد أزال الحاجز بينهم وبين
المسلمين ، كما أزال الحاجز بينهم وبين التاريخ العالمى ، فيسر لهم الحياة فى
بلاد المسلمين ، والدخول فى خدمة خلفاء المسلمين وسلطينهم وأمرائهم
وقوادهم ، ثم وانتهم الفرص لاقامة دول تركية مسلمة مجاهدة . ساهمت فى
توجيه سير الأحداث فى بلاد المسلمين وغير المسلمين وكانت دولة السلاجقة
فى ايران والعراق احدى هذه الدول التركية القوية .

وهكذا ارتفع الترك باعتناقهم الاسلام ، فقد رفع الاسلام شأنهم ، وأعلى
قدرهم ، وأدخلهم ميدان التاريخ العالمى ، كما ارتفع شأن المسلمين بالترك
لأنهم التفوا حل راية الاسلام ، وجاهدوا من أجل نصرته ونشره فى الآفاق ،
حتى أوصلوا نور الاسلام الى قلب شبه القارة الهندية شرقا ، والى سطر أوروبا
غربا فى العصور التركية المتعاقبة منذ قيام الدولة الغزنوية الى عنفوان الدولة
العثمانية ، وساهمت دولة السلاجقة بنصيب وافر فى نصرة الاسلام ونشره .
وسأحاول دراسة ايران والعراق فى العصر السلجوقى لالقاء الضوء
على كثير من الأحداث التى وقعت فى منطقة الشرق الأوسط فى العصر
السلجوقى ، وما زالت آثار بعضها ملموسة فى العصر الحديث .

وقد يسر الله لى أن أعيش عامين فى ايران وعاما فى العراق وأن أزور
هاتين الدولتين المسلمتين مرات عديدة ، كما يسر الله لى دراسة اللغة الفارسية
والتخصص فيها ، والاطلاع على المصادر الفارسية اللازمة فى دراسة تاريخنا
الاسلامى فى كثير من عصوره ، وأرجو أن يوفقنى الله الى تقديم دراسة
صحيحة عن ايران والعراق فى ذلك العصر ، وأن تكون دراسة تستهدف
الوصول الى الحقيقة العلمية التى هى غاية الدارسين والله الموفق للصواب .

سلاجقة إيران والعراق



التعريف بالسلاجقة

أصل السلاجقة :

كان السلاجقة مجموعة من القبائل التركية ، تنتمي – فى الأصل – الى طائفة الأوغوز (١) التى كانت قبائلها تنتشر فى تركستان وما وراء النهر (٢) .
والمعلومات التى لدينا عن هؤلاء السلاجقة قليلة جدا قبل أن يتولى زعامتهم سلجوق بن دقاق فنسبت القبائل اليه ، ثم توارث زعامة هذه القبائل أبناء سلجوق وأحفاده من بعده .

وقد اخذ اسم السلاجقة يذكر فى الكتب المختلفة ، وبخاصة كتب التاريخ فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى منذ عام ٣٧٥ هـ (٩٨٥م) تقريبا ، أى بعد أن تولى سلجوق زعامتها ، ووجد شملها وقادها الى منازلها فى الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم فكانت تنزل بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين (٣) ، وفى الهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيحون ، وتتنقل فى هذه المنطقة فى أثناء رحلتى الشتاء والصيف ، فكانت مساكنها حينذاك تقع بين بلاد ما وراء النهر ، ومنازل طائفة أخرى من الاتراك المسلمين تسمى « القرلق » .

ويبدو أن القبائل التركية التى ينتمى اليها السلاجقة هاجرت من أقصى بلاد التركستان فى خلال القرن الثانى الهجرى ثم أخذت تتنقل فى أنحاء التركستان متجهة نحو الغرب حيث تتوافر موارد المياه حتى طاب لها المقام فى القرن الرابع الهجرى فى بلاد ما وراء النهر ، ثم عرف جزء منها باسم

-
- (١) خفف هذا الاسم على مر العصور فصارا لغز .
 - (٢) المقصود بالنهر نهر جيحون .
 - (٣) سمي هذا البحر بعد ذلك بحر الخزر وهى التسمية الراجحة الآن .

السلاجقة نسبة الى زعيم قبلى هو سلجوقى بن دقاق (١) كما ذكرنا .

ومن المعروف أن هجرات القبائل المختلفة كانت تدفع اليها عوامل متعددة ، منها تكاثر القبائل وازدياد عدد أفرادها الى درجة تضيق بها الأماكن التى تنزل فيها مما يدفع جزء منها الى الهجرة برغبتها ، لتجد متنفسا فى أماكن آخر صالحة لنزولها ، منها الظروف القاهرة التى تواجهها القبائل فى منازلها التى تنزل فيها كحدوث قحط يجعل الأماكن التى تنزل فيها القبائل غير صالحة لاستمرار الحياة فيها ، أى هجوم قبائل أكثر قوة على الأماكن التى تقيم فيها تلك القبائل ، وغلبة القبائل القوية المهاجمة على المنطقة واجلاء سكانها ، فتضطر القبائل المغلوبة الى الهجرة كارهة ، وتظل تتنقل حتى تظفر بمكان جديد تنزل فيه .

والحقيقة أن المعلومات التى لدينا عن قبائل السلاجقة قبل قيام دولتهم ليست كثيرة ، فلا نعرف معرفة يقينية أسباب هجراتهم وتنقلهم من مكان الى آخر قبل نزولهم فى بلاد ما وراء النهر فى القرن الرابع الهجرى ، وذكر أخبار عنهم فى النصف الثانى من هذا القرن حين صاروا تحت زعامة سلجوق ، فنسبوا اليه .

ومن الثابت أن السلاجقة دخلوا فى الاسلام قبل قيام دولتهم بأكثر من نصف قرن من الزمان ، ويبدو أن قرب منازلهم فى القرن الرابع الهجرى من المناطق الواقعة تحت حكم السامانيين والخانيين والغزنويين المسلمين السنيين قد ساعد على سرعة انتشار الاسلام بين قبائل السلاجقة وعلى اتباعهم للمذهب السنى ، وتمسكهم بهذا المذهب ، وعلى تطلعهم لالتقرب من الخليفة العباسى خليفة المسلمين من أهل السنة فى وقت ارتفع فيه صوت الشيعة فى مناطق مختلفة من بلاد المسلمين ، وانقسم المسلمون الى معسكرين أحدهما سنى بزعامة الخليفة العباسى فى بغداد ، والآخر شيعى بقيادة الخليفة الفاطمى فى القاهرة .

وقد يسر دخول السلاجقة فى الاسلام لهم فرصة الاتصال بحكام المسلمين

(١) « دقاق » أى « دقاق » كلمة تركية معناها « القوس الجديد » . ابن الأثير: الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ هـ .

المجاورين لهم . وكان هذا الاتصال مفيدا لهم أحيانا . ومضعفا لقوتهم أحيانا أخرى ، ففي عهد زعامة سلجوق للسلاجقة استفادوا من اتصالهم بالسامانيين ومساعدتهم لهم فأذن السامانيون للسلاجقة بالمرور في بلادهم والاقامة بالقرب من شاطئ نهر سيحون واتخاذ مدينة « جند » قاعدة لهم .

وأخذ السلاجقة منذ أواخر القرن الرابع الهجرى يجندون الى شىء من الاستقرار بالقرب من موارد المياه حيث توجد الأراضي الخصبة ، وتكثر المراعى اللازمة لدوابهم فيطيب لهم العيش . وتدل على لهم الحياة .

وطلع القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) والسلاجقة يقيمون فى بلاد ما وراء النهر ، وكانت الدولة السامانية قد غربت شمسها منذ وقت قصير . فقسمت البلاد التى كانت تحت سيطرتها بين الخانيين والغزنويين . وكانت منازل السلاجقة حينذاك تقع حول بلدة « نور » بالقرب من مدينة بخارى فى أثناء أشهر الشتاء ، أما فى أثناء أشهر الصيف فكانت منازل السلاجقة تقع حول بلدة « سغد » بالقرب من مدينة سمرقند (١) .

وتولى اسرائيل زعامة السلاجقة بعد وفاة أبيه سلجوق ، وكان اتصاله بالمغزنويين سببا فى القبض عليه وسجنه واضحاف السلاجقة . كما سجنين هذا .

وهكذا وجد السلاجقة أنفسهم يشتركون فى الأحداث التى تقع فى منطقة ما وراء النهر فى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين حين أصبحوا قوة يشعر حكام المنطقة بوجودها ويخشون بأسها ، فمهد اشتراكهم فى الأحداث لظهورهم على مسرح التاريخ الإسلامى ، وهو الظهور الذى هيا لهم فرصة المساهمة فى سير أحداث التاريخ العالمى بعد اشتباكهم فى قتال ضد الدولة الرومانية ، أشعل نيران الدروب الصليبية فيما بعد .

وكان السلاجقة متأثرين بأصلهم القبلى ، فكانوا يألفون حياة البداوة التى تميل الى التنقل والارتحال ، وظلت جذور الحياة القبلية راسخة فى

(١) الراوندى : راحة الصدور وآية السرور . ص ٨٦ : ٨٧ .

أعماق نفوسهم حتى بعد قيام دولتهم مما أثر فى شكل هذد الدولة وفى تاريخها ، وفى سير الأحداث طوال مدة حكمها ، فقد ظل سلاطين السلاجقة مرتبطين بالقبائل . يعتمدون على أفرادها اعتمادها كبيرا . ويكونون منهم جيوشهم(١) ، مما شجع القبائل السلجوقية على الوفود الى ايران والعراق والبلاد الاسلامية الأخرى التى خضعت لحكم السلاجقة .

كما ظل المظهر القبلى غالبا على سلاطين السلاجقة الاولين ، فكانوا غير مثقفين ، بل كان بعضهم أميا(٢) يجهل القراءة والكتابة ، مما جعلهم فى حاجة ماسة الى كثير من الموظفين . لاستعمالهم فى المهام المختلفة(٣) . فبرزت طبقة الموظفين ، وازداد نفوذ بعض أفرادها تبعا لأهمية مناصبهم أو لصلتهم بالسلطان ، وكان من أبرز أفراد هذه الطبقة الوزراء والحجاب .

وكان لظهور طبقة الموظفين ، وازدياد أهميتها أثر واضح فى توجيه سير الأحداث السياسية وغير السياسية فى الدولة السلجوقية . كما كان لجذور الحياة القبلية تأثير واضح فى نظم الحكم فى هذه الدولة ، فغلبت عليها الصبغة العسكرية ، فلم يضعوا نظاما المحكم ، فكان العرش من نصيب أكثر أفراد البيت السلجوقى قوة ونفوذا . حتى ولو لم يكن أكبرهم سنا ، وقد وضحت هذه الظاهرة فى الدولة السلجوقية منذ بداية ظهورها الى وقت أفولها .

وكان وجود القبائل السلجوقية بكثرة فى المدن الكبرى المهمة فى ايران والعراق سببا فى غلبة النظام العسكرى . فكانت هذه القبائل أشبه ما تكون بالجيوش ، كما كانت مثيرة أحيانا للفتن والقتال اذا حرم أفرادها من مرتباتهم ، أو اذا تأخر وصول هذه المرتبات اليهم لسبب من الاسباب ، مما يؤدى الى سوء الأحوال فى الدولة واضطرابها(٤) .

(١) بهار : سبك شناسى ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٢) من أشهر سلاطين السلاجقة الأميين السلطان سنجر وسنفضل الحديث عنه فى موضعه .

(٣) برتلس : نظامى شاعر آذربيجان العظيم (باللغة الروسية) ، ص ١٣ .

(٤) برتلس : نظامى ، ص ١٤ .

كما أدت غلبة الطابع القبلى على السلاجقة الى الغاء ديوان البريد(١) الذى كان من أهم الدواوين فى الدول الاسلامية لأنه كان يربط أجزاء الدولة بعضها ببعض الآخر ، كما كان المشتغلون بنقل البريد عيون الدولة الذين يطلعون الحكام على حقيقة ما يجرى فى أنحاء الدولة المختلفة .

وأثرت بداوة السلاجقة كذلك فى تمسكهم الشديد بالاسلام وحرصهم على الدفاع عنه ، ونصرته ونشره فى الآفاق ، مما جعلهم يصبغون حروبهم ضد غير المسلمين ، بصبغة الجهاد فى سبيل الله لحماية دين الله الحق من كيد أعدائه . كما تمسكوا تمسكا شديدا بالمازج السنى مذهب دولة الخلافة العباسية التى كانوا يعيشون فى كنفها ، فأظهروا الولاء لهذه الخلافة . وكانوا يعدون أنفسهم جنودا مخلصين لها ، مما أكسبهم حب المسلمين الذين يعيشون داخل حدود دولة الخلافة ، وقد ضعفت دولة السلاجقة حين اختلف سلاطينها مع الخلفاء العباسيين وحاربوهم .

وأثرت بداوة السلاجقة كذلك فى حبهم للمظاهر الدينية الخلافة كحبهم للمتصوفة وفرقهم وما يظهرونه من زهد وما يقومون به من ذكر ، فازداد التصوف انتشارا فى العصر السلجوقى ، وظفرت فرق الصوفية باحترام الناس والحكام ، واكتسب شيوخ الصوفية احترام السلاطين(٢) فارتفع شأنهم ، وعظم تأثيرهم فى حياة الناس مما ساعد على انتشار البدع والخرافات .

كما كان لبداوة السلاجقة أثر فى حبهم للأشياء المادية البراقة كالمباني الفخمة والنقوش الجميلة ، واللوحات المزخرفة والفنون المختلفة من رقص وغناء وشعر وموسيقى ، فقد كانت هذه الأشياء ترضى أذواقهم ، وتسد ما فى أنفسهم من فراغ ثقافى ، وصحالة حضارية ، مما ساعد على ازدهار الفنون المختلفة فى العصر السلجوقى ، فراجت رواج ملحوظا ، وارتقت

(١) نظامى عروضى سمرقندى : چهار مثاله ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٩٨ - ٩٩ .

رقيا ملموس ، فارتقت فنون النقش والتصوير والصناعة والمعمار الى درجة رفيعة ، كما اثبت الدارسون من المتخصصين فى هذه الفنون لأن سلاطين السلاجقة كانوا يعشقونها(١) ، ويجزلون العطاء للمشتغلين بها ، ويرعون رجالها(٢) .

وهكذا أثر ظهور قوة السلاجقة ، وقيام دولة لهم ، وغلبة البداوة عليهم فى كثير من مظاهر الحياة فى عصرهم وفى مختلف ألوان الحضارة الاسلامية فى ايران والعراق وسائر البلاد الاسلامية التى كانت تحت سيطرتهم ، وينبغى على الدارس للعصر السلجوقى أن يتنبه الى هذه الظاهرة وأثرها فى ألوان النشاط البشرى المختلفة فى ذلك العصر حتى تقوم دراسته على أسس صحيحة تؤدى الى فهم صحيح ونتائج علمية تصور واقع العصر السلجوقى تصويرا دقيقا ، وقد فضلت التنبيه الى تلك الظاهرة منذ البداية قبل دراسة قيام الدولة السلجوقية وما تم فى عصرها فى ايران والعراق ، والله الموفق .

قيام الدولة السلجوقية :

شهد النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ظهور قوة السلاجقة وقيام دولتهم ، وقد تهيأت لهم الأسباب التى أدت الى قيام هذه الدولة ، فقد طابت لهم الحياة فى بلاد ما وراء النهر فى أوائل ذلك القرن - كما وضحنا - وكثر عددهم ، وازدادوا ثراء وعتادا ، وتمكنوا فى خلال سنوات قليلة من اعداد جيش قوى كبير ، فصاروا قوة يخشى بأسها ويرهب جانبها(٣) .

وشعر جيران السلاجقة من الخانيين والغزنويين بازدياد قوة هؤلاء السلاجقة ، وما يمكن أن ينجم عن ازدياد قوتهم من خطر عليهم ، فأخذ الخانيون يتدارسون مع الغزنويين خطة لاضعاف السلاجقة ، وفل شوكتهم .

(١) كريستى ويلسون : تاريخ صنایع ایران (ترجمة فريار) ، ص ١٤٢ .
(٢) M. S. Diman : A Handbook of Mohammad an Art. P. 179.
(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٨٦ - ٨٧ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٢ .

وكان الغزنويون حينذاك فى أوج قوتهم فى عهد السلطان محمود الذى كان قائداً مظفراً ، مرهوب الجانب ، يقوم بغزو بلاد الهند بين حين وآخر ، ويوطد حكم المسلمين فى ربوعها المختلفة وينشر الاسلام فى أرجائها ، ويحظى بتأييد الخليفة العباسى امام أهل السنة فى ذلك الوقت ، فكان يستطيع بقوته ونفوذه القضاء على الخفر السلجوقى فى مهده ، فلما شكوا اليه الخانيون من ذلك الخطر المتوقع ، وطلبوا منه تدبير خطة لدفعه والقضاء عليه ، بادر السلطان محمود بالايقاع بالسلاجقة باستعمال الحيلة والدهاء والغدر للتخلص من خطرهم القائم وراء ظهره (١) ، بينما هو مشغول بمواصلة غزو بلاد الهند .

وكان السلاجقة قد زادوا من مخاوف السلطان محمود من ناحيتهم ، بمحاولتهم توسيع دائرة ممتلكاتهم بالاغارة على الأراضى المجاورة لأماكن نزولهم ، فأدرك محمود خطر وجود قبائل كثيرة العدد والعدد وراء ظهره ، وكان يعرف جيداً نتائج تجمع القبائل وتكوينها الجيوش ، فبادر بالاستجابة لرغبة الخانيين فى القضاء على الخطر السلجوقى ، قبل أن يتمكن السلاجقة من اقامة دولة لهم ، كما فعل الخانيون والغزنويون من قبل .

وفى عام ٤١٥هـ (١٠٢٤م) (٢) اتفق السلطان محمود الغزنوى مع الخانيين - الذين كانوا حينذاك أصهاره وأصدقاءه - على تبرير مؤامرة للايقاع بالسلاجقة عن طريق الحيلة والخداع والغدر ، فأرسل السلطان محمود الى اسرائيل زعيم السلاجقة يدعوه الى الالتقاء به بالقرب من شاطئ نهر جيحون (٣) حيث أعد مخيماً لاستقباله لعقد اتفاق بين الطرفين لتنظيم وسائل التعاون بينهما ، لتوثيق أواصر الأخوة وحسن الجوار بين الغزنويين والسلاجقة .

وخذع اسرائيل بما جاء فى رسالة السلطان محمود فأسرع بصحبة وجوه قومه الى لقائه فى المكان الذى حدده ، وأحسن محمود استقبال زعيم

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢) گرديزى : زين الأخبار ص ٧٠ - ٧١ .

(٣) المرجع السابق ، الراوندى : راحة الصدور ، ص ٨٨ .

السلاجقة والذين معه . وأكرم وفادتهم . ثم عرض عليهم عقد ميثاق معهم . يسجل الود والصداقة والرغبة فى التعاون بين الطرفين . لأن المسلمين ينبغي أن يسود بينهم الود والاخاء ، فلا يكون بأسهم بينهم شديداً ، فرحب اسرائيل زعيم السلاجقة بما عرضه محمود الغزنوى وهو لا يعلم أن هذا السلطان يدبر أمرا للقضاء على قوة السلاجقة . ويتظاهر بالمحبة وهو يضمّر الغدر ، وينوى القبض على اسرائيل ورفاقه فى أثناء استضافتهم .

وقد صور الراوندى (١) مؤرخ السلاجقة فى كتابه راحة الصدور وآية السرور كيفية الغدر باسرائيل ومن معه من وجوه السلاجقة بواسطة الاسراف فى تكريمهم واقامة الولائم لهم ، ثم تقديم قدر كبير من الشراب لهم فى الليلة المحددة للقبض عليهم ، فلما أسرف قادة السلاجقة فى الشراب تلك الليلة سكروا واستغرقوا فى النوم . فكبّلوا بالحديد . وحملوا الى السجون ، فظل اسرائيل زعيم السلاجقة فى السجن فى قلعة كالنجار بالهند بعيدا عن أهله وعشيرته سبع سنوات انى أن توفى فى سجنه ٤٢٢هـ (١٠٣٠م) بعد وفاة السلطان محمود بعام .

وقد أغضب هذا العمل الخادر السلاجقة أيما أغصاب . فملا نفوسهم كرها للغزنويين ، وجعلهم يعقدون العزم على الآخذ بالثأر لزعيمهم اسرائيل ورفاقه متى وجدوا الى ذلك سبيلا .

وخلف ميكائيل بن سلجوق أخاه اسرائيل فى زعامة السلاجقة ، وكان عاقلا حكيما ، فلم يبادر بالاشتباك فى حرب ضد الغزنويين ، لما كان يعلمه علم اليقين من قوة السلطان محمود ، ومكانته عند الخليفة العباسى فى ذلك الوقت ، فأثر التريث والانتظار ، حتى لايعصف اظهار العداوة للغزنويين بالبقية الباقية من قوة السلاجقة ، وأخذ يحارب الغزنويين بسلاحهم ، سلاح الحيلة والدهاء الذى استعمله محمود ضد قادة السلاجقة ، فأرسل ميكائيل الى السلطان محمود يلتمس منه الاذن للسلاجقة بالمرور من الاراضى

(١) الراوندى : راحة الصدور ص ٨٨ - ٩٠ .

الخاضعة لنفوذه من بلاد ما وراء النهر فى طريق انتقالهم الى اقليم خراسان
وكان ذلك فى عام ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) .

وعلم والى طوس بما التمسسه السلاجقة من السلطان محمود الغزنوى ،
فأرسل اليه يحذر من اجابتهم الى ملتسمهم ، والسماح لهم بالوصول الى
خراسان ، وبين له أن وجود السلاجقة فى اقليم خراسان بعيدا عن رقابة
السلطان أمر خطير يهدد دولته بأوخم العواقب ، غير أن السلطان الغزنوى
لم يأبه بتحذير والى طوس ، ولم يستمع الى نصحيته ظانا أن السلاجقة قد
ضعفوا ونهبت ريحهم بعد ايقاعه يزعيمهم اسرائيل واعتقاله وسجنه هو
وعدد من كبار قومه ، بدليل أنهم خنعوا ، فلم يثوروا احتجاجا على ما حل
بقادتهم ، ولم تصدر منهم حركة معادية للغزنويين ، ولم يفكروا فى الأخذ
بالتأثر طوال السنوات الثلاث التى أعقبت اعتقال زعيمهم اسرائيل والذين
كانوا معه ، وكل ما طلبوه أنهم التمسوا من السلطان الاذن لهم بالعبور
الى خراسان ، كما ظن السلطان محمود أن اجابتهم الى ملتسمهم فيه تطيب
لخواطهم ، واسترضاء لهم بعد تعديه عليهم باعتقاله قادتهم ، وخيل اليه
كذلك أن رحيلهم الى اقليم خراسان سيجعلهم يكتفون بحياتهم القبالية
الموزعة بين رحلتى الشتاء والصيف ، فلا يتطلعون الى شىء غير الحياة
المريحة ، ولا يمدون أبصارهم الى ما وراء أماكن اقامتهم ، وهكذا وافق
السلطان محمود الغزنوى على ما طلبه السلاجقة ، فسمح لهم بالرحيل الى
خراسان ، فعبروا نهر جيحون واستقروا فى هذا الاقليم (١) ، وأقاموا فى
المنطقة الواقعة بين مدينتى « نسا » و « باورد » .

وكما أخطأ السلطان محمود فى الموافقة على انتقال السلاجقة من
بلاد ما وراء النهر الى اقليم خراسان ، فقد أصاب السلاجقة حين انتقلوا
الى هذا الاقليم ، فقد يسر لهم هذا الانتقال حرية الحركة ، وكان بداية
لمرحلة جديدة من مراحل سعيهم وكفاحهم من أجل استكمال أسباب القوة ،

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٦ ، الراوندى : راحة
الصدر ، ص ٩٣ - ٩٤ .

حتى يتمكنوا من اقامة دولة كدولة الغزنويين ، وهكذا كان انتقال السلاجقة الى خراسان نقطة تحول فى تاريخهم كما كان ذا نتائج بعيدة المدى فى تاريخ ايران والعراق وكثير من بلدان الشرق فى القرن الخامس الهجرى والقرون التالية له مازالت آثارها ملموسة الى يومنا هذا .

ولم يكد السلاجقة ينزلون باقليم خراسان ، حتى أخذوا يدعمون قواتهم ، وينتشرون فى المناطق المجاورة لمنازلهم ، ويتحدينون الفرص للانقضاض على ممتلكات الغزنويين واقتلاع جذور دولتهم من خراسان وبلاد ما وراء النهر .

وقد شعر سكان المنطقة التى تنزل فيها قبائل السلاجقة بين « نسا » و « باورد » بقوة السلاجقة العظيمة ، وبأنهم لا طاقة لهم بدفع السلاجقة اذا أرادوا التوسع والسيطرة ، فاشتمكوا فى أواخر عام ٤١٨ هـ (١٠٢٧م) الى السلطان محمود الغزنوى ، فأفاق السلطان من غفلته ، وتنبيه الى خطئه ، وأمر والى طوس بمهاجمتهم واجلائهم من المنطقة ، فبادر والى طوس بالهجوم على معسكرات السلاجقة ، فهبوا لقتاله وصد هجومه ودارت بين الطرفين معارك حامية رجحت فيها كفة السلاجقة فأوقعوا هزائم ساحقة بوالى طوس وجنوده ، ولم يجد الوالى بدا من الاستنجاد بالسلطان محمود الغزنوى فكان حضور قوات السلطان الغزنوى لقتال السلاجقة واشتراكها فى قتال السلاجقة هو الذى وضع حدا لتفوقهم ، وحول نصرهم الى هزيمة ساحقة (١) .

ويبدو أن ميكائيل زعيم السلاجقة قد توفى قبل عام ٤٢١ هـ (١٠٣٠م) الذى توفى فيه السلطان محمود الغزنوى (٢) - فخلفه فى زعامة السلاجقة ابنه طغرل الذى أعاد توحيد صفوف القبائل السلجوقية ، وتدعيم قوتها ، وكان يساعده فى ذلك أخوه الأكبر چغرى ، وكان طغرل وچغرى فارسين

(١) گرديزى : زين الأخبار ، ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) لم يرد ذكر صريح لسنة وفاة ميكائيل ، غير أنه يفهم من كلام ابن الاثير فى تاريخه أن ميكائيل توفى قبل محمود الغزنوى . ارجع الى ابن الاثير : الكامل حوادث سنة ٤٢٢ هـ .

مقدمين ، يتمتعان بنفوذ كبير بين القبائل السلجوقية ، ويحظيان بحب الجند وثقتهم ، فنجحا فى تقوية جبهة السلاجقة وأخذوا يتحيزان الفرص المواتية للأخذ بالثأر من الغزنويين ؛ وكانت وفاة السلطان محمود فى عام ٤٢١هـ (١٠٣٠م) واضطراب الدولة الغزنوية بعد وفاته - لاختلاف أبنائه وتنازعهم على العرش - خير فرصة وأتت السلاجقة حينذاك ، فحاولوا الاستفادة منها ، وأخذوا بزعامة طغرل يسيطرون على الأراضى المجاورة لمساكنهم ، وينشرون نفوذهم على أنحاء كثيرة من إقليم خراسان ، حتى تمكنوا فى خلال بضع سنوات من توسيع سيطرتهم على الأجزاء المهمة من هذا الاقليم والاقتراب من نيسابور .

وفى عام ٤٢٦هـ (١٠٣٤م) طلب السلاجقة من والى نيسابور أن يسمح لهم بالنزول بالقرب من المدينة والاقامة حولها ، فرفض الوالى ، وأحس بالخطر الذى يتهده ، فاستنجد بالسلطان مسعود بن محمود الغزنوى ، وطلب منه الحضور الى نيسابور ، للقضاء على هذا الخطر السلجوقى الداهم ، فأسرع مسعود على رأس جيش قوى لقتال السلاجقة وهاجم معسكراتهم بالقرب من مدينة « نسا » وتمكن من انزال هزيمة قاسية بهم ، غير أنهم ، لم يلبثوا أن أعادوا تنظيم صفوف قواتهم ، ثم هاجموا قوات مسعود الغزنوى وانتصروا عليها انتصارا باهرا ، فاضطر مسعود الى عقد صلح معهم ، ترك بمقتضاه المنطقة لهم ، وبادر بالرحيل الى بلاد الهند لترتيب أمورها وقرار الأوضاع فيها (١) لاشتغال الفتن والمنازعات فيها .

وهكذا خلا الجو للسلاجقة فى إقليم خراسان ، فتهيأت لهم الأسباب ، لتدعيم نفوذهم وبسط سلطانهم على هذا الاقليم ثم التفكير فى اقامة دولة لهم فى ربوعه تكون ندا للدولة الغزنوية .

اعلان قيام دولة السلاجقة :

كان السلاجقة بزعامة طغرل أقوياء متماسكين ، بينما كان الغزنويون فى عهد مسعود متنازعين مختلفين ، فكان مسعود مشغولا باخماد الفتن

(١) يمكن الرجوع الى تاريخ البيهقى ، ص ٥٧١ - ٥٩١ لمعرفة مزيد من المعلومات عن هذه الأحداث .

التي تطل برأسها بين حين وآخر فى أنحاء الدولة الغزنوية بعامة وفى بلاد الهند بخاصة ، مما جعل الوقت فى صالح السلاجقة ، ومكنهم من تثبيت أقدامهم فى اقليم خراسان ، والاستعداد لقتال الغزنويين اذا فكروا فى معاودة الهجوم عليهم ، أو حاولوا اجلاءهم عن ذلك الاقليم . .

ولم يستسلم السلطان مسعود الغزنوى للأمر الواقع فى خراسان ، فقبل وجود السلاجقة سادة فى هذا الاقليم ، فصمم فى عام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) على وضع حد لنفوذهم والقضاء عليهم ، لاستعادة سيطرته على خراسان ، فقدم على رأس جيش جرار لقتال السلاجقة ، واجلائهم عن الاقليم ، وهاجم معسكراتهم بالقرب من مدينة سرخس فى آخر شعبان من العام المذكور (١) ، فدرات بين الطرفين معركة حامية الوطيس ، قاتل فيها الطرفان ببسالة ، كل يريد تحقيق هدفه ، غير أن كفة السلاجقة رجحت فى النهاية ، فحققوا نصرا باهرا على الجيش الغزنوى الذى انسحب من المنطقة ، تاركا اقليم خراسان كله لقمة سائغة للسلاجقة ، بعد أن صارت قوتهم أعظم قوة فى خراسان .

وكان انتصار السلاجقة حافزا لهم على الاسراع باعلان قيام دولة لهم ، لجنى ثمار انتصاراتهم ، فبادر زعيمهم طغرل بالسير على رأس جيش السلاجقة الى نيسابور ، ودخلها فى شهر ذى القعدة من عام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) الذى تحقق فيه النصر قبل ذلك ، وجلس على عرش مسعود (٢) فى تلك المدينة معلنا قيام دولة السلاجقة ، وأمر أن تقرأ الخطبة باسمه ، واتخذ لقب السلطان (٣) ، فكان بذلك أول سلطان للسلاجقة . .

(١) يوجد مزيد من المعلومات عن هذه الواقعة فى تاريخ البيهقى ، ص ٦٥٩ وما بعدها .

(٢) تاريخ البيهقى ، ص ٦٧٣ وما بعدها .

(٣) كان لكل فرد من أفراد البيت السلجوقى اسمان اسم قبلى واسم اسلامى ؛ فطغرل الاسم القبلى لهذا السلطان أما اسمه الاسلامى محمد وكنيته أبو طالب ولقبه بك قبل توليه العرش فهو طغرل بك أبو طالب محمد أما أخوه چغرى فلقبه بك واسمه الاسلامى داود وكنيته أبو سليمان ، فهو چغرى بك ، أبو سليمان داود .

والواقع أن عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ينبغي أن يعد البداية الفعلية والحقيقية لقيام الدولة السلجوقية ، فقد باشر طغرل مهامه باعتباره سلطانا للدولة منذ ذلك التاريخ ؛ صحيح أن الخليفة العباسي لم يعترف بقيام دولة للسلاجقة ، وبطغرل سلطانا عليها الا فى عام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) حين وصلت اليه رسالة السلاجقة تطلب الاعتراف بدولتهم ، مما جعل أكثر المؤرخين يعدون هذا العام بداية لدولة السلاجقة . غير أن من الانصاف أن نقرر أن هذه الدولة قامت فعلا فى عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ، لأن اعتراف الخليفة العباسي حينذاك كان من الأمور الشكلية ، لاعطاء الدولة صفة شرعية ، حتى يرضى الناس عنها ، ويقبلوا حكمها ، لأن الخليفة العباسي لم تكن له قوة مادية فى ذلك الوقت ، بحيث يستطيع التدخل والمساهمة فى توجيه سير الأحداث ، بل كان سلطانه روحيا باعتباره امام المسلمين ، وخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يجعل الحكام الجدد يحرصون على الحصول على اعتراف منه بسلطانهم ، حتى يكسبوه صفة شرعية ، فيلتف الناس حولهم .

وكان الخليفة العباسي يعترف غالبا بسلطان من غلب وانتصر ، كما أجمعت على ذلك الكتب المختلفة على اختلاف مذاهب مؤلفيها ، وسنرى عند عرض الأحداث فى الدولة السلجوقية فى القرن السادس الهجرى الدلائل على ضعف الخليفة العباسي واعترافه بسلطنة أى فرد من أفراد البيت السلجوقي يدخل بغداد على رأس جيش ، ثم يسحب اعترافه به بمجرد دخول فرد آخر بغداد ، وتغلبه على الأول وهكذا ، مما يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن اعتراف الخليفة العباسي كان شكليا لاكساب الوضع صفة شرعية ، ولذلك يمكن اعتبار عام ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) بداية حقيقية للدولة السلجوقية ، وعام ٤٣٢ هـ (١٠٤٠ م) بداية رسمية لهذه الدولة .

وكان قيام دولة السلاجقة حدثا بارزا فى تاريخ ايران والعراق بخاصة ، وفى تاريخ العالم الاسلامى بعامة لأن السلاجقة ظهروا على مسرح التاريخ فى صورة دولة فتية قوية ، ساهمت مساهمة واضحة ملموسة فى

توجيه سير الأحداث في الشرق الاسلامي ، ثم في توجيه سير الأحداث في الغرب النصراني ، مما مهد لاشتعال نيران الحروب الصليبية بعد ذلك .

وقد سيطر السلاجقة في عصرهم على جزء كبير من العالم الاسلامي ، وعلى جزء من اراضي الدولة الرومانية (البيزنطية) في آسيا الصغرى ، ونشروا الاسلام فيها ، وكان لهذا أثر باق حتى يومنا هذا ، والى أن يرث الله الأرض ومن عليها مما يجعل العصر السلجوقي في ايران والعراق جديرا بدراسة المسلمين وغير المسلمين على السواء .

ولم يمر اعلان قيام دولة السلاجقة دون مقاومة من جانب الغزنويين ، فقد جن جنون السلطان مسعود الغزنوي حين علم بجلوس طغرل السلجوقي على العرش في نيسابور واعلانه قيام دولة للسلاجقة وتلقبه بالسلطان ، فعزم على قتال السلاجقة واسقاط دولتهم ، وقتلها في مهدها ، فأعد جيشا لمحاربة السلاجقة ، وبذل جهودا متوالية بين عامي ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) و ٤٣١هـ (١٠٣٩م) للقضاء عليهم ، ولكن جهوده باءت بالفشل في النهاية ، وأدت الى تمكين السلاجقة واحكام قبضتهم على خراسان وبلاد ما وراء النهر ، وقطع كل أمل للغزنويين في عهد مسعود وفي عهد خلفائه للسيطرة على شيء من ايران أو بلاد ما وراء النهر .

وكان آخر قتال بين مسعود والسلاجقة في عام ٤٣١هـ (١٠٣٩م) عند « دندا نقان » حين دارت الدائرة على جيش مسعود بعد انتصاره في البداية ، فهزم هزيمة نكراء ، انقلب بعدها الى غزنه مدحورا ، بينما رجع طغرل الى نيسابور عزيزا منصورا .

وكانت موقعة « دندا نقان » من المواقع الحاسمة الفاصلة في تاريخ كل من الغزنويين والسلاجقة ، لأنها كانت موجهة لتاريخ كل من الدولتين ، كما كانت ذات نتائج وأثار عظيمة في تاريخ ايران والعراق وما جاورهما من بلاد المسلمين وغير المسلمين ، فقد أدى انتصار السلاجقة الى ظفرهم بمغانم كثيرة مادية ومعنوية ، فأحكموا بعدها سيطرتهم على خراسان وما وراء النهر ، وظفروا باعتراف الخليفة العباسي بقيام دولتهم ، وأخذوا يستعدون لبسط سلطانهم على ايران والعراق وآسيا الصغرى والشام ، وكل

ما يستطيعون اليه وصولاً من بلاد المسلمين وغير المسلمين ، بينما انحسرت الدولة الغزنوية عن ايران وما جاورها من بلاد ما وراء النهر ، فلم يفكر الغزنويون بعدها فى مناوأة السلاجقة ، بل صاروا يخشون بأسهم وتدخلهم فى أمور الدولة الغزنوية نفسها ، كما لم يحاول أحد من حكام الأقاليم فى ذلك الوقت معاداة السلاجقة ، فقوى أمرهم قوة عجيبة ، والتف حولهم جند كثيرون من جميع أطراف خراسان ، فأصبحت دولتهم وطيحة الأركان ، راسخة البنیان ، مرهوبة الجانب ممن حولها من الجيران . الى درجة أن المسلمين فى ايران والعراق رحبوا بحكم السلاجقة وسيطرتهم على البلاد الاسلامية المختلفة ، وأخذ الخليفة العباسى - بعد اعترافه بقيام دولة السلاجقة - يكرر الدعوة للسلطان طغرل لزيارة بغداد عاصمة الخلافة الاسلامية السنية ، مما شجع السلطان السلجوقى الأول على مواصلة العمل لبسط سيطرة السلاجقة على ايران والعراق ودخول عاصمة الخلافة دخول الفاتحين .

فبدأت منذ عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م) مرحلة جديدة من مراحل تاريخ السلاجقة سنتبين أبعادها فيما يلى .

الفصل الثالث

سيطرة السلاجقة على إيران والعراق

أولا : سيطرة السلاجقة على ايران

شرع السلاجقة بعد نصرهم المبين على الغزنويين فى موقعة « دندا نقان » الفاصلة فى عام ٤٣١هـ (١٠٣٩م) واعتراف الخليفة العباسى القائم بأمر الله بقيام دولتهم ، وهو الاعتراف الذى صدر فى عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م) ، شرعوا فى السيطرة على أجزاء ايران المختلفة ، حتى يزدادوا قدرا فى نظر الخليفة العباسى ، فتعلو كلمتهم فى ايران والعراق ، فبدأ منذ عام ٤٣٢هـ تكوين دولة السلاجقة الكبرى التى احتلت مكانا بارزا فى التاريخ .

وكان طغرل أول سلاطين السلاجقة قائدا ماهرا حكيما فعرف بطبيعته القبلية أن كبار أفراد أسرته يحبون الرئاسة والجاه ، فمن الخير توزيع المناصب عليهم حتى يمكن سد الشغرات التى قد تثير المنازعات بينهم ، فتتوحد بذلك صفوفهم ، فيظلون قوة كبيرة فى وجه أعدائهم ، فاجتمع طغرل لهذا الغرض بأخيه الأكبر چغرى وعمه دىغى(١) ، وأبناء عمه وكبار رجالات السلاجقة ، وتدارس معهم الخطوات التى ينبغى عليهم أن يخطوها بعد اعلان قيام دولتهم ، واعتراف الخلافة العباسية بها ، فاتفق رأيهم على التحرك غربا للسيطرة على ايران ثم العراق ، وتعاهدوا على أن يظلوا متحدين متماسكين حتى يظلوا أقوىاء مظفرين ، وعلى أن يدعوا التنازع

(١) هذا هو اسمه القبلى أما اسمه الاسلامى فهو موسى لأن كل واحد من ولاة السلاجقة الأول كان له اسم قبلى واسم اسلامى كما ذكرنا .

حتى لا تتفرق صفوفهم فتذهب ريحهم ، وبايعوا طغرل سلطانا على الدولة السلجوقية الكبرى ، مهما اتسعت حدودها ، عينوه قائداً أعلى للجيش السلجوقية مهما كثرت ، وأقسموا جميعاً على أن يدينوا له بالطاعة والولاء دائماً .

وكان طغرل خير من يحمل الأمانة من السلجقة ، لأنه كان ذا شخصية قوية ، وذكاء حاد ، وشجاعة فائقة ، وتدين ملحوظ ، فأدت هذه المقومات جميعها الى التفاف الجند والقبائل حوله ، واسنادهم القيادة العليا اليه (١) .

وقد أحسن طغرل التصرف منذ البداية ، فوزع المناصب بين أفراد أسرته ، فعين كل واحد منهم واليا على ولاية من الولايات التي ينوي السلجقة فتحها ، وسيره على رأس جيش اليها . وأذن له بأن يفتح ما يستطيع فتحه من الجهات المجاورة لها ، وبأن يضم ما يفتحه الى منطقة نفوذه ، على أن يحرص على عدم التنازع مع عضو آخر من أعضاء الأسرة السلجوقية على منطقة من المناطق ، وبذلك أرضى طغرل طبيعة السلجقة القبلية المحبة للرئاسة والجاه ، ووجهها الوجهة الصحيحة النافعة التي تحقق الخير للسلجقة ، وتبعد عنهم الشر والتفرق .

وقرر طغرل أن يسير هو على رأس أكبر جيوش السلجقة لفتح قلب ايران ثم يسير بعد استكمال سيطرة السلجقة على ايران لفتح العراق وبسط نفوذ السلجقة على عاصمة الخلافة الاسلامية ، كما قرر اتخاذ مدينة « الرى » (٢) . عاصمة لدولة السلجقة الكبرى ، بدلا من نيسابور حتى تكون العاصمة الجديدة فى مكان وسط بالنسبة لأقاليم الدولة المختلفة .

وهكذا بدا واضحا أن طغرل كان مصمما على ارساء دعائم دولة كبرى للسلجقة ، تضم ايران والعراق وما تستطيع الى ضمه سبيلا من

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٢ .

(٢) هي مدينة طهران الحالية ، فقد كانت الرى هي المدينة وطهران قرية تابعة لها ثم تغيرت الحال منذ أكثر من قرنين فأصبحت الرى قرية تابعة لمدينة طهران .

من أرجاء العالم الاسلامى الأخرى ، وهو هدف يحتاج تحقيقه الى جمع الكلمة ، مما جعله يجمع شمل أفراد أسرته ويستعين بهم ، فى بلوغ ذلك الهدف المنشود .

وأخذ طغرل يحقق آماله بعد تنظيم صفوف السلاجقة وتحقيق هدفهم ، فبدأ بالكتابة الى الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، طالبا منه الاعتراف بقيام دولة السلاجقة ، حتى تأخذ صفة رسمية ، وتصطبغ بصبغة شرعية ، فيستطيع السلاجقة التحرك وفتح الأقاليم المختلفة ، على أنهم جنود الخلافة العباسية .

وكانت رسالة طغرل الى الخليفة القائم بأمر الله العباسى فى عام ٤٣٢هـ (١٠٤٠م) متضمنة ولاء السلاجقة للخلافة العباسية ، وحبهم للجهاد فى سبيل الله ، ابتغاء مرضاته ، ومبينة ما فعله السلطان محمود الغزنوى بعمهم اسرائيل بن سلجوق ومن معه من رجالات السلاجقة ، كما شرحوا فى رسالتهم حالة المسلمين تحت حكم السلطان مسعود بن محمود الغزنوى الذى انشغل باللهو والشراب ، وأهمل أمر الرعية ، فكثرت الفتن والاضطرابات فى أنحاء الدولة الغزنوية ، مما جعل عظماء خراسان يختارون السلاجقة لحماية المسلمين ، ورعاية مصالحهم ، ثم ذكروا هجوم مسعود الغزنوى عليهم أكثر من مرة ، وما حدث بين الطرفين من حروب طاحنة ، انتصر فيها السلاجقة بتأييد من الله ، ثم طلب السلاجقة فى نهاية رسالتهم من الخليفة العباسى الموافقة على قيام دولتهم ، والاعتراف بشرعية قيامها على أساس من الدين وأمر من أمير المؤمنين (١) .

وبعد ارسال هذه الرسالة الى الخليفة العباسى توجه أفراد البيت السلجوقى كل الى المنطقة التى عين واليا عليها ، وخصصت لفتوحاته وتحركاته ، وصار يتخذ لقب ملك على منطقته ، أما الرئيس الأعلى للدولة السلجوقية كلها ، وهو طغرل ، فكان يتخذ لقب السلطان ، وهكذا كان للطبيعة القبلية أثرها فى سلوك أفراد البيت السلجوقى ، وحبهم للرئاسة والجاه ، وقد أرضى زعيمهم طغرل هذه النزعة فيهم ، فعينهم حكاما وقوادا

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٢ - ١٠٤ .

وملوكا ، وكان كل ملك منهم مطلق الحرية فى حكم المنطقة المخصصة له ، وفى فتح الأقاليم المجاورة لها ، دون أن يتعدى على غيره من أفراد أسرته - كما ذكرنا ، كما كان لكل ملك منهم جيشه الخاص ووزيره وحجابه ، ومعاونوه فى الحكم والادارة ، وكأن منطقته دولة قائمة بذاتها ، مع التزام أفراد البيت السلجوقى جميعا بالطاعة والولاء للسلطان الرئيس الأعلى لهم وللدولة السلجوقية مهما امتدت أطرافها .

وكان هذا التنظيم مفيدا للدولة فى عهد قوتها وتماسكها ، فقد حرص كل فرد حاكم من أفراد البيت السلجوقى على الالتزام بالعدل والخلق الحسن ، حتى ينضم الناس اليه ، كما حرص على تكريم علماء الدين وشيوخ الصوفية حتى يثنوا عليه ، فيزداد حكمه قوة وثباتا .

غير أن تقسيم الدولة الى ولايات شبه مستقلة أصبح شرا فى عهد ضعف السلاجقة وكثرة المنازعات فى أرجاء الدولة ، فساعد على تمزقها ، وسرعة انهيارها وزوالها .

ومهما يكن من شىء فقد سارت الدولة السلجوقية منذ قيامها وفق هذا التنظيم الذى ظهرت فيه الروح القبيلية البدوية ، وشعر طغرل أول سلاطينها بالاطمئنان بعد أن أعلن الخليفة العباسى القائم بأمر الله موافقته على قيام دولة السلاجقة وعلى تعيين طغرل سلطانا عليها ، وأقر حكم السلاجقة على المناطق التى تحت سيطرتهم ، كما فرح طغرل بسير أفراد أسرته الى الأقاليم المخصصة لكل منهم ، فبدأ هو بتنفيذ ما بقى من خطته بهدف اتمام سيطرة السلاجقة على ايران ثم الانطلاق منها للسيطرة على العراق .

وقد تحرك طغرل على رأس جيش قوى كبير فى عام ٤٣٣هـ (١٠٣١م) لتحقيق ذلك الهدف ، وكان الديلمية يسيطرون على أكثر أجزاء ايران ، ويغلب نفوذهم على العراق ، ولكنهم كانوا حينذاك ضعافا متنازعين ، مما يسر للسلطان طغرل السلجوقى مهمة الانتصار عليهم ، والقضاء على حكمهم فكان النصر حليفه فى جميع المحارب التى انتهت بسيطرته على ايران والعراق ، والوصول الى مقر الخلافة العباسية ودخولها دخول الفاتحين .

وقد بدأ طغرل بالهجوم على جرجان وطبرستان للقضاء على حكم أنوشيروان الزياري الديلمي الذي كان يسيطر على هذين الاقليمين ، فلما أدرك أنوشيروان قوة طغرل ، وأيقن أنه لاطاقة له بمقاتلته ، أعلن خضوعه له ، وتعهد باطاعته ، وأداء ضريبة سنوية له ، وهكذا ضم طغرل تلك المنطقة الى دولة السلاجقة (١) ثم لم يلبث أن أزال حكم الزياريين الديلمية منها ، وعين واليا من قبله عليها ، فكان هذا ايذانا بسقوط الدولة الزيارية وغروب شمسها في ايران (٢) .

ثم سار طغرل بعد ذلك لفتح خوارزم ، فغزا هذه المدينة في عام ٤٣٤ هـ (١٠٤٢ م) ، وتمكن من فتحها ثم سيطر على المنطقة المجاورة لها ، وبسط نفوذ السلاجقة عليها فأصبحت قوة السلاجقة أكبر قوة في ايران وبلاد ما وراء النهر ، بحيث سارع حكام الأقاليم باعلان الطاعة والولاء للسلاجقة ، وأظهروا استعدادهم لدفع ضريبة سنوية لهم ، فلم يجد طغرل مانعا من التوجه الى وسط ايران لغزو مدينة الري ، فسار على رأس جيشه الكبير نحو هذه المدينة في العام نفسه ، ودخلها دخول الفاتحين ، واتخذها عاصمة له ، ومقرا لحكومته (٣) .

وشعر الخليفة العباسي القائم بأمر الله بازدياد قوة السلاجقة وارتفاع نجمهم ، واطراد تقدمهم ، فبادر بارسال مبعوث من قبله الى مدينة الري يحمل دعوة من الخليفة للسلطان السلجوقي لزيارة بغداد .

وقد ابلغ مبعوث الخليفة السلطان السلجوقي بأن الخليفة سر برسالة السلاجقة اليه أيما سرور ، وتقبلها بقبول حسن ، ورد عليها ردا رقيقا يتضمن موافقته على قيام دولة السلاجقة ، وأن الخليفة يسره أن يرى سلطان السلاجقة في بغداد مقر الخلافة ضيفا عزيزا وزائرا كريما ، فأحسن طغرل استقبال

-
- (١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٣ هـ .
(٢) ينتسب الزياريون الى وشمسگير أخى مرداويج ، وكانت الدولة الزيارية تسيطر على أجزاء كثيرة من ايران من أهمها جرجان وطبرستان وجيلان وقد استمر حكمها من ٣١٦ - ٤٣٣ هـ (٩٢٨ - ١٠٤١ م) .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٤ هـ .

مبعوث الخليفة . ورحب بدعوته اياه لزيارة بغداد ، ووعد بالقيام بها فى الوقت المناسب (١) ، وظل مبعوث الخلافة مقيما فى الرى ثلاث سنوات لاصطحاب طغرل حين يتوجه لزيارة بغداد ثم رجع وحده بعد أن أكد له طغرل حرصه على هذه الزيارة بعد فراغه من غزو الأقاليم الغربية والجنوبية من ايران بعد أن بسط سيطرة السلاجقة على الأقاليم الشرقية منها .

ثم أخذ طغرل يبسط سيطرة السلاجقة على الأقاليم الغربية من ايران ، وتمكن من السيطرة عليها دون عناء كبير لضعف أمراء الديلم فى تلك الأقاليم، فخضعت له قزوين وأبهر وزنجان وهمدان وأذربيجان ، ودان له أمراء الديلم حكام هذه الأقاليم بالطاعة والولاء ، كما أرسل طائفة من الجند لفتح كرمان (٢) وهكذا سيطر السلاجقة على أجزاء كثيرة من ايران بعد بضع سنوات من قيام دولتهم ، وأخذ طغرل يتفقد تلك الأجزاء حتى يطمئن بنفسه الى رسوخ قواعد دولة السلاجقة فى ايران .

كما أرسل طغرل أخاه من أمه - ابراهيم اينال - الى همذان والأجزاء الغربية المجاورة لها لتثبيت نفوذ السلاجقة فيها ، فتوجه فى عام ٤٣٧هـ (١٠٤٥ م) للقيام بهذه المهمة (٣) ، ورجل من كرمان الى همذان ، وحدثته نفسه بالتمرد ، واتخاذ مدينة همذان قاعدة له ، فاضطر طغرل الى التوجه بنفسه فى عام ٤٤١هـ (١٠٤٩م) الى المناطق الغربية لاختماد الفتنة وإقرار الأوضاع فيها ، فتوجه - أولا - الى همذان ، فلما اقترب منها ، أرسل الى أخيه يطلب منه تسليم القلاع التى تحت يده ، غير أن أخاه رفض الاستجابة الى طلبه ، فهاجمه طغرل وانتصر عليه ، ثم عفا عنه بعد استسلامه ، ولم يعاقبه على تمرده هذه المرة .

ثم أخذ طغرل يتفقد الأقاليم الغربية فى ايران ، ويحكم سيطرة السلاجقة عليها ، كما تمكن من بسط نفوذ السلاجقة على ديار بكر بعد أن قبل حاكمها ذكر اسم طغرل فى الخطبة (٤) ، وإعلان الطاعة والولاء للسلاجقة .

-
- (١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٥ .
 - (٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٤هـ .
 - (٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٣٧هـ .
 - (٤) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٤١هـ .

ثم قاد طغرل الجيش فى أوائل عام ٤٤٢هـ (١٠٥٠م) وتوجه صوب اصفهان لفتحها وبسط سيطرة السلاجقة على الأجزاء الجنوبية من إيران ، وكانت اصفهان تحت حكم الديلمة من آل كاكويه ، وكانت حصينة منيعة فعكف طغرل على حصارها عاما الى أن استسلمت فى شهر المحرم من عام ٤٤٢هـ (١٠٥١م) وسقطت بسقوطها دولة الديلمة فى تلك المنطقة .

كما أرسل طغرل - فى أثناء حصار أصفهان - جزءا من الجيش لفتح فارس وما جاورها ، وتمت له السيطرة على المنطقة الجنوبية من إيران ، كما تمكن فى الوقت نفسه من السيطرة على يزد وما جاورها (١) .

ثم قاد طغرل الجيش بعد ذلك لتفقد المناطق الشمالية الغربية من إيران وتثبيت سيطرة السلاجقة عليها ، فتوجه فى عام ٤٤٦هـ (١٠٥٤م) الى إقليم آذربيجان ، ودخل مدينة تبريز عاصمة الإقليم ، وبسط نفوذ السلاجقة على جميع أجزاء آذربيجان ، وعلى بعض الأجزاء من بلاد الروم (أسية الصغرى) المتاخمة لآذربيجان ، ثم رجع بعد ذلك الى مدينة الرى (٢) عاصمة دولة السلاجقة ، وهكذا اتسع نفوذ السلاجقة حتى شمل أكثر أجزاء إيران وأجزاء من الدول المجاورة لها ، وبذلك صار طغرل مستعدا لدخول بغداد دخول الظافرين تمهيدا لبسط سيطرة السلاجقة على العراق .

ثانيا : سيطرة السلاجقة على العراق

كان السلاجقة فى عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) أكبر قوة فى العالم الاسلامى بعد أن بسطوا سيطرتهم على إيران ، وتغلّبوا على الغزنويين والبويهيين ، بينما كانت الخلافة العباسية قوة روحية لا حول لها ولا طول فى ميدانى الحرب والسياسة ، وكانت الأحوال فى بغداد مضطربة ، نتيجة لتدخل البويهيين وقواد الجند فى توجيه سير الأمور ، وعجز الخليفة عن الصمود فى وجه تيار الأحداث ، أو القيام بدور ايجابى فى توجيه هذه الأحداث لأن نفوذ قائد جند الأتراك كان طاغيا فى بغداد وما جاورها ، فلم يكن الخليفة القائم بأمر الله يقوم على معارضة القائد التركى وجنوده ، كما ذكرنا .

(١) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٤٢هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤٦هـ .

وكان هذا القائد حينذاك يسمى أباً الحارث أرسلان بن بساسيرى وكان شيعيا يميل الى الفاطميين فى مصر ، ويتصل بهم فى الخفاء ، بينما كان نفوذ البويهيين المتمسكين بالمذهب الشيعى مازال معترفا به فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، فكان اسم الملك الرحيم أبى نصر البويهى ، فى ذلك الوقت يذكر فى الخطبة بعد اسم الخليفة ، غير أن الحاكم البويهى ، كان ضعيفا كذلك أمام القائد التركى وجنوده ، ولم يكن على وفاق معه ، فانعدم التعاون بينهما ، كما لم يكن هناك وفاق بين الخليفة والقائد التركى البساسيرى(١) الذى كان يحاول بسط نفوذ الفاطميين على بغداد اذا استطاع الى ذلك سبيلا ، حتى يحقق لهم حلمًا ، طالما راودهم منذ استيلائهم على مصر فى عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م) ، ألا وهو الانتقام للعلمانيين من العباسيين ، واسقاط الخلافة العباسية ، والسيطرة على العراق .

وهكذا كانت الأحوال فى العراق مضطربة ، مما ييسر لقوة فتية صاعدة كقوة السلاجقة بقيادة السلطان طغرل الأول مهمة التدخل والسيطرة على العراق ، حتى ينفرد السلاجقة بالامساك بزمام الأمور فى كل من ايران والعراق ، فتصبح لهم الكلمة العليا فى دولة الخلافة العباسية ، ويصيروا مرهوبى الجانب فى العالم الاسلامى كله .

وقد شجعت هذه العوامل جميعها السلطان طغرل على التوجه الى بغداد فى شهر المحرم من عام ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) بحجة تلبية دعوة الخليفة العباسى له من قبل لزيارة عاصمة الخلافة كما أظهر رغبته فى أداء فريضة الحج ، واصلاح الطريق الى مكة ثم التوجه الى الشام ومصر للقضاء على الفاطميين بهزيمة المستنصر بالله الخليفة الفاطمى فى القاهرة والاطاحة به ، فأمر طغرل عماله فى العراق العربى بجمع الجند ، ثم دخل العراق دخول الفاتحين ، وكان الملك الرحيم البويهى قد توجه للمقائه غير أنه أيقن بعجزه عن قتاله والانتصار عليه ، فأثر العودة الى بغداد ، واتفق مع الخليفة العباسى القائم بأمر الله على التعاون مع طغرل(٢) وذكر اسمه فى الخطبة

(١) ارجع فى بيان هذه الأحداث تفصيليا الى ابن الأثير : الكامل ،

حوادث سنتى ٤٤٦ ، ٤٤٧هـ .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤٧هـ .

بعد الخليفة مباشرة على أن يذكر أسم الملك الرحيم البويهى بعد طغرل السلجوقى وقد أصدر الخليفة العباسى أمرا بذلك قبل وصول طغرل الى بغداد ، وبأن يكون لقب طغرل السلطان ركن الدولة أبا طالب طغرل بك محمد ابن ميكائيل يمين أمير المؤمنين ، فلم يكد طغرل يصل الى بغداد حتى أصبح زمام الأمور فى يده ، بعد أن استقبل أروع استقبال ، واعترف الخليفة العباسى به سلطانا على جميع المناطق التى سيطر عليها السلاجقة (١) ، فكان هذا اذنا بنا بسقوط دولة البويهيين ، ولم يلبث طغرل أن أمر بالقبض على الملك الرحيم البويهى ، وارساله أسيرا الى الرى ، حيث ظل أسيرا بها الى أن توفى فى عام ٤٥٠ هـ (١٠٥٨م) (٢) وقبل الخليفة العباسى الأمر الواقع ، فأمر فى رمضان من عام ٤٤٧ هـ (١٠٥٥م) بإسقاط أسم الملك الرحيم من الخطبة (٣) ، واسدال الستار على الدولة البويهية .

أما البساسيرى قائد جند الأتراك فى بغداد ، فقد انسحب منها ، وتوجه الى الموصل حيث والى الاتصال بالفاطميين ، تمهيدا لإعلان خروجه عن طاعة الخليفة العباسى .

وهكذا كان دخول طغرل بغداد بداية لسيطرة السلاجقة على العراق بعد سيطرتهم على ايران ، فاتسعت بذلك رقعة دولتهم الفتية ، وصاروا أكبر قوة حربية فى العالم الاسلامى حينذاك ، فأخذوا يوجهون سير الأحداث فى الشرق أكثر من قرن من الزمان منذ ذلك الوقت .

وقد أقام طغرل فى بغداد ثلاثة عشر شهرا ، توثقت فى خلالها صلاته بالخليفة العباسى القائم بأمر الله ، وازدادت هذه الصلات توثقا بزواج الخليفة بابنة أخى طغرل المسمى چغرى بك حاكم خراسان وما وراء النهر ، وكان ذلك فى عام ٤٤٨ هـ (١٠٥٦م) فساعدت المصاهرة على زيادة التقارب بين العباسيين والسلاجقة ، فازداد طغرل قوة ونفوذا .

غير أن البساسيرى قائد الجند لم يلبث أن جاهر بالعصيان وأخذ

-
- (١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٦ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٠ هـ .
(٣) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٠ ، حـد الله : تاريخ كزيدة ، ص ٤٣٧ .

يعد العدة للسيطرة على منطقة الموصل ، فاشتبك فى قتال مع أنصار طغرل فى شوال من عام ٤٤٨هـ (١) (١٠٥٦م) بالقرب من سنجار ، وتمكن من الانتصار عليهم ، فتم له ما أراد من السيطرة على الموصل وما حولها ، ثم أمر بقراءة الخطبة فيها باسم الخليفة الفاطمى ، فاضطرب الخليفة العباسى فى بغداد اضطراباً شديداً ، واحتتمى بالسلطان طغرل السلجوقى وعينه واليا على الموصل وبلاد الجزيرة ، فوجد طغرل واجباً عليه أن يسير الى الموصل لقمع فتنة البساسيرى قبل أن يعظم أمره ، ويشتد خطره ، فترك طغرل دار الخلافة فى العاشر من ذى القعدة من عام ٤٤٨هـ (١٠٥٦م) ، وقصد الموصل وتمكن من قمع فتنة البساسيرى ، واجبارده على الانسحاب من المنطقة والفرار الى الشام فى عام ٤٤٩هـ (١٠٥٧م) ، وبسط طغرل نفوذ السلاجقة على الموصل والجزيرة وديار بكر ، وعين أخاه ابراهيم اينال واليا من قبله على الموصل والجزيرة ، ثم قفل راجعا الى بغداد ، فأحسن الخليفة العباسى استقباله ، ولقبه بملك المشرق والمغرب ، واعترف بنفوذ السلاجقة على جميع البلاد التى تحت سلطانهم (٢) .

غير أن ابراهيم اينال حدثه نفسه بالخروج مرة ثانية على أخيه - من أمه - طغرل ، فترك الموصل فى عام ٤٥٠هـ (٣) (١٠٥٨م) ، وسار على رأس جيش الى همذان ، فاضطر طغرل الى ترك بغداد مرة أخرى ، ليقطع الطريق على أخيه المتمرده قبل وصوله الى همذان وأدركه بالقرب من مدينة الرى ، وأوقع به هزيمة شنيعة فى معركة فاصلة وضعت نهاية لتمرده ولحياته ، لأن طغرل ، لم يصفح عن أخه هذه المرة ، بل أمر بقتله ، ليستريح من شره ، وتخدم فتنة نهائياً (٤) ، ويجعل من نهايته عبرة لكل متمرده .

وانتهز البساسيرى فرصة ظهور شقاق بين أفراد البيت السلجوقى ، فعاود التوجه الى الموصل واحتلالها مرة أخرى ، ثم أغراه ترك طغرل لبغداد ، بالتوجه لغزو دار الخلافة نفسها ، حيث لم يجرؤ الخليفة العباسى

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٤٨هـ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٠٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل سنة ٤٥٠هـ .

(٤) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٥ - ١٦ .

على التصدي لقتاله ، فأثر الهرب ، غير أن البساسيري تمكن من أسيرة ، فأرسله الى عانة حيث سجن هناك ، بينما احتل البساسيري بغداد في اليوم الثامن من شهر ذوى القعدة من عام ٤٥٠هـ (١) (١٠٥٨م) ثم أمر بقراءة الخطبة في بغداد باسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وحذف اسم العباسيين منها ، فحقق بذلك أمنية طالما تآقت اليها نفوس الفاطميين منذ قيام دولتهم .

وعظم أمر البساسيري بعد استيلائه على بغداد فتمكن من الاستيلاء على واسط ، وظل نفوذه في اتساع حتى وصل الى البصرة ، واستنجد أنصار الخلافة العباسية بالسلطان طغرل السلجوقي ، وبخاصة بعد فراغه من القضاء على ثورة أخيه ، فأسرع في السير الى بغداد ، وأرسل الى الخليفة العباسي من يفك أسيرة ويصحبه الى دار الخلافة ، بعد أكثر من عام من تركه لها ، بينما أثر البساسيري الخروج من العراق ، والفرار الى الشام .

ودخل الخليفة العباسي القائم بأمر الله بغداد كما دخلها السلطان طغرل السلجوقي ، فأسقط اسم الفاطميين من الخطبة ، وأعيد ذكر العباسيين ، ثم بادر طغرل بإرسال جيش للحاق بالبساسيري فتمكن جيش السلطان من الالتقاء بجيش البساسيري قرب الكوفة حيث دارت بين الطرفين معركة طاحنة انتهت بهزيمة البساسيري وقتله في منتصف ذى الحجة من عام ٤٥١هـ (١٠٥٩م) ، وأرسلت رأسه الى الخليفة العباسي (٢) ، وهكذا تمكن طغرل من القضاء على البساسيري قضاء تاما ، فقتضى بذلك على كل أمل للفاطميين في الوصول الى بغداد مرة أخرى ، وأصبح السلاجقة يسيطرون على بلاد الخلافة العباسية سيطرة تامة بعد أن استقر نفوذهم في ايران والعراق استقرارا تاما ، وصار السلطان طغرل سيد الموقف بعد انتصاراته المتلاحقة ،

(١) الراوندي : راحة الصدور ، ص ١٠٨ ؛ البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٦ .

(٢) الراوندي : راحة الصدور ، ص ١٠٩ ؛ البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٠ هـ .

وانقاذه للخليفة العباسي ، فأصبح يستطيع كسب موافقة الخليفة على كل ما يريده السلاجقة .

وأخذ طغرل منذ ذلك الوقت يتصرف في كل شيء ، حتى في ممتلكات الخليفة الخاصة ، فيجري على الخليفة أرزاقه ، ويرتب له ما يكفي لسد جميع نفقاته (١) ، ويسيطر على الخليفة العباسي سيطرة تامة . ثم فكر طغرل في مصاهرة الخليفة بالزواج من ابنته (٢) ، فكلف وزيره أبا نصر الكندري بالقيام بهذه المهمة ، وكانت هذه المرة الأولى التي يفكر فيها حاكم غير عربي في مصاهرة بيت الخلافة ، والزواج بفتاة من الأسرة العباسية ، ولذلك فزع الخليفة القائم بأمر الله حين طلب طغرل السلجوقي ذلك بواسطة وزيره أبي نصر الكندري ، ورفض في بداية الأمر فكرة زواج ابنته من السلطان السلجوقي برغم ما وصل اليه من قوة وسيطرة على ايران والعراق ، وظل الخليفة العباسي رافضا لتلك الفكرة أكثر من ثلاث سنوات تعرض في اثنائها لأنواع من الضغط والتهديد واضطر في النهاية الى الموافقة في أوائل عام ٤٥٥ هـ (١٠٦٣م) حفاظا على خلافته ، فزفت بنت الخليفة الى السلطان طغرل في مدينة الري عاصمة السلاجقة ، غير أن طغرل لم يهنأ بهذا الزواج طويلا (٣) ، لأنه كان شيخا هرما قد بلغ السبعين من عمره ، وكان المرض قد أصابه ، وألزمه الفراش ، فظل أسير المرض حتى توفي في الثامن من رمضان من عام ٤٥٥ هـ (١٠٦٣م) بعد أن تمكن السلاجقة في عهده من السيطرة على ايران والعراق فاحتلت دولتهم مكانا مرموقا على مسرح التاريخ ، وأخذت تساهم في توجيه سير الأحداث في الشرق والغرب على

(١) حمد الله : تاريخ گزيده ، ص ٤٣٨ .

(٢) هذا ما ذكره البنداري في مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٩ - ٢٢ وابن الأثير في حوادث سنة ٤٥٥ هـ أما الراوندي فقد ذكر في راحة الصدور أن الخليفة تزوج أخت الخليفة لا ابنته .

(٣) ذكر البنداري في كتابه المذكور ص ٢٥ وابن الأثير في حوادث سنة ٤٥٥ هـ أن طغرل دخل بيته الخليفة وعاش معه سبعة سهور أما الراوندي فقد ذكر في راحة الصدور في ١١١ - ١١٢ أن طغرل مرض وتوفي قبل الزفاف .

السواء مما سنبينه فى الفصول التالية ، حتى تظهر أهمية العصر السلجوقى فى التاريخ الاسلامى بعمامة ، وفى تاريخ ايران والعراق بخاصة .

والواقع أن طغرل الأول هو المؤسس الحقيقى لدولة السلاجقة فهو الذى أعلن قيامها ، وأرس قواعدها ، بعد أن بسط نفوذ السلاجقة على ايران والعراق ، فأظهر بذلك قوتهم ، وانتصر على منافسيهم ، وجعلهم أكبر قوة فى جميع أرجاء العالم الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى .

ولقد كان طغرل سلطانا مظفرا موفقا منتصرا فى جميع الحروب التى خاض غمارها ، مما ساعده على تحقيق آمال السلاجقة ، والوصول بهم الى أهدافهم التى كان أهمها اقامة دولة قوية نافذة الكلمة فى مقر الخلافة العباسية فى بغداد .

كما كان طغرل مسلما متمسكا بالمذهب السنى ، مما يجعله يتقرب الى الله بأداء الفرائض ، واحترام أئمة الدين (١) ، والولاء للخليفة العباسى امام أهل السنة فى ذلك العصر ، فساعد ذلك على ازدياد التقارب بين ايران والعراق طوال العصر السلجوقى ، وأدى هذا التقارب الى اختلاط الايرانيين بالعراقيين وحدوث امتزاج حضارى ، اذ اختلطت حضارة كل من البلدين بالأخرى ، فأصبح البلدان فى العصر السلجوقى صورة واضحة صادقة للحضارة الاسلامية فى مرحلة من أهم مراحلها فى التاريخ الاسلامى .

وقد وضع طغرل أساسا متينا لدولة السلاجقة ببسط نفوذها على ايران والعراق ، فاستطاع خلفاؤه أن يقيموا على هذا الأساس بناء شامخا ، ومجدا عظيما ، فكان عصر طغرل هو عصر التأسيس ، وأخذ السلاجقة بعده يرتفعون بالبناء حتى أشرف على بلاد الروم (٢) ، وسواحل البحر

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) المقصود ببلاد الروم فى ذلك الوقت البلاد التى سميت بعد ذلك بآسيا الصغرى .

الأبيض المتوسط(١) ، والهند والصين ، حين بلغ السلاجقة أوج قوتهم ، وأعلى درجات رفعتهم .

وتجمع كتب التاريخ على أن وزير طغرل أبا نصر منصور بن محمد الكندري(٢) الذى كان يلقب بعميد الملك ، قد ساهم فى ارساء أساس دولة السلاجقة ، فى تدعيم أركانها ، بما كان له من الكفاءة وثقافة واسعة ، كما أنه كان من الكتاب المجيدين باللغتين العربية والفارسية .

وكان لمنصب الوزارة فى العصر السلجوقى أهمية كبيرة باعتباره منصبا يلى منصب السلطان فى أهمية ، مما جعل تولى الوزارة هدفا ، تتولع اليه الأبصار ، وتهفوا اليه النفوس فصار «ثارا للتنافس بين كبار رجال الدول من غير أفراد البيت السلجوقى ، وقب ادى التنافس على منصب الوزارة الى كثير من المنازعات حين ضعفت دولة السلاجقة ، مما كان له أثر فى سير الأحداث فى هذه الدولة فى أضرباء- أيامها ، كما سيأتى .

(١) كان البحر الأبيض يسمى حينذاك « بحر الروم » .

معلومات مفصلة عن الكندري وسيرته .

(٢) يمكن الرجوع الى ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٦هـ لمعرفة

الفصل الرابع

السلاجقة في أوج قوتهم

كانت دولة السلاجقة حين وفاة طغرل - أول سلطان لها - دولة قوية ، راسخة الأركان ، متينة البنيان ، ولم يكن له ولد يرث العرش من بعده ، كما لم يضع نظاما لولاية العهد يلتزم به أفراد البيت السلجوقي بعد وفاته ، فغلب النظام القبلي على السلاجقة ، وصار العرش مطعما للأقوياء من أفراد البيت السلجوقي ، ومثارا للتنافس والتنازع بينهم . وأصبح مشكلة تطل برأسها عقب وفاة كل سلطان سلجوقي ، وتساهم في الاطاحة بالدولة السلجوقية نفسها ، حين أصاب هذه الدولة الضعف والتصدع والتشقق ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن السادس الهجري .

وكان التنازع على العرش بين أفراد البيت السلجوقي يعقبه تنازع على الوزارة بين كبار رجال الدولة ، لأن السلطان الجديد كان يختار وزيرا جديدا ممن يطمئن الى ولائهم له ، مما جعل العرش والوزارة مشكلتين تظهران عقب وفاة كل سلطان تقريبا ، لذلك أجد من الضروري في دراسة دولة السلاجقة في ايران والعراق أن أعرض التنازع حول العرش والوزارة ، سواء في عصر قوة السلاجقة أو في عصر ضعفها ، لالقاء ضوء على الأحداث ، وبيان تأثير هاتين المشكلتين في توجيه سير الأحداث المختلفة في ايران والعراق في العصر السلجوقي .

١ - التنازع على العرش بعد طغرل :

كانت وفاة طغرل دون أن يترك ولدا في رمضان من عام ٤٥٥هـ (١٠٦٣م) ووفاته أخيه الأكبر جفري حاكم خراسان وما وراء النهر قبله في رجب من عام ٤٥١هـ (١٠٥٩م) سببا في إثارة التنازع على عرش السلاجقة

بين أفراد البيت السلجوقي وكان ألب أرسلان أكبر أبناء چغرى ، وأحد قواد الجيش السلجوقي ، عصر عمه طغرل ، وقد أصبح حاكما على خراسان وما وراء النهر بعد وفاة أبيه ، فتطلع الى الجلوس على عرش السلاجقة بعد وفاة عمه ، وكان يعاونه وزيره الذى كان اسمه أبو على حسن بن على ابن اسحق الطوسى ، اشتهر بلقب نظام الملك ، كما اشتهر بالذكاء والدهاء وقوة النفوذ ، وسعة الحيلة ، وتنوع الثقافة ، فتطلع الى تولي منصب الوزارة فى الدولة السلجوقية كلها حين يحمي ألب أرسلان سلطانا على هذه الدولة ، وقد دفع هذا نظام الملك الى تشجيع ألب أرسلان على اعلان نفسه سلطانا على السلاجقة وخليفة لعمه السلطان الراحل طغرل الأول .

غير أن طغرل كان قد تزوج باحدى أرامل أخيه الراحل چغرى وكانت شابة جميلة قد أنجبت ابنا من چغرى اسمه سليمان ، وقد أقام ابنها معها فى كنف عمه بالرى ، فاستطاعت التأثير على زوجها الجديد طغرل ، وجعله يختار ابنها وليا للعهد فلما توفى طغرل فى عام ٤٥٥ هـ ، طلبت من الوزير أبى نصر الكندرى اعلان ابنها سليمان سلطانا على السلاجقة برغم أنه كان طفلا ، لم يجاوز الرابعة من عمره الا ببضعة أشهر .

وقد وجد الكندرى فى تعيين سليمان مصلحة له ، فصغر سن السلطان ، يمكنه من الاحتفاظ بالوزارة ، والانفراد بالسلطان وتوجيه سير الأمور فى الدولة السلجوقية ، مما جعله يبادر باعلان سليمان بن چغرى الأصغر سلطانا على السلاجقة - برغم صغر سنه - ويأمر بقراءة الخطبة باسمه (١) ، متجاهلا أخاه الأكبر ألب أرسلان .

وهكذا وجد سلطانان فى وقت واحد ، وبرز التنازع على العرش فى صورة سافرة ، تهدد بحدوث اشتباك بين الطرفين ، وكانت كفة ألب أرسلان هى الأرجح ، لكبر سنه ، وتجاربه السابقة فى الحروب التى خاضها تحت قيادة عمه طغرل ، ولذلك لم يتردد ألب أرسلان فى التحرك نحو الرى عاصمة الدولة للقضاء على تمرد الكندرى وأخيه الطفل والجلوس على عرش السلاجقة .

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٦ .

ولم يكد ألب أرسلان يتحرك صوب الري فى أواخر عام ٤٥٥ هـ (١٠٦٣م) حتى بادر أكثر أفراد البيت السلجوقى باعلان تأييدهم له ، وموافقته على تولي عرش السلاجقة بعد عمه طغرل ، مما قوى مركزه ، وأضعف موقف الكندرى والسلطان الطفل سليمان ، فأيقن الكندرى أن من مصلحته أن يخضع للأمر الواقع ، ويعلم تأييده لتولى ألب أرسلان عرش السلاجقة على أن يكون أخوه الأصغر سليمان وليا لعهد (١) ، وظن الكندرى أنه يستطيع بذلك تجنب غضب السلطان ألب أرسلان ، والظفر بشيء من الجاه والنفوذ ، والاحتفاظ بالوزارة إذا استطاع الى ذلك سبيلا ، وقد أمر الكندرى بقراءة الخطبة فى الري عاصمة السلاجقة باسم ألب أرسلان .

وقد قبل ألب أرسلان ما أعنك الكندرى ، فاستتب له الأمر وتهيأ له دخول مدينة الري دخول الظافرين ، وبرفته وزيره نظام الملك وكان ذلك فى ذى الحجة من عام ٤٥٥ هـ (١٠٦٣م) ، بعد أن اعترف أكثر أفراد البيت السلجوقى به سلطانا عليهم ، غير أن فتنة أخرى لم تلبث أن أطلت برأسها حينذاك ، فأجل ألب أرسلان دخول الري والجلوس على العرش ، حتى يتم له القضاء على هذه الفتنة الجديدة التى أيقظها ابن عم والده ، وكان اسمه شهاب الدولة قتلش بن اسرائيل ، وهكذا استمر التنازع على العرش دون هوادة ، ووصل الى درجة القتال بين الطرفين المتنازعين فقد تقدم قتلش على رأس جيش ، رافعا علم الثورة على ألب أرسلان ، ومعلنا أنه أحق بالسلطنة منه ، لأنه فى منزلة عمه ، ثم توجه الى الري عاصمة دولة السلاجقة ، وتمكن من الاستيلاء عليها ، والجلوس على عرش السلاجقة فيها ، وعلان نفسه سلطانا على الدولة .

غير أن ألب أرسلان واصل فى الوقت نفسه سيرة صوب الري على رأس جيش كبير ، فخرج قتلش للقاءه ، والتمح الجيشان فى معركة طاحنة فاصلة بالقرب من الري ، انتهت بهزيمة قتلش وقتله ، ودخول ألب أرسلان عاصمة السلاجقة فى آخر المحرم من عام ٤٥٦ هـ (١٠٦٣م) ، فانتهت بذلك معركة

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١١٦ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٥ هـ .

السلطنة ، وحدثت مشكلتها ، واستتب الأمر لألب أرسلان دون منازع ، فأصبح سلطانا على السلاجقة ، وأخذ يكمل مسيرة عمه طغرل ، فيعمل على تقوية دولة السلاجقة ، ورفع بنيانها ، حتى تبلغ أوج قوتها .

٢ - التنافس على الوزارة :

لم يكد التنافس على عرش السلاجقة ينتهى بجلوس ألب أرسلان على عرش السلاجقة حتى بدأ التنافس على الوزارة بين عميد الملك الذى كان وزيرا للسلطان طغرل الأول مؤسس دولة السلاجقة وبين نظام الملك الذى كان وزيرا لألب أرسلان حين كان واليا على خراسان وما وراء النهر ، وكان نظام الملك أقوى أنصار ألب أرسلان وقد شجعه على اعلان نفسه سلطانا على السلاجقة بعد وفاة عمه طغرل ، وظل يؤازره حتى انتصر على منافسيه ، وتمكن من استخلاص عرش السلاجقة لنفسه ، بينما أيد عميد الملك تولى سليمان أخى ألب أرسلان الأصغر عرش السلاجقة ، مما جعل كفن نظام الملك أرجح من كفة عميد الملك فى تولى وزارة السلاجقة فى عهد السلطان الجديد ألب أرسلان .

وكان عميد الملك مقيما فى الرى حين دخلها ألب أرسلان سلطانا وبصحبته نظام الملك ، فبادر عميد الملك باظهار ولائه للسلطان الجديد ، وتقرب اليه بالهدايا ، وحاول كسب رضاه بالقول والعمل أملا فى الاحتفاظ بمنصب الوزارة غير أن نظام الملك كان له بالمرصاد ، فخوف السلطان من غدره ، وبخاصة بعد أن كثر من جند السلطان الراحل طغرل يحبون عميد الملك الكندرى ويلتفون حوله ، مما جعل نظام الملك يخشى بأسه ، ويصمم على البطش به فى أسرع وقت ممكن ، فأخذ نظام الملك يحرض السلطان على عميد الملك ، ويجسم له خطره ، حتى أوجس السلطان فى نفسه خيفة من عميد الملك ، فأمر بالقبض عليه ، وايداعه السجن فى مدينة نسا (١) ، وهكذا أطاح بنظام الملك بمنافسه عميد الملك ، وظفر بكرسى الوزارة دون منازع .

غير أن نظام الملك لم يقتنع بايداع عميد الملك السجن ، بل ظل يحرض السلطان عليه ، ويخفه من بقاءه على قيد الحياة ، حتى أمر السلطان بقتله

(١) الزاوندى : راحة الصدور ، ص ١١٧ .

بعد أن ظل فى السجن عاما ، وروى أن قتله تم فى مدينة مرو الرود (١) .
وكان قتل عميد الملك وزير السلطان طغرل سنة سيئة فى عصر السلاجقة
فقد أدى العمل بها الى قتل عدد من وزراء السلاجقة ، واكتوى نظام الملك
نفسه بنارها فيما بعد .

وقد ورد فى بعض كتب التاريخ أن عميد الملك الكندرى نبه الى خطر
هذه السنة السيئة قبيل تنفيذ حكم الاعدام فيه ، فالتمس من قاتله أن يحمل
عنه رسالتين شفويتين ، وأن يبلغ احدهما للسلطان والأخرى للوزير .

أما رسالة الكندرى الى السلطان فهى قوله : « ان هذه أجل خدمة أديتها
لى ، فقد منحنى عمك الدنيا لأحكامها ، ومنحتنى أنت الآخرة ، لأن أمرى يقتلى
جعلنى أحظى بالشهادة ، وأظفر بأجر الشهداء ، فظفرت بخدمتك هذه بالدنيا
والآخرة معا » .

وأما رسالته الى الوزير نظام الملك فهى قوله : « انك قد سذنت سنة سيئة
بقتل الوزراء ، وانى لأرجو أن تنفذ هذه السنة فيك وفى أولادك » (٢) .

ومهما يكن من شئ ؛ فان قتل عميد الملك الكندى ، قد وضع حدا
للتنافس على الوزارة ، بعد انتهاء التنافس على العرش ، فكما خلص عرش
السلاجقة ألب أرسلان ، خلصت الوزارة فى عهده لنظام الملك ، وأخذت
الأوضاع فى الدولة السلجوقية تستقر فى أوائل عام ٤٥٧هـ (١٠٦٤م) ،
وأخذ السلطان ألب أرسلان بمعاونة وزيره نظام الملك يرتفع ببناء دولة
السلاجقة ، على الأساس الذى أرساه عمه طغرل فى ايران والعراق من
قبل ، وقد بلغ السلاجقة فى عهد ألب أرسلان وفى عهد ابنه ملكشاه أوج

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٩ ؛ وابن الأثير : الكامل
حوادث سنة ٤٥٦هـ .

(٢) الراوندى : راحة الصدر ، ص ١١٧ - ١١٨ ، ونص الرسالتين اللتين
وجههما عميد الملك الكندرى للسلطان ألب أرسلان ووزير نظام الملك
منقول من الترجمة العربية لكتاب راحة الصدر وآية السرور للراوندى
المذكورة فى ثبت المراجع فى آخر كتابنا هذا أما أصل الرسالتين فمذكور
فى أصل كتاب الراوندى باللغة الفارسية .

قوتهم ، وكان نظام الملك وزيرا للدولة فى العهدين ، فساهم بحكمته وحسن تدبيره فى تدقيق أهداف السلاجقة حتى بلغوا أوج قوتهم .

أهداف السلاجقة فى عهد ألب أرسلان :

ورث ألب أرسلان دولة راسخة القواعد ، متينة الأساس ، نافذة الحكم فى ايران والعراق ، يدعمها جيش قوى ، وكان ألب أرسلان قائدا ماهرا مظفرا ، مارس الحرب ، واشترك فى المعارك فى عهد عمه طغرل ، وساهم فى بسط نفوذ السلاجقة فى ايران والعراق ، كما كان وزيره نظام الملك رجلا حكيما ، واسع الثقافة ، وسياسيا محنكا ، ثاقب الفكر ، بعيد النظر ، ذا ذكاء ودهاء ، وهكذا اجتمع لدولة السلاجقة حسن القيادة ، وحسن السياسة .

وقد تدارس السلطان ووزيره الاوضاع فى دولة السلاجقة ، كما درسوا أحوال الدول المجاورة لها ، وحددا أهداف السلاجقة القريبة والبعيدة على ضوء تلك الدراسة ، فاتفق رأيهما على أن تكون أهداف السلاجقة فى جميع الأراضى الخاضعة لهم فى ايران والعراق ، وأن تكون أهدافهم البعيدة بسط نفوذ السلاجقة على مناطق جديدة ، حتى تتسع رقعة دولتهم ، فيعظم شأنهم ، ويرتفع قدرهم ، ورجح السلطان والوزير أن تكون المناطق الجديدة التى تتحقق بها أهداف السلاجقة البعيدة ، هى المناطق النصرانية المجاورة لايران كبلاد الأرض وبلاد الروم ، بهدف نشر الاسلام فيها ، الأمر الذى يكسب حروب السلاجقة طابع الجهاد فى سبيل الله ، لنصرت دينه الحق ، واعلاء كلمته ، فترتفع بذلك راية الاسلام خفاقة فى أرجاء جديدة من العالم (١) ، مما يرفع من قدر السلاجقة ويكسبهم حب المسلمين جميعا ، ويرهب أعداءهم ، وأعداء الاسلام والمسلمين فى كل مكان .

أولا : تحقيق الأهداف القريبة

بدأ ألب أرسلان منذ أوائل عام ٤٥٧هـ (١٠٦٤م) بتنفيذ أهداف السلاجقة القريبة ، بتثبيت سلطانهم فى ايران والعراق ، وكان أول عمل قام به اخماد فتنة جديدة أيقظها عمه بيغو الذى كان واليا على هراة ، فقد

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١١٨ وما بعدها .

عز على نفسه أن يصير تابعا لابن أخيه ، فرفع راية العصيان ، وحاول الاستقلال بحكم المناطق الخاضعة لنفوذه ، فسار اليه ألب أرسلان ، فلما اقترب من هراة خرج بيغو لقتاله ، ودارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس بالقرب من هذه المدينة ، انتهت بانتصار السلطان على عمه المتمرّد في أواخر عام ٤٥٧هـ (١٠٦٥م) ، وتعهد هذا العم ، بالتزام الطاعة والولاء لابن أخيه السلطان الذي انتهاز فرصة وجوده في منطقة هراة ، فقام بتأديب كل من يخشى أن يصدر عنهم تمرد في أنحاء ما وراء النهر وخراسان ثم رجع الى نيسابور بعد أن أعاد سيطرته ، وسلطان الدولة السلجوقية على المناطق الشرقية والشمالية من ايران .

ثم أخذ ألب أرسلان بعد ذلك يتفقد الأجزاء الأخرى من دولة السلاجقة في ايران والعراق ، حتى يحقق أهداف السلاجقة القريبة ، ويثبت سلطانهم في سائر أرجاء الدولة وقد شغل بهذا الأمر ست سنوات الى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) وبدأ بالأجزاء الجنوبية من ايران ، فتوجه من خراسان الى اصفهان ، وثبت سيطرته على المناطق الجنوبية من ايران ، وأمن حدود دولته الجنوبية بالاستيلاء شبانكاره في عام ٤٥٨هـ (١٠٦٥م) ، والسيطرة على فارس في عام ٤٥٩هـ (١) (١٠٦٦م) ، ثم توجه الى كرمان (٢) ، فأحسن أخوه قاورد استقاله ، وكان واليا على هذه المنطقة ، فطمأنه على استتباب الأمن فيها ، ثم توجه ألب أرسلان الى مرو ، للاطمئنان على سيطرة أعوانه على أجزاء ما وراء النهر المختلفة .

وظل ألب أرسلان يتفقد أجزاء دولة السلاجقة في ايران والعراق ويزور الأقاليم المختلفة فيها الى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) حتى أيقن أن جميع أقاليم الدولة تدين له بالطاعة والولاء ، وأن الفتن الداخلية قد خمدت تماما ، وأن الوقت قد حان لتحقيق أهدافه البعيدة ، بفتح بلاد غير اسلامية ، ونشر الاسلام فيها .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٩هـ .

(٢) كان قاورد حاكما على ولاية كرمان منذ عام ٤٣٣هـ (١٠٤١م) .

ثانيا : تحقيق الأهداف البعيدة(١)

كان السلاجقة برعامة ألب أرسلان أكبر قوة فى العالم الاسلامى فى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) ، مما شجع ألب أرسلان على التفكير فى غزو بلاد الروم ، كما أنه وثق صلاته بالدولتين الغزنوية والخراسانية حتى يؤمن ظهره ، فلا يطعن من الخلف ، وهو مشغول بغزو بلاد الروم ، فربط دولة السلاجقة برباط المصاهرة مع هاتين الدولتين ، بأن تزوج أحد أبنائه ابنة السلطان ابراهيم الغزنوى وتزوج ابنه الأكبر ملكشاه ابنة طمغاخ خان ملك الخانيين ، وهىأت المصاهرة للسلطان ألب أرسلان أن يتفرغ لغزو بلاد الروم ببال هادىء .

وقد قاد ألب أرسلان جيشه المكون من أربعين ألف جندى جنوب أذربيجان ، ثم بدأ بفتح الأقاليم النصرانية المجاورة لحدود السلاجقة ، فاتجه غربا لفتح بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المطلّة على بلاد الروم .

وكان أهل هذه الأقاليم يكثرّون من الاغارة على منطقة أذربيجان ، حتى أصبحوا مصدر قلق لسكان هذه المنطقة ، فوضع ألب أرسلان حدا لغاراتهم بفتحه لتلك الأقاليم ، وأصبح بعد فتحها يهدد ممتلكات الروم(٢) .

غزو بلاد الروم :

كان تقدم ألب أرسلان بجيشه نحو بلاد الروم ، واستيلائه على جورجيا وبلاد الأرمن ، وعلى الجزء الأكبر من البلاد الواقعة بين بحيرتى وان وأورمية ، والسيطرة على قلاعها بمثابة اعلان للحرب على الروم وبخاصة بعد أن أدركوا أن ألب أرسلان يصبغ غزوة بصبغة الجهاد فى سبيل الله من أجل نصرة الاسلام ونشره ، وصبغ المنطقة بالصبغة الاسلامية ، مما جعل حدوث قتال بين السلاجقة والروم أمرا لا مفر منه .

وقد تحرك رومانوس ديوجينيس Romanos Diogines قيصر الروم

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١١٨ ، وقد بالغ فقال ان ألب أرسلان غزا جميع أنحاء العالم .

(٢) المقصود بممتلكات الدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقية ، وكانت آسيا الصغرى تسمى حينذاك بلاد الروم .

على رأس جيش كبير لمواجهة غزو السلاجقة لممتلكاته فى منتصف عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) وذرع القيصر بجيشه آسيا الصغرى فى محاولة لتطويق الجيش السلجوقى كما استولى على منطقة حلب ، وكان أميرها يدين بالمطاعة والولاء للخليفة الفاطمى فى مصر ، فأصبح القيصر بذلك فى موقع يهدد السلاجقة بخطر التطويق .

وفطن ألب أرسلان الى هدف القيصر ، فأرسل جزءا من الجيش بقيادة ابنه مكلشاه ، لغزو الأجزاء الشمالية من بلاد الشام ، وفتح حلب ، حتى يحبط ما قام به القيصر ويفسد خطته ، وينقذ جيش السلاجقة من خطر التطويق .

وقد حقق جيش السلاجقة الهدف الذى توجه من أجله الى بلاد الشام فسيطر على منطقة حلب ، وأعلن واليها ولاءه للسلاجقة السنيين بعد أن كان مواليا للفاطميين النديعة ، فدنف اسم الفاطميين من الخطبة ، وأحل محله اسم العباسيين ، كما تمكن الجيش السلجوقى من الاستيلاء على جزء كبير من بلاد الشام ، والاستيلاء على بيت المقدس ، وقد ثم كل ذلك فى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) ، كما حاصر الجيش السلجوقى دمشق ، غير أنه لم يتمكن من فتحها فى ذلك الوقت .

وهكذا نجح الجيش السلجوقى فى بلاد الشام فى تأمين سلامة الجيش السلجوقى الزاحف الى بلاد الروم ، وانقاذه من خطر جيش قيصر الروم له ، فلم يجد قيصر الروم بدا من الهجوم المباشر على جيش ألب أرسلان ، فتوجه بجيش جرار يضم فرقا من الشعوب النصرانية المختلفة (١) نحو المنطقة التى يعسكر فيها جيش السلاجقة فى نواحي « ملازكرد » وعسكر بالقرب من مدينة « أخلاط » فى مواجهة جيش السلاجقة .

وأحس ألب أرسلان بضخامة عدد جيش الروم ، وكثرة عتاده وشعر بأنه أمام خطر داهم ، فبادر بالهجوم على مقدمة جيش الروم ،

(١) وردت فى كتب التاريخ أن الجيش الرومى كان كثير العدد قوى العدد يترك جيش السلاجقة عددا وتسليحا وكان يضم أخلاطا من الشعوب النصرانية تمثل الروس والجورجيين والبلغاريين واليونانيين والفرنسيين ، ويبلغ عدده مائتى ألف جندي .

واستطاع احرار نصر يمكنه من التفاوض مع قيصر الروم ، لتسوية الموقف صلحا ، لأن ألب أرسلان أدرك أن من الصعب على جيشه أن يقاتل جيشا ضخما كجيش الروم ، ففضل ارجاء غزو بلاد الروم الى فرصة أخرى ، وحاول الاستفادة من انتصاره على مقدمة جيش الروم فى التفاوض مع الروم ، لعقد صلح بين الطرفين ، فأرسل مبعوثا من قبله الى قيصر الروم ليعرض عليه الصلح مع السلاجقة ، فرغض القيصر ، وأشاح بوجهه فى غطرسة وكبرياء ، ولم يحاول استماع الى كلام مبعوث السلاجقة ، وطلب ابلاغ ألب أرسلان أن الصلح لن يتم الا فى مدينة الرى عاصمة السلاجقة ، فأيفن ألب أرسلان أن الروم يريدون القضاء على دولة السلاجقة والاطاحة بها ، فأعلن بين جنوده أن الاسلام فى خطر ، ولا سبيل الى انقاذه من هذا الخطر الا بالقضاء على جيش الروم ، ودعا جنوده الى الاستماتة فى القتال ، دفاعا عن الاسلام ، وحفاظا على دولة المسلمين ، وابقاء لمبادئ الاسلام ، دين الله الدق ، الذى يزيغ أمامه كل باطل ، وهكذا بين ألب أرسلان لجنوده أن قتال الروم جهاد فى سبيل الله ، ووسيلة للظفر باحدى الحسينين ، النصر أو الشهادة .

موقعة ملازكرد :

كان صبح الحرب بين السلاجقة والروم بصيغة دينية سببا فى ازدياد حماس جنود السلاجقة ، وتسابقهم الى الهجوم على جيش الروم المعسكر فى نواحى ملازكرد ، فدارت بين الطرفين معركة طاحنة فاصلة من أشهر المعارك الحربية التى شهدتها التاريخ ، عرفت باسم موقعة ملازكرد .

وكان وقوع هذه المعركة فى أواخر عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) ، وقد أبلى جنود السلاجقة فيها بلاء حسنا ، وهجموا على جيش الروم فى جراءة ، وأمعنوا فى الروم تقتيلا وتجريحا ، حتى فرشوا ساحة القتال بجثثهم ، ووقع القيصر رومانوس نفسه أسيرا فى أيديهم ، وحاقت الهزيمة بجنوده ، فتفرقوا ، ووقع العديد منهم أسرى فى أيدي جنود السلاجقة الذين ظفروا بمغانم كثيرة ، نتيجة لانتصارهم الباهر على جيش الروم .

وسيق قيصر الروم رومانوس الى ألب أرسلان أسيرا ذليلا ، فأمر بجلده ثم سجنه ، وكان رومانوس يتوقع القتل ، غير أن السلاجقة لم

يقتلوه ، وقبلوا أن يفتديه قومه بالمال ، وبأن يعقد صلح بينهم وبين الروم ،
ينظم العلاقات بين الطرفين .

وقد افتدى الروم قيصرهم بدفع مبلغ كبير من المال دية له (١) ، وعقدوا
معاهدة صلح مع السلاجقة مدتها خمسون عاما ، تعهدوا فيها بدفع جزية
للسلاجقة طوال مدة المعاهدة ، واعترفوا بسيطرة السلاجقة على المناطق
التي فتحوها من بلاد الروم ، كما تعهدوا بعدم الاعتداء على ممتلكات دولة
السلاجقة .

نتائج موقعة ملازكرد :

وقد كانت موقعة ملازكرد - فى الحقيقة - نقطة تحول فى تاريخ غربى
آسيا بخاصة وفى التاريخ الاسلامى بعامة ، لأنها يسرت القضاء على
سيطرة الروم على أكثر أجزاء منطقة آسيا الصغرى ، مما ساعد على
القضاء على دولة الروم نفسها - بعد ذلك - على أيدي الأتراك العثمانيين .

فمنذ هزيمة الروم فى موقعة ملازكرد صرفوا نظرهم عن هذا الجزء
من آسيا الصغرى ، ثم عجزوا عن الاحتفاظ بالأجزاء الأخرى منها أمام
غزوات المسلمين الأتراك من السلاجقة والعثمانيين ، وقد توالى هذه الغزوات
فى القرون الثلاثة التالية لموقعة ملازكرد ، وانتهت بالاطاحة بدولة الروم ،
والاستيلاء على القسطنطينية عاصمتها ، واتخاذها عاصمة للدولة الاسلامية
العثمانية ، وتسميتها اسلامبول (٢) .

وهكذا تابع المسلمون الأتراك من السلاجقة الكفاح الذى قام به العرب
ضد الروم ، فلقد كانت كفة الروم راجحة فى بلاد الأرمن وما جاورها من
بلاد آسيا الصغرى التى لم تلبث أن سميت باسمهم ، فضلت قرونا عديدة

(١) ورد فى كتب التاريخ المختلفة - أن الدية التى دفعها الروم لفك أسر
قيصرهم رومانوس كانت خمسمائة ألف دينار مغربى من الذهب
الخالص وأن الجزية كانت مائة ألف دينار سنويا ، أرجع الى المراجع
التي سبق ذكرها لمعرفة معلومات أكثر تفصيلا .

(٢) معناها عاصمة الاسلام .

تعرف باسم بلاد الروم (١) ، كما كان البحر الأبيض المتوسط يعرف كذلك باسم بحر الروم حينذاك .

وكان الروم يعنون هذه المنطقة قنطرة بين الشرق والغرب ، ويحرصون على السيطرة عليها مما جعل المنطقة موضع نزاع بين الروم والفرس قبل الاسلام غير أن كفة الروم كانت هي الراجحة غالباً ، ثم حاول المسلمون بعد الفرس ، أن يضعوا أيديهم عليها أو على جزء منها فلم يوفقوا ، لأن نفوذ الروم فيها كان قوياً طاغياً ، مما جعل مظاهر الحضارة الرومية واضحة في المنطقة المذكورة وضوحاً قوياً ، كان من أبرز معالمه انتشار النصرانية بين سكانها .

ولم يكد السلاجقة المسلمون ينتصرون على الروم النصارى في موقعة ملازكرد في عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) حتى تغيرت صورة الحياة وصورة الحضارة في المنطقة ، فأخذت الحياة تصطبغ بالصبغة الاسلامية ، منذ أن أشرقت عليها شمس الاسلام بعد انتصار الاسلام في ملازكرد ، وانحسار النفوذ الرومى تدريجياً عن هذه المنطقة ، فقد أخذ سكانها يدخلون في الاسلام ، ويتعلمون مبادئه ، ويلتزمون بهذه المبادئ في سلوكهم ومظاهر حياتهم ، فظهرت آثارها في مظاهر حضارتهم المختلفة .

وقد واصل الأتراك السلاجقة المسلمون غزوهم لمناطق أخرى من بلاد الروم بعد انتصارهم في ملازكرد ، حتى توغلوا في قلب آسيا الصغرى ، ففتحوا قونيه وآق سرا ، ووصلوا الى كوتاهيا وأسسوا فرعاً لدولة السلاجقة في هذه المنطقة عرف باسم سلاجقة الروم ، ظل حكامه يتناوبون الحكم أكثر من قرنين من الزمان ، بعد انتصار السلاجقة الحاسم في ملازكرد ، مما ساعد على تثبيت حكم المسلمين ، وغلبة الصبغة الاسلامية على ألوان الحياة المختلفة في منطقة آسيا الصغرى ، بحيث أصبحت هذه المنطقة جزءاً من بلاد المسلمين الى يومنا هذا ، والى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وكان من ثمار تحول المنطقة هذا التحول الجذرى انتشار اللغة

(١) مازالت هناك مدينة في المنطقة اسمها أرمرود أى أرمن الروم أو بلاد الروم .

الفارسية لغة الجنود الفاتحين ، واللغة التركية لغة السلاطين الحاكمين ،
واللغة العربية لغة الاسلام دين رب العالمين فى تلك المنطقة ، مما كان له
آثار ملموسة فى مظاهر حضارتها منذ ذلك الوقت الى الوقت الحاضر ،
وهى آثار واضحة وضوحا بينا .

وهكذا كان انتصار السلاجقة فى ملازكرد نقطة تحول فى تاريخ منطقة
آسيا الصغرى بخاصة ، فقد غير صورتها النصرانية التى ظلت ملامحها
قرونا عديدة دون تغيير ، وجعلها صورة اسلامية ، ظهرت ملامحها فى
السياسة والاجتماع والاقتصاد والأدب وسائر الفنون وفى اللغات المستعملة
فى الحديث والأدب والعلم وكل لون من ألوان النشاط البشرى فى تلك
المنطقة .

كما كانت موقعة ملازكرد نقطة تحول فى التاريخ الاسلامى بعامة
لأنها فتحت باب الحروب بين الشرق الاسلامى والغرب النصرانى وهى
مختلفة ، واتخذت أسماء متنوعة ، كـالغزو الاقتصادى والغزو الثقافى
والغزو الفكرى .

حروب استمرت مدة طويلة باسم الحروب الصليبية ، ثم بقيت فى صور
وقد قامت الحروب الصليبية بعد معركة ملازكرد بربع قرن تقريبا ،
واتخذت صبغة دينية مثلها ، مما سبب عنه بعد هذا فى مكانه المناسب .

وهكذا تتضح أهمية موقعة ملازكرد بالنسبة لمنطقة غربى آسيا بخاصة ،
وبالنسبة لتاريخ المسلمين بعامة مما يجعل هذه الموقعة من المواقع الحاسمة
فى التاريخ ويجعلها جديرة بالدراسة التفصيلية الكاشفة لنتائجها وآثارها
الباقية الى الوقت الحاضر .

نهاية ألب أرسلان :

ارتفع شأن ألب أرسلان بعد انتصاره الباهر فى موقعة ملازكرد ،
وصار مرهوب الجانب فى الشرق الاسلامى والغرب النصرانى على السواء ،
كما صار محبوبا من جانب المسلمين فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ،
ومقدرا من الخليفة العباسى كما ارتفع شأن وزيره نظام الملك الذى ساهم
فى رسم سياسة السلاجقة وتحديد أهدافهم القريبة والبعيدة .

غير أن ألب أرسلان لم يعيش طويلا ، ليبنى ثمار نصره العظيم ،
ويواصل فتوحاته ، ويحقق كل أهدافه البعيدة ، فقد قتل بعد عام وبضعة
أشهر من حدوث موقعة ملازكرد على يد أحد الثائرين (١) .

ففى أوائل عام ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) قتل ذلك السلطان القوى ، والقائد
البطل ، وهو فى الرابعة والأربعين من عمره (٢) ، اثر فتنة ظهرت فى بلاد
ما وراء النهر حيث يوجد أصهاره الخانيون ، وفكر ألب أرسلان فى اخمادها
بعد فراغه من قتال الروم والانتصار عليهم فتوجه الى الشرق فى أوائل
عام ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) ، ثم عبر نهر جيحون ، وهاجم احدى القلاع
التمردة (٣) ، واستولى عليها ، وقبض على قائدها (٤) ، ونظراً لما أبداه هذا
القائد المتمرد من عناد فى مقاومته ، فقد رغب ألب أرسلان فى أن يقوم
هو نفسه بقتله متأثراً فى ذلك بالتقاليد البدوية وروى أن ألب أرسلان أمر باحضاره
أمامه ، فلما مثل بين يديه رماه بسهم ، ولكن السهم أخطه ، وكان القائد
يخفى سكيناً فى رباط ساقه ، فأخرجها ، وهاجم بها السلطان على حين
غرة ، وطعنه بها طعنة نافذة قاتلة ، وكان ذلك فى اليوم السادس من شهر
ربيع الأول من العام المذكور ، وقد توفى ألب أرسلان متأثراً بجراحة ، بعد
أربعة أيام من طعنه ، أى فى اليوم العاشر من الشهر المذكور ، ودفن فى
مدينة مرو ، بعد أن حكم تسعة أعوام ونصف عام تقريباً (٥) .

وهكذا طويت صفحة سلطان عظيم ، وقائد مظفر من قواد السلاجقة
وسلاطينهم العظام ، استطاع فى أثناء مدة حكمه القصيرة أن يرفع شأن
دولة السلاجقة ، ويدعم قدرتها ، ويجعلها أكبر قوة فى العالم فى ذلك

-
- (١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٠ - ١٢١ .
(٢) ولد ألب أرسلان فى عام ٤٢١ فى العام الذى توفى فيه السلطان
محمود الغزنوى فاستبشر السلاجقة جولده .
(٣) كانت هذه القلعة تسمى قلعة خوارزم أو قلعة برزم لأنها كانت قريبة
من بحيرة تسمى بهذا الاسم .
(٤) كان اسم القائد المتمرد يوسف الخوارزمى ، كما ذكر باسم يوسف
البرزمى .
(٥) الراوندى : راحة الصدور : فى ١٢٠ - ١٢١ : ابن الاثير : الكامل ،
حوادث سنة ٤٦٥ هـ .

الوقت ، فلقد تمكن ألب أرسلان من توطيد دعائم الدولة ، ثم ارتفع ببنيانها حتى صار شامخا يحس العالم كله بوجوده فى ذلك الوقت ، ويستشعر قوته وتماسكه ، مما أظهر قوة السلاجقة بخاصة ، وقوة العالم الاسلامى بعامه ، بحيث أصبحت دول العالم غير الاسلامى تحسب لها ألف حساب ، وتخشى الاحتكاك بها ، وقد صار تاريخ السلاجقة بذلك مرتبطا بالتاريخ العالمى ، مما يجعل عصر ألب أرسلان من أهم عصور سلاطين السلاجقة العظام ، كما يجعله جدير بالدراسة الكاشفة لجوانبه المختلفة .

وقد ساهم وزيره نظام الملك بحسن تفكيره ، ودقة تدبيره فى نجاح السلطان ألب أرسلان فى تحقيق أهدافه ، فأعطى بذلك أهمية ورونقا لمنصب الوزارة ، حتى أصبح كبار رجال الدولة أكثر تطلعا الى هذا المنصب ، وأشد حرصا على الظفر به ، فزاد التنافس عليه بعد ذلك .

وقد ظهرت قوة الوزير نظام الملك بوضوح بعد مصرع ألب أرسلان فقد وقف بجوار ابنه الأكبر ملكشاه ، وساعده على الجلوس على عرش السلاجقة خليفة لأبيه الراحل ، فظل نظام الملك بذلك محتفظا بالوزارة ، واستطاع مواصلة تنفيذ السياسة التى ساهم فى رسمها فى عهد السلطان ألب أرسلان ، فلم تذهب جهوده سدى بعد صرعه ، بل ظل البناء قائما شامخا ، لأن نظام الملك استطاع بكفاءته ، وحسن تدبيره أن ينفذ السياسة الناجحة التى كانت تنفذ فى عهد ألب أرسلان ، فازداد بناء دولة السلاجقة علوا وشموخا واتسعت رقعتها وعظم سلطانها .

تجدد النزاع على عرش السلاجقة

وقد جدد مصرع ألب أرسلان النزاع على عرش السلاجقة بين أفراد البيت السلجوقى ، غير أن ملكشاه بن ألب أرسلان الأكبر كان أرجحهم كفة ، لأنه كان يرافق أباه حين توجهه الى بلاد الخانيين لقمع الفتنة ، وكان معه الجيش السلجوقى ، كما كان يناصره الوزير نظام الملك الذى عرف بدهائه وحسن تدبيره ، فلما توفى السلطان ألب أرسلان ، قاد ابنه ملكشاه الجيش ، وتوجه به الى خراسان ، فلما بلغ نيسابور ، أعلن نفسه سلطانا على السلاجقة ، وأسند الوزارة الى نظام الملك حتى تستقر الأوضاع ، بعد الاضطراب الذى سادها اثر مصرع السلطان ألب أرسلان ، وكان ما تم

بتدبير من نظام الملك ، ثم كتب السلطان الجديد ملكشاه الى حكام الأطراف يدعوهم الى طاعته والولاء له ، كما كتب الى الخليفة العباسى فى بغداد طالبا موافقته على أن يخلف أباه على عرش السلاجقة ، بأن يصدر الخليفة منشورا بتوليته ، ويأمر بذكر اسمه فى الخطبة (١) .

وهكذا بادر ملكشاه بالامساك بزمام الأمور ، قبل أن تزداد الفتنة ، ويفلت الزمام من يده ، ثم توجه من نيسابور الى الرى عاصمة الدولة ، لتصريف الأمور ، غير أن عمه قاورد حاكم كرمان لم يعجبه ما فعله ابن أخيه ، فأعلن مخالفته لما تم ، كما أعلن أنه أحق بعرش السلطنة بعد وفاة أخيه ألب أرسلان ، ثم توجه على رأس جيش الى الرى ليجلس على عرش السلاجقة فى عاصمة دولتهم ، وأخذ يستولى على الأقاليم المختلفة الواقعة بين كرمان والرى ، ويبسط نفوذه فيها .

غير أن ملكشاه استطاع هو ووزيره نظام الملك أن يصلوا الى الرى قبل وصول قاورد ، فتمكن ملكشاه بهذا من السيطرة على العاصمة ، والجلوس على العرش ، وإعلان تمرد عمه قاورد ، وخروجه على الدولة ، الأمر الذى يوجب قتاله وتأديبه ، ثم توجه ملكشاه ومعه وزيره نظام الملك على رأس جيش كبير للقاء قاورد فى الطريق ، قبل اقترابه من الرى ، وتمكن ملكشاه من الوصول الى همذان قبل عمه ، ثم اشتبك بجيش عمه بالقرب من هذه المدينة ودارت بين الطرفين معركة طاحنة انتهت بانتصار ملكشاه ، ووقوع عمه قاورد أسيرا فلما أحضر أمام ابن أخيه أمر بقتله ، ليكون عبرة لمن يفكر فى التمرد عليه (٢) ، ووافق على أن تظل كرمان تحت حكم أبناء عمه قاورد ، فظلوا يتوارثون حكمها الى عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) فكانوا فرعا من فروع شجرة السلاجقة عرفوا فى التاريخ باسم سلاجقة كرمان وكان القضاء على فتنة قاورد سببا فى إعلان سائر الحكام الولاء لملكشاه ، مما وضع حدا للنزاع على العرش .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٥ هـ .
(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٦ - ١٢٧ : البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٤٨ ، محمد بن ابراهيم : تاريخ سلجوقيان كرمان ، ص ١٣ .

وكان انتصار ملكشاه انتصارا لوزيره القوى نظام الملك الذى كان عالما ناضجا قد جاوز الخمسة والخمسين من عمره (١) ، بينما كان السلطان الجديد شابا فى العشرين من عمره (٢) ، مما جعله يستمع الى نصائحه ، ويجله ويحترمه ، ويناديه بالعم ، ويقطعه اقطاعا وأفرا ، ويخلع عليه ، ويمنحه ألقاب التبجيل والاحلال (٣) ، لما ظهر من كفايته ، وحسن سيرته (٤) .

وأخذ نظام الملك بعد استقرار الأوضاع يواصل تنفيذ سياسة السلاجقة التى رسمت فى عهد ألب أرسلان ، وكانت تهدف الى بسط نفوذ السلاجقة على أقاليم جديدة ؛ حتى تبلغ دولة السلاجقة أوج قوتها ، ويتسع سلطانها ويرتفع بنيانها ، الى أعلى ارتفاع ممكن ، فبدأت بذلك مرحلة جديدة من الفتوحات .

فتوحات ملكشاه :

كانت دولة السلاجقة قوية مرهوبة الجانب حين أمسك ملكشاه بزمام الأمور فيها ، يعاونه الوزير نظام الملك الذى ثبتت كفاءته فى مدة وزارته لألب أرسلان ، ما شجع السلطان الشاب ملكشاه ، على مواصلة انتهاج سياسة فتح أقاليم جديدة ، وبسط سيطرة السلاجقة عليها ، لتوسيع رقعة الدولة من جهة الغرب .

وقد يسر انتصار السلاجقة الباهر فى ملازكرد فى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) فتح أبواب بلاد الروم فى وجه السلاجقة ، كما يسر فتح أجزاء من بلاد الشام - فى نفس العام - السبيل أمام سيطرة السلاجقة على بلاد الشام كلها ، والتطلع الى فتح مصر واسقاط الخلافة الفاطمية الشيعية التى كانت

(١) من المرجح أن نظام الملك قد ولد فى عام ٤١٠هـ وهناك قول بأنه ولد فى ٤٠٨هـ .

(٢) من المرجح أن ملكشاه قد ولد فى عام ٤٤٥هـ وهناك قول بأنه ولد فى عام ٤٤٧هـ .

(٣) ذكر الراوندى فى راحة الصدور وابن الأثير فى الكامل فى حوادث سنة ٤٦٥هـ أن ملكشاه منح نظام الملك القابا منها « أتابك » ومعناه « السيد الوالد » أو « الأمير الوالد » .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٥هـ .

ضعيفة ، آخذة فى الانهيار ، وكان القضاء عليها أهم الأهداف البعيدة فى نظر السلاجقة .

وهكذا وضحت معالم الطريق الى توسيع رقعة الدولة ، والأقاليم التى يستطيع جيش السلاجقة فى عهد ملكشاه . أن يتجه اليها ، ويغزوها ، ويسيطر سيطرة السلاجقة عليها ، ألا وهى بلاد الروم ، وبلاد الشام ومصر .

فتح بلاد الشام :

وقد بدأ ملكشاه بفتح بلاد الشام ، لأنه كان قد قاد جيشا فى عهد أبيه لفتح هذه البلاد ، وتمكن من فتح جزء منها ، والوصول الى بيت المقدس فى عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠م) ، ولذلك حرص ملكشاه بعد توليه عرش السلاجقة على استئصال ما بدأه ، فأعد جيشا ، وأسند قيادته الى أخيه تاج الدين تتش ، وأرسله الى بلاد الشام فى عام ٤٦٨ هـ (١٠٧٥م) ، فتمكن هذا الجيش من إعادة سيطرة السلاجقة على حلب ودمشق وبيت المقدس ، مما جعل السلطان ملكشاه يسند حكم بلاد الشام الى أخيه تتش فى عام ٤٧٠ هـ (١٠٧٧م) ، حتى يثبت أقدام السلاجقة فيها ، وسمح ملكشاه لأخيه بفتح ما يستطيع فتحه من أجزاء بلاد الشام ، ومن البلاد المجاورة لها ، لضمها الى حوزة السلاجقة ، وتأسيس فرع لدولة السلاجقة فى بلاد الشام واتخاذ مدينة دمشق مقرا لهذا الفرع الذى عرف فى التاريخ باسم « سلاجقة الشام » ، فأخذ تتش منذ ذلك الوقت يعمل على تثبيت نفوذ السلاجقة فى هذا الجزء من دولتهم ، فتوجه فى عام ٤٧١ هـ (١٠٧٨م) الى حلب (١) ليردها الى منطقة نفوذه ، بعد أن علم باستمرار صلة حاكمها سرا بالفاطميين فى مصر ، ولما وصل تتش الى تلك المدينة حاصرها حصارا شديدا ، حتى نفذت الأقوات فيها ، فانتشرت فيها المجاعة ، واضطرت فى النهاية الى التسليم ، والخضوع لحكم السلاجقة ، وقطع كل علاقة بالفاطميين .

وكان الفاطميون قد انتهزوا فرصة انشغال تتش باعادة فتح حلب ، فحاولوا فتح دمشق ، واعادة سيطرتهم عليها فأرسلوا جيشا لهذا الغرض ، نجح فى الوصول الى دمشق وعكف على حصارها ، غير أنه لم يستطع

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧١ هـ .

فتحها ، لأن تتش تمكن من السيطرة على حلب ، ثم أسرع الى دمشق لقتال الفاطميين ، فتركوا حصارها ، وانسحبوا قبل الاشتباك فى قتال مع السلاجقة (١) ، فدخل تتش دمشق دخول الظافرين فى عام ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) ، وقرر الإقامة فيها ، وجعلها مقرا لفرع دولة السلاجقة فى الشام ، وحاول تحسين سيرته ، وأن يحكم بالعدل بين الناس ، حتى يطمئنوا الى حكم السلاجقة ويقطعوا كل صلة لهم بالفاطميين ، ويرجعوا الى اتباع المذهب السننى ، ويدينون بالولاء للخليفة العباسى فى بغداد .

وقد نجح تتش فى تثبيت نفوذ السلاجقة فى بلاد الشام واستطاع فى أثناء خمس سنوات (٢) أن يسط نفوذ السلاجقة على أكثر أجزاء بلاد الشام ، بحيث صارت قلعة من قلاع السلاجقة المنيعة ، فخرجت نهائيا من قبضة الفاطميين وانضمت الى دولة السلاجقة ، وصارت داخل دائرة نفوذ المذهب السننى ، مما زاد الدولة الفاطمية ضعفا ، وكان عاملا من العوامل التى ساعدت على اسقاط هذه الدولة بعد ذلك (٣) .

فتح بلاد الروم :

وفى عام ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) قرر ملكشاه استئناف بسط سيطرة السلاجقة ، على أجزاء جديدة من بلاد الروم ، لتوسيع رقعة الدولة ، وتثبيت أقدامها فى تلك المنطقة ، وجنى ثمار الانتصار على الروم فى موقعة ملازكرد وتحقيقا لهذا الهدف عين ملكشاه أحد أفراد البيت السلجوقى الأقوياء ، وهو سليمان بن تتش بن أسرائيل (٤) واليا على بلاد الروم ، ومؤسسا لفرع جديد من فروع الدولة عرف فى التاريخ باسم سلاجقة الروم (٥) ، فتوجه سليمان الى بلاد الروم فى ذلك العام ، ووضع يده على ولايتى قونية وآق سرا (٦) ، واتخذ

-
- (١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧١هـ .
 - (٢) تمكن تتش من السيطرة على بقية أجزاء بلاد الشام فى المدة من ٤٧٢ الى ٤٧٧هـ ، حتى وصل الى حد مصر .
 - (٣) سقطت الدولة الفاطمية فى عام ٥٦٧هـ على يد صلاح الدين الأيوبي .
 - (٤) سليمان هذا هو ابن عم جغرى بك جد السلطان ملكشاه .
 - (٥) ظلت دولة سلاجقة الروم قائمة حتى عام ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) ثم حل محلها العثمانيون .
 - (٦) فتحت هاتان الولايتان بعد انتصار السلاجقة فى موقعة ملازكرد ، وكان فتحها فى المدة بين ٤٦٣ و ٤٦٨هـ .

قونيه مقرا لفرع دولة السلاجقة فى بلاد الروم ، وبدأت بذلك مرحلة جديدة من مراحل الصراع بين الأتراك المسلمين والروم النصارى ، انتهت بسقوط دولة الروم(١) ، وسيطرة المسلمين على المنطقة بعد ذلك .

وقد تمكن سليمان فى المدة من ٤٧٠هـ (١٠٧٧م) الى ٤٧٦هـ (١٠٨٣م) من توطيد نفوذ السلاجقة فى أكثر أجزاء بلاد الروم حتى وصل الى كوتاهيه، فصارت بلاد الروم قلعة قوية من قلاع السلاجقة المسلمين فى غربى آسيا ، وأصبحت معولا قويا من معامل هدم دولة الروم التى تزعمت الحروب الصليبية .

كما حاول سليمان فى عام ٤٧٧هـ (١٠٨٤م) أن يفتح مدينة انطاكية التى كانت حينذاك تحت سيطرة الروم(٢) ، برغم أنها كانت جزءا من بلاد الشام ونجح سليمان فى فتحها ، وضمها الى ممتلكاته ، وكانت سيطرة المسلمين عليها أمرا بالغ الأهمية لأنه جعل نفوذهم يمتد الى سواحل البحر الأبيض المتوسط(٣) ، مما زاد الدولة السلجوقية قوة واتساعا .

غير أن استيلاء سليمان على انطاكية ، وهى داخلية حينذاك ، فى حدود بلاد الشام أحدث خلافا بين سليمان بن قتلмыш مؤسس دولة سلاجقة الروم ، وتتش مؤسس دولة سلاجقة الشام ، لأن كلا منهما كان يحاول توسيع منطقة نفوذه مما أدى الى حدوث احتكاك ، ونشوب قتال بينهما .

وكان سليمان هو البادئ بالعدوان ، فقد فكر فى السيطرة على حلب وما جاورها ، بعد استيلائه على انطاكية ، حتى يتسع سلطان سلاجقة الروم ، فتوجه بجيشه الى حلب ، وحاصرها حصارا شديدا ، فاستنجد حاكمها بتتش فصادف ذلك هوى فى نفسه ، لأنه كان قد أوجس خيفة من اتساع نفوذ سليمان ، وامتداد هذا النفوذ الى أجزاء من بلاد الشام ، فأسرع تتش على رأس جيش كبير ، لانقاذ حلب من السقوط فى يد سليمان ، ودارت بين الطرفين معركة طاحنة عنيفة بالقرب من تلك المدينة انتهت بانتصار تتش ، وهزيمة

(١) كان سقوط دولة الروم بعد ذلك بأربعة قرون تقريبا أى فى القرن التاسع

الهجري والخامس عشر الميلادي « على أيدي العثمانيين .

(٢) كانت أنطاكية تحت سيطرة الروم منذ عام ٣٥٨هـ (٩٦٨م) .

(٣) كان هذا البحر يسمى حينذاك بحر الروم كما مر .

سليمان وقتله فى صفر من عام ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) (١) ، فدخل تتش حلب دخول
الظافرين ، وضمها الى منطقة نفوذ سلاجقة الشام .

وكان اقتتال تتش وسليمان من الأمور التى أقلقّت السلطان ملكشاه ،
فآثر أن يتوجه بنفسه ، لاقرار الأوضاع فى بلاد الشام وبلاد الروم ، ومنع
احتكاك أفراد البيت السلجوقى ، واقتتالهم فيما بعد . طمعا فى مزيد من
الممتلكات النفوذ ، فتوجه ملكشاه فى شهر جمادى الآخرة من العام المذكور
الى بلاد الجزيرة ثم الى بلاد الشام عن طريق الموصل وسيطر فى أثناء الطريق
على عدد من القلاع التى كانت لاتزال تحت سيطرة الروم (٢) ، فلما وصل
الى مشارف حلب ، أخلاها أخوه تتش ورحل الى دمشق ، فدخل ملكشاه
مدينة حلب ، وطمأن أهلها ، ثم رحل منها الى بغداد ، وأصدر قرارا باقرار
حكم تتش وأبنائه من بعده على بلاد الشام ، واقرار حكم أبناء سليمان بن
قتلمش على بلاد الروم .

وهكذا اتسعت دولة السلاجقة فى عصر ملكشاه ، حتى شمل سلطانها
بلاد الشام ، وجزءا كبيرا من بلاد الروم (٣) ، وصار لها فروع
فى كرمان والشام ومنطقة آسيا الصغرى فأصبحت دولة مترامية الأطراف ،
تمتد من حدود الهند والصين شرقا الى البحر الأبيض المتوسط غربا ومن البحر
الأسود شمالا الى الخليج جنوبا ، حتى يمكن القول بأنها صارت أكبر قوة
ضاربة فى العالم فى ذلك الوقت ، الى جانب تمسك السلاجقة بالاسلام ، وظهور
صبغته فى جميع ألوان النشاط البشرى فى عصرهم ، فكانوا حينذاك يسمون
جنود الخلافة العباسية المخلصين ، الذين يحمون دولة الخلافة ، وينشرون
الاسلام ومبادئه القويمة ، فى بلاد غير اسلامية ، يزيّدون بها دولة الاسلام
قوة واتساعا ، وبذلك بلغ السلاجقة فى عهد ملكشاه أوج قوتهم ورفعتهم .

-
- (١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٧٩هـ .
(٢) من أهم هذه القلاع قلعة الرها .
(٣) حاول ملكشاه فتح مصر ولكنه فشل ، فانصرف ثنائيا عن التفكير فى
هذا العمل ، وحرص على تأمين حكم السلاجقة فى بلاد الشام .

ازدياد التقارب بين العباسيين والسلاجقة :

وقد تمت مصاهرة بين ملكشاه والخليفة العباسي المقتدى بأمر الله في أائل عام ٤٨٠ هـ (١٠٨٧م) ، دین تزوج الخليفة بنت السلطان من زوجته ترکان خاتون بنت ملك الخانيين ، فازداد التقارب بين العباسيين والسلاجقة ، كما ازداد نفوذ السلاجقة استقرارا في جميع المناطق التي كانت تحت سيطرتهم وأدى ازدياد التقارب بين العباسيين والسلاجقة الى امتزاج حضارى بين الفرس والعرب والترك والكرد وسائر الشعوب التي تسكن دولة الخلافة العباسية وتخضع لنفوذ السلاجقة حماة هذه الدولة ، وظهرت آثار هذا الامتزاج في جميع مظاهر النشاط البشرى ، وفي مختلف ميادين الحضارة في بلدان الشرق اسلامى .

السيطرة على اقليم ما وراء النهر :

وقد أصبحت دولة السلاجقة في عصر ملكشاه في أوج قوتها ، فلم تجرؤ قوة في الشرق أو الغرب على الوقوف في وجهها ، ولم يبق أمام ملكشاه الا أن يبسط سيطرته التامة على اقليم ما وراء النهر ، ويخضع هذا الاقليم لحكمه ، حتى يثأر بذلك لوالد الذي قتل في هذه المنطقة من قبل ، ولذلك توجه ملكشاه في عام ٤٨٢ هـ (١٠٨٩م) على رأس جيش كبير الى ذلك الاقليم استجابة لطلب من علماء ما وراء النهر (١) ، الذين شكوا له من ظلم أحمد خان : اكم الاقليم ، فوجد ملكشاه الفرصة مواتية لغزو ما وراء النهر واخضاعه ، وبسط سيطرة السلاجقة التامة عليه .

وقد تصرف ملكشاه يرافقه وزيره نظام الملك من اصفهان الى خراسان ، ثم عبر بجيشه نهر جيحون الى بلاد ما وراء النهر ، وتمكن من فتح بخارى وسمرقند ، وهزم أحمد خان ، وقبض عليه ، وأخذ أسيرا ، وبسط سيطرة السلاجقة على اقليم ما وراء النهر ، فخضع هذا الاقليم لنفوذ السلاجقة خضوعا تاما ، كما أعلن والى كاشغور ولاءه للسلاجقة ، وخضوعه لحكمهم ، وهكذا اتسعت دولة السلاجقة شرقا وغربا (٢) ، وأصبحت تضم بلاد ما وراء النهر وإيران وآسيا الصغرى والعراق والشام .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٣ هـ .

(٢) الوارندى : راحة الصدور ، ص ١٢٨ - ١٣٠ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٢ هـ .

وظهرت براعة الوزير نظام الملك فى اظهار اتساع الدولة السلجوقية حين أشار على السلطان ملكشاه بأن يأمر بأن ترسل الجزية المفروضة على الروم بعد هزيمتهم فى موقعة ملازكرد الى كاشغر بدلا من اصفهان ، حتى يظهر للعالم كله مدى اتساع دولة السلاجقة ، كما أشار الوزير على السلطان بأن يأمر بأن ترسل الرسوم المفروضة على الملاحين العاملين فى نهر جيحون الى انطاكية ، حتى يظهر الى أى حد بلغ اتساع الدولة شرقا وغربا (١) .

ولم يترك ملكشاه القسم الشرقى من دولته الا بعد أن ثبت نفوذ السلاجقة فى أرجائه ، فقد أخذ فتنة أثارتها قبائل الأتراك التى كانت تسكن بالقرب من سمرقند ، بحجة أن مرتباتها لاتصل اليها بانتظام ، وانضم الى الفتنة أمير فرغانة ، وزعماء بعض القبائل الأخرى الساكنة فى تلك المنطقة . وقد تمكن ملكشاه من اخماد الفتنة دون قتال ، مستفيدا من حكمة وزيره ودهائه ، وبنفوذ زوجته تركان خاتون التى تنتمى فى أصلها الى المنطقة ، وهكذا استقرت الأوضاع فى بلاد ما وراء النهر ، ونامت الفتن ، واطمأن ملكشاه الى سيطرته التامة على تلك البلاد ، فرجع الى اصفهان واثقا من وصول السلاجقة الى أوج قوتهم .

وذاع صيت نظام الملك على أنه من أنجح الوزراء الذين شهدهم التاريخ حتى ذلك العصر ، فقد ساهم بحسن تدبيره وصواب تفكيره ، وذكائه ودهائه فى رسم سياسة حكومية اتبعتها دولة السلاجقة فى عصر ألب أرسلان وابنه ملكشاه فتقدمت الدولة ، وانتقلت من نصر الى نصر ، فارتفع شأنها وعظم نفوذها ، واتسعت حدودها ، وبلغت أوج قوتها ، وأصبحت مرهوبة الجانب من دول العالم كله حينذاك ، كما أصبحت محبوبة من المسلمين ، لأنها نشرت الاسلام فى مناطق جديدة .

غير أن دولة السلاجقة برغم بلوغها أوج قوتها لم تسلم من مواجهة مشاكل مختلفة ، كان لها أثر فى مستقبل هذه الدولة ، وفى اضعافها ، وهذه طبيعة حياة البشر منذ خلق آدم الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، هو خير الوارثين وسأعرض المشاكل الخطيرة مرتبة حسب ظهورها زمنيا ، مبينا الآثار التى خلقتها كل مشكلة .

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٨ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٢ هـ .

الفصل الخامس

السلاجقة في مواجهة المشاكل الخطيرة

واجه السلاجقة في السنوات الأخيرة من حكم السلطان ملكشاه مشاكل خطيرة ، هزت أركان دولتهم ، وهددت وحدتهم ، وكانت معاول هدم لدولتهم القوية ، بعد أن بلغت هذه الدولة أوج قوتها ، وأصبحت فسيحة الأركان ، عظيمة السلطان ونعرض فيما يلي أهم تلك المشاكل الخطيرة التي واجهها السلاجقة ومدى تأثيرها في استقرار دولتهم وتماسكها وثباتها :

أولا : ظهور الاسماعيلية في ايران

الاسماعيلية فرقة شيعية تنتسب في أصلها • الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان اتباع هذه الفرقة يعتقدون أنه أحق بالامامة من أخيه موسى الكاظم (١) ، وهم يؤمنون بسبعة أئمة أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم اسماعيل الذي يؤمن الكثيرون من أتباعه بأنه اختفى ، وبأنه سوف يظهر في آخر الزمان لاصلاح أحوال الدنيا الفاسدة ، ثم تقوم الساعة بعد ذلك •

وللإسماعيلية أسماء كثيرة منها السبعية لأنهم يؤمنون بسبعة أئمة كما ذكرنا ؛ ومنها التعليمية (٢) لايمانهم بأن الامام هو المعلم ، لأن العقل البشري وحده قاصرة عن معرفة الله معرفة حققة ، وأن الامام هو الذي يقوم بتعليم الناس وارشادهم الى معرفة الله معرفة حققة •

ومن أسمائهم كذلك الباطنية لأنهم يؤمنون بأن للعقيدة ظاهرا وباطنا ، وأن الراسخين في العلم هم وحدهم الذين يدركون كنه الباطن ، وقد أدى بهم

(١) النوتجى فرق الشيعة ، ص ٥٧ - ٥٨ •

(٢) اقبال : تاريخ ايران ، ص ١٦٤ •

هذا الاعتقاد الى تأويل أحكاما الشريعة ، فجعلوا لكل نوع من أنواع العبادة ظاهرا وباطنا فالظاهر للعوام ، والباطن للراسخين فى العلم ، وهم علماء الدين فسموا لذلك الباطنية (١) .

كما سماهم أهل السنة « الملاحدة » لأنهم أولوا كثيرا من أحكام الشريعة تأويلا ألغاهما الغاء تاما بما يتنافى مع صريح قول الله فى محكم كتابه ، ويتنافى مع قول الرسول وفعله – صلى الله عليه وسلم – ويعد خروجا على الدين ، والحادا فيه .

ومن أسماء اسماعيلية فى ايران « الحشاشون » لأنهم كانوا يدخلون حشيشة مخدرة تجعلهم ينقادون انقياد اعمى لقادتهم من الدعاة وعلماء الدين ، فينفذون ما يأمرهم به ، ولو كان قتل مخالفينهم ، معتقدين أنهم بهذه الطاعة العمياء يدخلون الجنة .

وسمى الاسماعيلية كذلك « السفاحين » لأنهم كونوا فرقا من الفدائيين الذين ينتشرون فى أرجاء العالم السننى لقتل كبار مخالفينهم من أهل السنة ، وفى مقدمتهم الخلفاء العباسيون ، وسلاطين السلاجقة ووزرائهم اذا استطاعوا الى ذلك سبيلا ، مؤمنين بأن سفك دماء أعداء الاسماعيلية عمل مشروع يقرب من الله ، ويدخل الجنة ويعد جهادا فى سبيل الله ، فسموا لذلك « السفاحين » .

ومهما يكن الاسم الذى يطلق على الشيعة الاسماعيلية الذين ظهروا فى ايران فى عصر السلاجقة ، وأصبحوا مشكلة خطيرة تواجه السلاجقة منذ أواخر عصر السلطان ملكشاه ، فانهم كانوا على صلة وثيقة بالفاطميين فى مصر ، وكانوا ينظرون الى السلاجقة والعباسيين على أنهم ألد أعدائهم ،

(١) حاول الشيعة على اختلاف فرقهم ، أن يفسروا قول الله تعالى فى سورة آل عمران ، آية ٧ « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هى أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الأبواب » تفسيراً يتفق مع ما يؤمنون به ، وهو أن . الراسخين فى العلم يعلمون المعنى الباطن .

ويستبجحون دماءهم ، مما يبين مدى خطوره ظهورهم بصورة قوية فى ايران ، سواء على دولة السلاجقة أو على الخلافة العباسية نفسها .

وكان دعاة الاسماعيلية منتشرين فى الأقطار الاسلامية المختلفة ، وكانوا يروجون مبادئ المذهب الشيعى الاسماعيلى بكل الوسائل ، وكان انتشارهم فى العالم الاسلامى قبل قيام دولة السلاجقة بأكثر من قرنين من الزمان ، فكان دعاة الاسماعيلية يشاهدون فى اقليم السند بالهند ، وفى البحرين وايران والعراق والشام ومصر وشمال افريقية ، وقد نجحوا فى اقناع بعض الأمراء وشيوخ القبائل والعديد من الأفراد باتباع مذهبهم حتى تمكن الاسماعيلية من إقامة حكم لهم فى أجزاء مختلفة من العالم الاسلامى ، فقامت دولة القرامطة وهى دولة شيعية اسماعيلية فى عام ٢٨٧هـ (٨٩٩م) فى البحرين وتمكنت من بسط نفوذها على أجزاء من عمان والعراق والشام ، كما استولى القرامطة على مكة ، وظلوا يشيعون القتل والرعب بين المسلمين وقتا من الزمن .

كما استطاعت طائفة منهم إقامة دولة فى تونس بشمالى افريقية فى عام ٢٩٦هـ (٩٠٨م) ، وهى الدولة الفاطمية التى أرتفع شأنها حتى سيطرت على مصر وجزء كبير من بلاد الشام وبلاد العرب ، وصارت دولة للخلافة الشيعية اتخذ القاهرة عاصمة لها ، وأصبحت منافسا خطرا للخلافة العباسية التى مقرها بغداد ، وقد قرئت الخطبة فى بغداد نفسها باسم الفاطميين أكثر من عام من الزمان فى أثناء غلبة البساسيرى كما ذكرنا قبل ذلك .

وقد انتشر نفوذ الاسماعيلية كذلك . فى بعض أجزاء ايران فى العصر السامانى فى أثناء حكم نصر بن أحمد ، كما انتشر فى أثناء حكم الديلمية من آل زياد ، غير أن هذا النفوذ أصابه ضعف شديد فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى بعد غلبة الغزنويين ، وكان غير ملموس تقريبا . فى بداية حكم السلاجقة فى ايران والعراق ، وكان السلاجقة شديدي التمسك بالمذهب السنى ، فكانوا يقفون فى وجه النشاط الشيعى ، مما لا يتيح للاسماعيلية مجالاً للنشاط ، ونشر النفوذ .

وظل الأمر كذلك الى عصر ملكشاه ، حين تهيأت لحسن الصباح أحد

دعاة الاسماعيلية الأقوياء فرصة التحرك ، والدعوة للمذهب الاسماعيلي داخل ايران ، واقناع عدد من الناس بالانضمام اليه .

وكان حسن الصباح من أهل مدينة الري - أول عاصمة لدولة السلاجقة - وقد رحل منها في عام ٤٦٩هـ (١٠٧٦م) اصفهان ، ثم أخذ يطوف بالاقاليم الاسلامية المختلفة ، فزار آذربيجان وبلاد الشام ، ثم زار مصر في عام ٤٧١هـ (١٠٧٨م) ، وأقام فيها عاما ونصف عام ، ووجد في أثناء اقامته بمصر نزاعا حول ولاية العهد بين نزار والمستعلي ابني الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، وانقسم الشيعة نتيجة لذلك الى طائفتين كل منهما تؤيد ابنا وتخالف الآخر . فانضم الصباح الى طائفة نزار ، صارت النزارية فرعا من فروع الاسماعيلية (١) .

وغادر الصباح مصر في عام ٤٧٣هـ (١٠٨٠م) متحمسا للدعوة لمبادئ النزارية ، ورحل الى ايران لهذا الغرض ، وأخذ يدعو الناس بكل وسيلة ممكنة للانضمام اليه ، فالتف حوله عدد من الناس ، وظل أنصاره يزدادون يوما بعد يوم ، حتى تمكن في خلال عشر سنوات من تكوين جيش قوى ، متحمس لمبادئ الاسماعيلية النزارية ، مستعد لبذل الروح من أجل نصرتها .

واستطاع الصباح بهذا الجيش الاستيلاء على قلعة « ألموت » (٢) في اليوم السادس من شهر رجب من عام ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) ، ثم اتخذ هذه

(١) انتشر أتباع النزارية في ايران في عصر ملكشاه ومن بعده من سلاطين السلاجقة الى أن قضى عليهم هولاكو خان المغولي قبل فتح بغداد بسنتين أي في عام ٦٥٤هـ ، وقد أحدث النزارية تحورا في مبادئ الاسماعيلية . ارجع في تفصيل هذا الى كتاب تاريخ ايران لعباس اقبال ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٢) « ألموت » كلمة ديلمية معناها « عن العقاب » ، ويقول اقبال في تاريخ ايران حاشية ص ١٦٥ ان معناها « المكان الذي أرشد اليه العقاب » ، لأنها كانت قلعة في مكان مرتفع ، فكانت حصينة منيعة ، وبرغم عدم توفيق نزار بن المستنصر بالله الفاطمي في تولي الخلافة بعد موت أبيه ، لهزيمته ووقوعه أسيرا في يد أخيه وسجنه وموته في السجن ، فان أنصاره كانوا منتشرين في ايران في عصر السلاجقة .

القلعة الحصينة مقرا له ، ومركزا لدعوته ، وقاعدة ينطلق منها الى أجزاء أخرى من إيران ، وكثير مريدوه ، وتمكن من تكوين معاقل حصينة للاسماعيلية فى إيران ، وكانت هذه المعاقل تنتشر فى أماكن جبلية فى شمالى إيران وشرقيها ، وتمتد فى المنطقة الواقعة بين آذربيجان وكرمان ، وكانت معاقل منيعة مرتفعة ، يصعب الوصول اليها .

وكان جيش الاسماعيلية فى إيران - يمتاز بالحماسة والفدايية والاستعداد للتضحية فى سبيل نشر الدعوة وحمايتها ، وكان فيه عدد من الفدائيين الذين كانوا يرسلون لقتل أعداء الاسماعيلية وفى مقدمتهم الخلفاء والسلاطين والوزراء وكبار القواد ، وكان من يقف حجر عثرة فى طريق أنتشار المذهب الاسماعيلي النزاري ، ولذلك كان استيلاء الاسماعيلية على قلعة الموت مشكلة خطيرة واجهت دولة السلاجقة فى عصر السلطان ملكشاه ، وأثارت قلقا فى جميع أنحاء دولة السلاجقة ، خوفا من تسلل فدايئى الاسماعيلية الى المدن المهمة ، وارتكابهم أعمال الاغتيال ضد أعدائهم من أهل السنة ، ولم يلبث الاسماعيلية طويلا بعد استيلائهم على « الموت » ، فقد قاموا فى عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) باغتيال أقوى رجل فى دولة السلاجقة ، وفى العالم السنى فى ذلك الوقت ، ألا وهو الوزير نظام الملك .

ثانيا : مصرع الوزير نظام الملك

قتل الاسماعيلية الوزير نظام الملك فى عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، وكان مصرع هذا الوزير القوى ثانية المشاكل الخطيرة التى تواجهها السلاجقة فى عصر السلطان ملكشاه ، لأن نظام الملك كان فى الحقيقة ممسكا بزمام الأمور فى دولة السلاجقة ، وكان عالما حكيما ذا ذكاء ودهاء ، مما جعله أقوى رجل فى الدولة ، وفى أرجاء العالم السنى كله ، وجعل قتله يحدث هزة شديدة فى أركان دولة السلاجقة ، تؤثر فى تماسكها ووحدتها .

وكانت الأحوال فى دولة السلاجقة حين ازدياد نفوذ الاسماعيلية فى إيران ، واستيلائهم على قلعة الموت تساعدهم على توجيه ضربة قوية لتلك الدولة تهز كيانها مثل قتل وزيرها نظام الملك ، لأن خلافا شديدا حدث بين الوزير والسلطان حول ولاية العهد ، واستغل أعداء الوزير هذا الخلاف ،

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٦٣ .

فأوقعوا بينه وبين السلطان ، وأقنعوا السلطان بأن الوزير ينفرد بتصريف الأمور فى الدولة ويستعين بأهله وأتباعه فى السيطرة على مرافق الدولة المختلفة ، وأن هؤلاء يصرفون الأمور وفقا لارادتهم ، ويتحكمون ويستبدون ، مستغلين مكانة نظام الملك ونفوذه فى الدولة .

والواقع أن نظام الملك كان فى ذلك الوقت شيخا كبيرا قد جاوز السبعين من عمره ، وكان يستعين بأبنائه (١) وأقاربه وأتباعه فى إدارة أقاليم الدولة المختلفة (٢) ، وكان لهؤلاء نفوذ كبير فى دولة السلاجقة ، استنادا الى نفوذ نظام الملك وكانوا كثيرا ما يستغلون نفوذهم ، ويبتعدون عن جادة العدل والصواب ، مما أتاح لمنافسى نظام الملك وحسادة فرصة الدس بينه وبين السلطان ، حتى ينفروا السلطان من الوزير ، ويزيدو نار الخلاف اشتعالا .

وكان سبب الخلاف حول ولاية العهد تركان خاتون زوجة السلطان ، لأنها كانت تريد أن يصبح ابنها محمود وليا للعهد ، يلى العرش بعد أبيه ، وكان هذا الابن أصغر أبناء ملكشاه ، فقد كان فى ذلك الوقت طفلا صغيرا (٣) . بينما كان ملكشاه أبناء آخرون من زوجات أخريات غير تركان خاتون ، وكان أكبرهم بركيارق الذى كان الوزير نظام الملك يفضل أن يلى العرش بعد أبيه ، حتى لا يحدث شقاق وقتال بين أفراد البيت السلجوقى .

وكانت تركان خاتون زوجة جميلة مدللة ، ذات تأثير كبير على السلطان ملكشاه ، وذات نفوذ فى الدولة باعتبارها زوجة السلطان السلجوقى ، وأم زوجة الخليفة العباسى ، وقد أدت معارضة الوزير نظام الملك لتعيين ابنها محمود وليا للعهد الى معاداتها للوزير ، واشتراكها فى تشويه صورته عند السلطان ، وتحريضه عليه ، واقناعه بضرورة عزله .

وأخذ ملكشاه يتحين الفرصة المناسبة لعزل نظام الملك حتى وافته الفرصة فى عام ٤٨٥هـ (١٠٩٢ م) حين شكوا قودن والى مرو من قبل السلطان

(١) كان لنظام الملك عدد كبير من الأبناء والأحفاد ، وقد تولى عشرة من أبنائه الوزارة بعده فى الدولة السلجوقية .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٣٢ .

(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٣٤ .

ملكشاه من عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك الذى كان جده قد ولاه رئاسه مرو ، لأنه استغل نفوذ جده فقبض عليه وأودعه السجن - زمنا - ، ثم أطلق سراحه ، فقصده السلطان مستغيثا شاكيا(١) ، فكانت هذه الشكوى المبرر الكافى لعزل نظام الملك من الوزارة ، والقضاء على نفوذ أبنائه وأتباعه .

ووجد التفكير فى عزل الوزير تأييدا من زوجة السلطان ترکان خاتون ، والكثيرين من كبار رجال الدولة الطامعين فى أن يظفر كل منهم بالوزارة ، ويحل محل نظام الملك ، غير أن السلطان ملكشاه ، تردد فى اصدار قرار بعزل نظام الملك خوفا من حدوث فتنة ، ورأى أن يرسل له تهديدا بالعزل ، لعله بذلك يرهبه ، ويحد من نفوذه ، ويخوف أبنائه وأتباعه ، ومؤيديه من رجال الجيش ، فاتخذ ملكشاه من شكوى والى مرو سببا لتهديده بالعزل ، فأرسل اليه خطابا شديد اللهجة فى عام ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) يهدده فيه بالعزل ، وأرسل الخطاب مع جماعة من كبار رجال دولته منهم شخصان من ألد أعداء نظام الملك هما تاج الملك الشيرازى ، ومجد الملك القمى ، وذلك امعانا فى اغاظة نظام الملك واعضابه واحراجهم ، وقد وجه ملكشاه فى هذا الخطاب الكلام الى وزيره قائلا : « ان كنت شريكى فى الملك ، ويدك مع يدى فى السلطنة ، فلذلك حكم ، ان كنت نائبى وبحكمى ، فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة ، وهؤلاء أولادك قد استولى كل منهم على كورة عظيمة ، وولى ولاية كبيرة ، ولم يقنعهم ذلك ، حتى تجاوزوا أمر السياسة ، وطمعوا الى فعل كذا وكذا وكذا ٠٠٠ » وأطال القول(٢) .

فلما وصلت رسالة السلطان الى نظام الملك تميز غيظا ، ورد عليها ردا جافا ، تحدى فيه السلطان ، وهدده من مغبه الاقدام على عزله ، وأظهر فيه قوته ومكانته ، فقال لمن حملوا له رسالة السلطان : « قولوا للسلطان ان كنت ما علمت أنى شريكك فى الملك فاعلم ، فانك ما نلت هذا الأمر الا بتدبيرى ورأى ؛ أما يذكر حينما قتل أبوه ، فقمت بتدبير أمره ، وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم ؛ منهم فلان وفلان - وذكر جماعة ممن خرج عليه - وهو ذلك الوقت يتمسك بى ويلزمنى ، ولايخالفنى ؛ فلما قدت الأمور اليه ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥هـ .

وجمعت الكلمة عليه ، وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة ، وأطاعة القاصى والدانى ، أقبل يتجنى لى الزنوب ويسمع فى السعيات . قولوا له عنى : ان ثبات هذه القلنسوة معذوق بهذه الدواة ، وان اتفاقيهما رباط كل رغبة ، سبب كل غنيمة ، ومتى أطبقت هذه زالت تلك ، فان عزم على تغيير ، فليتزود للاحتياط قبل وقوعه ، وليأخذ الجذر من الحادث أمام طروقه » ثم قال لهم : « قولوا للسلطان عنى مهما أردتم ، فقد أهتمنى ما لحقنى من توبيخه ، وقت فى عضدى(١) » .

وأحيط السلطان علما برد نظام الملك على رسالته ، فتضايق أشد الضيق ، وتدارس الأمر مع أعداء نظام الملك من كبار رجال الدولة ، ولم يجرؤ على عزل نظام الملك ، ففضل أن يسلك طريق التآمر على قتله ، للتخلص منه .

وكانت ترکان خاتون زوجة السلطان تتعجل التخلص من نظام الملك والقضاء عليه بأية وسيلة ممكنة ، ففكرت فى تأجير شخص لاغتيال نظام الملك ، وكان السلطان على علم بما تدبره ، وكان موافقا عليه .

وفى بداية شهر رمضان من عام ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) تحرك السلطان ملكشاه ، وبرفقته زوجته ترکان خاتون ، وكبار رجال دولته ، فى طريقهم الى بغداد ، حتى يزور السلطان وزوجته ابنتهم زوجة الخليفة العباسى ، ورأى نظام الملك أن من الخير أن يسير فى ركاب السلطان ، حتى لا يؤدى تخلفه الى الأقاويل ، ونشر الشائعات ؛ وفى العاشر من رمضان من ذلك العام ، وصل ركب السلطان الى اصفهان ، وكان نظام الملك فى مقدمة رجال السلطان السائرين فى ركابه ، بينما كان أعداؤه ، يتآمرون عليه لاغتياله فى أثناء السير الى بغداد .

ووجد الاسماعيلية الفرصة مواتية لاغتيال الوزير نظام الملك أقوى رجل فى دولة السلاجقة ، وفى دولة الخلافة العباسية ، وفى تحميل دمه على أعدائه المتمثلين فى السلطان وزوجته وعدد من كبار رجال دولته ، فقتلوا

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ص ٦٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٥هـ .

نظام الملك فى ذلك اليوم ، وكان قتله بواسطة واحد من فدائيهم ، وقد تقدم هذا الفدائى ، وهو يرتدى ملابس الزهاد نحو نظام الملك ، وتظاهر بأنه يريد تقديم ملتمس للوزير ، ثم أخرج سكيناً من طيات ثيابه طعن بها نظام الملك طعنة قاتلة ، توفى على أثرها (١) ، ولم ينزعج السلطان وبقية رجاله المعادين لنظام الملك لما حدث ، فظهروا أمام الناس فى صورة المحرضين على قتل الوزير .

وقد حقق الاسماعيلية باغتيالهم نظام الملك هدفين ، أولهما التخلص من أقوى رجل فى العالم السنى ، وثانيهما إثارة الفتنة فى ربوع الدولة السلجوقية بايهاهم الناس ، أن السلطان ورجاله المعادين لنظام الملك هم الذين دبوا مؤامرة اغتياله ، وأن القتل تم بأمر السلطان ، فحملوا بذلك دم الوزير على السلطان وأنصاره ، الأمر الذى أشعل نيران الفتنة فى دولة السلاجقة ، وكانت له نتائج وخيمة ، وأوجد مشاكل خطيرة ، أدت الى ضعف هذه الدولة وتفككها وبخاصة بعد أن توفى السلطان ملكشاه بعد مصرع نظام الملك بأقل من أربعين يوماً ، وانتشرت الشائعات حول موته .

ثالثاً : موت السلطان ملكشاه

وقد توجه ملكشاه بعد مصرع وزيره الى بغداد حيث عين تاج الملك الشيرازى وزيراً لدولة السلاجقة خلفاً لنظام الملك ، غير أن السلطان لم يلبث أن توفى فى الأربعين من عمره فى منتصف شوال بعد خمسة وثلاثين يوماً من اغتيال نظام الملك (٢) .

وكانت وفاة ملكشاه فى ظروف غامضة ، أثارت الشائعات حول وفاته ، فقد كان ملكشاه فى قمة الشباب ، ولم يكن مريضاً ، فكان موته قبل مرور أربعين يوماً على اغتيال الوزير نظام الملك مثيراً للشكوك والأقاويل والفتن فى أنحاء دولة السلاجقة ، وهذا ما كان يهدف اليه الاسماعيلية ، وكان أهم ما راج من شائعات حول وفاة ملكشاه أن أنصار نظام الملك دسوا له السم

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥هـ ، وقد أشارت الى هذه الحادثة كذلك جميع الكتب التى سبق ذكرها ، قد اعترف الاسماعيلية بقتلهم

نظام الملك : بعد ذلك ، بنصف قرن تقريباً .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥هـ .

فى الطعام حتى يأخذوا بثأر نظام الملك قبل مرور أربعين يوما على قتله (١) .

ومهما يكن من شىء ، فان الدولة السلجوقية ، فقدت فى أثناء خمسة وثلاثين يوما الوزير والسلطان اللذين كانا أعظم رجلين فيها ، فانفرط بذلك عقد السلاجقة ، وتمزقت وحدتهم ، ووهنت قوتهم ، وتحقق قول نظام الملك فى رده على رسالة السلطان ، وهو أن السلطنة مربوطة بوزارته فان زالت الوزارة ، انهارت السلطنة .

* * *

دولة السلاجقة بعد اختفاء نظام الملك وملكشاه :

ان الدارس لدولة السلاجقة فى حاجة الى أن يقف وقفة طويلة فى هذه الدولة بعد اختفاء وزيرها القدير نظام الملك وسلطانها العظيم ملكشاه ، حتى يقارن بين أحوال تلك الدولة قبل موتها وبين أحوالها بعد اختفائها ، حتى يتبين الفرق بين الوضعين ، ويتضح أثر اختفاء السلطان والوزير فى سير الأمور فى دولة السلاجقة والنتائج التى ترتبت على هذا الاختفاء .

والحقيقة التى لاشك فيها أن دولة السلاجقة بلغت أوج قوتها فى عصر السلطان ملكشاه ، واتسعت رقتها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا - كما بينا - وكان لحسن سياسة الوزير نظام الملك أثر كبير فى تقدم هذه الدولة فى الميادين السياسية والثقافية والاجتماعية ، وفى ألوان النشاط البشرى المختلفة ، وبخاصة أن ذلك الوزير القدير قد تولى الوزارة طوال مدة حكم السلطان ألب أرسلان وابنه السلطان ملكشاه ، فظل وزيرا للدولة ثلاثين

(١) حفلت كتب التاريخ التى ذكرناها بأخبار وروايات كثيرة حول وفاة ملكشاه المفاجئة بعد مقتل وزيره نظام الملك بأقل من أربعين يوما ، فقيل انه توفى وفاة طبيعية ، وقيل انه أصيب باختناق فى الحمام ، وقيل كذلك ان أنصار نظام الملك دسوا له السم فى الطعام ، وهو أرجح الأقوال ، كما قيل ان زوجته تركان خاتون تأمرت مع تاج الملك الشيرازى على قتل السلطان وهو قول لا يمكن أن يكون صحيحا ، لأنها كانت الزوجة المدللة ذات التأثير والنفوذ ، فمن غير المعقول أن تتأمر على زوجها دون سبب .

عاما ، وهى مدة طويلة مكتنتة من اظهار كفاءته ومهارته فى ادارة الدولة ،
وتوجيه دفة الأمور فيها ، بما حقق لها التقدم فى مختلف الميادين .

وكان نظام الملك طوال المدة التى تولى فيها الوزارة ممسكا بزمam
الأمور فى دولة السلاجقة المترامية الأطراف ، فكان يعد الأستاذ الأكبر
وسيد الوزراء ، وقد أشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة فى الداخل
والخارج ، وحدد أهدافها والطرق التى توصل الى هذه الأهداف ، واستطاع
بحسن سياسته ، وسلامة تفكيره ، ودقة تدبيره أن يجعل الأمور منتظمة فى
جميع أنحاء الدولة ، وأن يخدم الفتن التى أطلت برأسها بين حين وآخر
طوال مدة وزارته ، وأن يجعل السلاجقة أكبر قوة فى العالم الاسلامى ،
ويكسبهم احترام المسلمين وتقديرهم ، وييث فى نفوس غير المسلمين
رهبتهم ، فخشيتهم الروم وسائر الدول النصرانية ، ودفع قياصرة الروم
الجزية لهم ، وقبلوا - وهم صاغرون - أن يدفعوا الجزية للسلاجقة لمدة
خمسين عاما هكذا بلغ السلاجقة أوج قوتهم ، وأعلى درجات رفعتهم .

وقد سجل نظام الملك آراءه فى السياسة ونظم الحكم فى كتابه المشهور
« سياستنامه » (١) الذى ألفه فى هذا الموضوع ، وهو من أشهر الكتب التى
تبين نظم الحكم ، وكيفية ادارة البلاد ، وكسب رضا المحكومين ، وقبولهم
لسلطان الدولة دون تدمير أو ثورة ، مما يجعل ما تضمنه هذا الكتاب أساسا
سليما لفن الحكم ، كما جعله يحظى بشهرة واسعة ، فأصبح مرجعا يرجع
اليه الدارسون لنظم الحكم فى الشرق والغرب ، فترجم من اللغة الفارسية
الى كثير من اللغات الحية فى العالم .

كما شجع نظام الملك على تعمير المدن واصلاح الطرق وتشيد المساجد
 والمدارس ، وفعل الخير ، والاستجابة لشكوى المظلومين وشيد نوعا من
المدارس عرف باسم المدارس النظامية للتصدي لنشاط دعاة الاسماعيلية ،
ومجادلتهم وافحامهم ، وبيان انحرافهم عن طريق الدين ، وأنشأ هذه

(١) « سياستنامه » معناها « كتاب السياسة » وقد ألفه نظام الملك فى أواخر
حياته ، وضمينه خبرته وتجاربه فى الحكم ، وقد كتب أكبر من بحث
عن نظام الملك ، كما ترجم الدكتور السيد محمد العزاوى - رحمه
الله - هذا الكتاب الى اللغة العربية - ونشره فى القاهرة .

المدارس فى المدن المهمة مثل بغداد واصفهان ونيسابور وطوس وهراة ، وكانت للمدرسة النظامية فى بغداد شهرة علمية واسعة ، وقد بقيت أبنية وآثار عظيمة فى مختلف الأمصار تحمل اسم نظام الملك بعد وفاته ، وتدل على أعماله الطيبة ، وسياسته الحكيمة التى حققت العمران والتقدم فى مختلف أرجاء دولة السلاجقة .

وقد ساعدت سياسة نظام الملك الحكيمة على اقرار الأمن والنظام فى جميع أرجاء دولة السلاجقة ، فانتعش المجتمع فى ظل حكمهم وخمدت الفتن ، واتجه الناس الى خدمة أهداف الدولة ، ونظروا الى حروبها على أنها جهاد فى سبيل الله ، وبخاصة الحروب التى كانت بين السلاجقة والروم ، فقد عدت غزوات من أجل نصرة الاسلام ونشره ، واعلاء كلمة الله ، وبذلك بلغ السلاجقة فى عصر ملكشاه أوج قوتهم .

أما من الناحية الثقافية ، فقد انتشر العلم ، وكثر العلماء والمتخصصون فى مختلف العلوم والفنون ، لكثرة المدارس ودور العلم ومجالسه ، وتشجيع الدولة على طلبه ، وقد كان نظام الملك نفسه أديبا ، فشجع على نشر العلم وترويج الثقافة ، وشمل العلماء والأباء والمتخصصين فى مختلف الفنون برعايته وتشجيعه ، فاجتمعوا حوله ، وألفوا الكتب ، ونظموا الأشعار فى مدحه ، والاشارة بأعماله ، فراجت سوق العلم ، وازدهرت الثقافة فى ظل حكم السلاجقة .

ويستطيع الدارس بعد ذلك أن يتصور الأثر الذى يتركه اختفاء وزير مثل نظام الملك فى دولة السلاجقة ، فقد أدى مصرعه الى زلزلة أركان هذه الدولة زلزالا شديدا والى انتكاسها انتكاسا عنيفا ، فبدأت صفحة جديدة من تاريخها ، فقد انتهى عصر التماسك والقوة ، وبدأ عصر التفكك والضعف والانحيار .

وأوضح دليل على مكانة نظام الملك فى دولة السلاجقة أن نفوذ أفراد أسرته بقى بعد مصرعه ، بسبب حب الناس لرب هذه الأسرة ، والتفافهم حول أفرادها ، فوصل كثير منهم الى الوزارة فى أثناء حكم أبناء ملكشاه وأحفاده ، وكثيرا ما كان يكفى تأييد أسرة نظام الملك لفرد من أفراد البيت السلجوقى لغلبته وانتصاره وظفره بالعرش ، لأن الناس كانوا يلتفون حول

من تؤيده أسرة نظام الملك كما كان يكفى أن تتخلى هذه الأسرة عن تأييد فرد من البيت السلجوقي لينصرف الناس عنه ، ويخذ لوه . كما سنرى .

أما السلطان ملكشاه ، فقد كان كذلك من أعظم سلاطين السلاجقة ، فصارت دولة السلاجقة فى أثناء حكمه دولة قوية ، يحسب العالم كله لها ألف حساب ، واتسعت رقعتها شرقا غربا - كما بينا - وكان حكام الكرج والأنجاز والروم غير المسلمين ، يرسلون اليه الخراج ، ويدفعون له الجزية .

وقد انتشر العمران فى ظل حكمه ، وازدهرت الثقافة وارتقت الحضارة الإسلامية ، وظهر التقدم فى جميع ألوان النشاط البشرى فى مختلف أنحاء دولة السلاجقة المترامية الأطراف .

وكان من أشهر الأعمال التى تمت فى عصر ملكشاه التقويم المعروف باسم « التقويم الجلالى » (١) نسبة اليه . وقد تم وضع هذا التقويم فى مدينة أصفهان (٢) فى عام ٤٦٧ هـ (١٠٧٤ م) بتشجيع من الوزير نظام الملك ، واشترك فى وضع هذا التقويم واصلاحه الشاعر المشهور أبو الفتح عمر بن ابراهيم الخيام النيسابورى .

وصفوة القول هنا أن اختفاء نظام الملك وملكشاه من أهم الأحداث التى شهدتها عصر السلاجقة ، وتظهر أهمية هذا الأمر اذا قارنا بين حالة الدولة

(١) ذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل عند ذكره حوادث سنة ٤٦٧ هـ أن نظام الملك والسلطان ملكشاه جمعوا جماعة من أعيان المنجمين فجعلوا النيروز أول نقطة من الحمل وكان النيروز قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الدوت صار ما فعله السلطان مبدأ التقاويم وتبدأ السنة بمقتضى هذا التقويم فى ٢١ مارس من كل عام غالبا ، وهو التقويم الشمسى المستعمل فى إيران فى الوقت الحاضر . .

(٢) أصبحت مدينة أصفهان فى عصر ملكشاه من المدن الكبرى فى العالم ، ومن أكثر مدن العالم عمراناً وازدهاراً فقد أنشأ السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك وكبار رجال السلاجقة كثيرا من الأبنية الفخمة فى تلك المدينة ، لايزال بعضها قائما الى الوقت الحاضر ، وكان سكان أصفهان يجوبون نظام الملك ، فثار مقتله فى هذه المدينة شعور الناس ففيها فالتفوا حول أفراد أسرة نظام الملك ، وساندوا كل فرد من أفراد البيت السلجوقي تؤيدة أسرة نظام الملك .

فى أثناء حياة السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك . وحالتها بعد اختفائهما ، فقد تبدلت حالتها من القوة والتقدم الى الانقسام والضعف والتراجع ، فكثرت التنازع بين أفراد البيت السلجوقى من أجل الظفر بالعرش ، كما كثرت التنازع بين كبار رجال الدولة حول كرسي الوزارة ، فقامت الحروب الداخلية ، واختفى التطلع الى الأهداف الكبرى التى كان السلاجقة يتطلعون اليها فى أثناء حكم طغرل الأول وألب أرسلان وملكشاه .

ولا يبعد الدارس للدولة السلجوقية عن الحقيقة ، اذا قال ان اختفاء السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك كان نهاية لعصر التماسك والقوة والازدهار ، وبداية لعصر من التفكك والضعف والانحيار .

الفصل السادس

تنازع السلاجقة وتمزق دولتهم

النزاع حول العرش :

كان اختيار الشخص الذي يجلس على عرش السلاجقة بعد ملكشاه المشكلة الأولى التي مزقت وحدة السلاجقة ، وأشعلت نيران الفتن والحروب الداخلية في دولتهم .

وقد أطلت هذه المشكلة برأسها في السنوات الأخيرة من حكم ملكشاه بعد أن وضعت زوجته المدللة ترکان خاتون ابنًا ذكرًا ، سمي « محمودا » وحاولت أن يعين وليا للعهد برغم أنه أصغر أبناء ملكشاه الذكور سنا ، فلم يوافق الوزير نظام الملك على هذا الأمر ، حرصا على وحدة السلاجقة ، فلم يتخذ السلطان ملكشاه قرارا في موضوع ولاية العهد ، وبدأ الانقسام في الدولة ، وظل الانقسام الى أن قتل الوزير ، وتوفي السلطان في عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، فظهرت مشكلة من يخلف السلطان على عرش السلاجقة في صورة تهدد السلاجقة بالانقسام والتقاتل .

وكان التنافس على العرش ينحصر بين بركيارق ومحمود ، أما بركيارق فكان الابن الأكبر لملكشاه من زوجته العربية زبيدة خاتون ، وكان في الثانية عشرة من عمره ، مؤيدا من أنصار نظام الملك الذي كان قبل مصرعه يرى أن الابن الأكبر ، هو أحق الناس بالعرش بعد أبيه ، كما حدث بعد مصرع ألب أرسلان والد ملكشاه .

وأما محمود فكان الابن الأصغر لملكشاه من زوجته الأميرة التركية الرائعة الجمال المدللة ذات النفوس ترکان خاتون بنت ملك الخانيين ، وقد ولد قبل وفاة والده ملكشاه بأربع سنوات وبضعة أشهر ، وكانت شقيقته

أحدى زوجات الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله ، وكان مؤيدا من أعداء نظام الملك وفى مقدمتهم تاج الشيرازى الذى عين وزيرا للدولة ، بعد مصرع نظام الملك .

وهكذا انقسم السلاجقة الى معسكرين متنازعين ، يجاهر كل منهما الآخر بالعداء ، أحدهما يعسكر فى بغداد والآخر يعسكر فى اصفهان .

وكان كفة معسكر محمود أرجح فى بداية الأمر ، لأن ملكشاه توفى فى بغداد مقر الخليفة العباسى زوج شقيقة محمود ، كما أن الخليفة هو الذى تطلب موافقته على تعيين فرد من أفراد البيت السلجوقى سلطانا على الدولة حتى يصير حكمه شرعيا ، فكان من المنطقى أن تصدر موافقة الخليفة المقتدى بأمر الله على تعيين محمود سلطانا على السلاجقة برغم أنه أصغر أبناء ملكشاه سنا ، فكان تعيينه انتصارا لوالدته ترکان خاتون على أعوان نظام الملك .

وقد استطاعت ترکان خاتون بمساعدة الوزير تاج الملك (١) أن تمنع الأمراء وحكام الأطراف بأحقية ابنها بتولى عرش السلطنة بعد أبيه فبايعوه ، ثم اعترف به الخليفة سلطانا ، وأمر بذكر اسمه فى الخطبة ، وذلك فى ٢٢ شوال من عام ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) ، ثم أمرت ترکان خاتون أنصارها فى اصفهان بإيداع بركيارق السجن ، فتم لها ما أرادت ، وخيل اليها أنها أصبحت فى مأمن من كل منازاة ، وفى منحنى من كل عداء (٢) .

غير أن أتباع نظام الملك فى اصفهان ، ورجال المدرسة النظامية وطلابها فيها ، وكانوا لها بالمرصاد ، فما كادوا يعلمون بما حدث بأمر منها ، حتى أعلنوا الثورة عليها ، وهاجموا سجن اصفهان ، وأطلقوا سراح بركيارق ، وأعلنوه سلطانا على السلاجقة ، وجعلوا اصفهان عاصمة للدولة ، وهكذا وجد سلطانان لدولة السلاجقة فى وقت واحد ، أحدهما

(١) اتخذت ترکان خاتون تاج الملك الشيرازى وزيرا خاصا لها ، يتولى تدبير أمورها مع كونه وزيرا للدولة ، وروى أنها اتفقت معه على إخفاء نبا وفاة السلطان حتى تمت البيعة لابنها محمود .
(٢) ارجع فى تفصيل ما حدث الى ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ .

محمود أصغر أبناء ملكشاه المقيم فى بغداد والمعترف به من الخليفة العباسى والآخر بركيارق أكبر أبناء ملكشاه والمعين من قبل أنصار نظام الملك . وانضم مجد الملك القمى معسكر بركيارق واتخذته أمه زبيدة خاتون وزيرا خاصا لها لتدبير أمورها وأمور ابنها .

ويكفى هذا لتبين ما أصاب الدولة السلجوقية من تمزق نتيجة لقتل الوزير نظام الملك وموت السلطان ملكشاه ، فقد صار قيام حروب داخلية فيها أمرا متوقعا بين حين وآخر .

وكانت ترکان خاتون هى البائدة بالهجوم على معسكر بركيارق فى اصفهان فقد أصرت على الخروج مع الجيش المناصر لها ومعها ابنها محمود ووزير الدولة ووزيرها تاج الملك الشيرازى والتوجه الى اصفهان لاحتلالها والقضاء على بركيارق وأعوانه وتمكنت القوات المؤيدة لها من احتلال اصفهان (١) ، بينما انسحب بركيارق وأعوانه جهة الجنوب ، واتجهوا الى بروجرد ، فتعقبهم جيش ترکان خاتون ، غير أن أنصار نظام الملك تجمعوا بكثرة حول بركيارق ، وتمكنوا من هزيمة جيش ترکان خاتون ، والقبض على الوزير تاج الملك وقتله ، وأسرعت ترکان خاتون بالهرب هى وابنها الى اصفهان ، فتحصنت فيها فى حماية البقية الباقية من قواتها (٢) .

وأخذت كفة بركيارق ترجح كفة أخيه محمود منذ ذلك الوقت فبدأ أعوانه من النظامية (٣) يديرون دفة الأمور فى الدولة السلجوقية ، وأشار مجد الملك القمى وزير زبيدة خاتون أم السلطان المنتصر بتولية أحد أبناء نظام الملك وزيرا للدولة ، فتم تعيين الحسين بن نظام الملك وزيرا ومنح لقب عز الملك ، ثم تقدم بركيارق أنصاره نحو اصفهان ، غير أنهم انصرفوا عن فكرة الاستيلاء عليها ، تاركين هذا الأمر الى وقت آخر ، بعد أن تتم لهم السيطرة على أقاليم الدولة الأخرى ، فيكون الاستيلاء عليها أمرا ميسورا ، لايحتاج الى جهد كبير ، وتوجه بركيارق وأنصاره الى همدان .

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٥ هـ .

(٢) المرجع السابق فى حوادث السنة نفسها .

(٣) كان أنصار نظام الملك يذكرون فى كتب التاريخ باسم النظامية .

وفى تلك الأثناء ظهر مطالب جديد بعرش السلاجقة هو تاج الدولة
تتش بن ألب أرسلان عم بركيارق ومحمود ، وكان تتش حاكما على بلاد
الشام من قبل أخيه ملكشاه ، وكان مقره دمشق فلما بلغه نبأ وفاة أخيه
ملكشاه ، ووجد أن أبناء أخيه ، ليسوا فى سن تؤهلهم لتولى عرش السلطنة ،
والامساك بزمام الأمور فى الدولة ، أيقن بأنه أحق بالعرش منهم ، فأعلن
نفسه سلطانا وتحرك على رأس جيش كبير نحو حلب ، فبسط سلطانه عليها ،
ثم بسط سلطانه على انطاكية والرها وحران والرحبة ونصيبين ثم توجه
بعد ذلك صوب الموصل واستولى عليها ، ثم سيطر على ديار بكر وأذربيجان ،
فاتسع سلطانه ، وبدأ يفكر فى التوجه الى بغداد ، للاتصال بالخليفة
العباسى ، وطلب الاعتراف به سلطانا على السلاجقة .

وأحس أنصار بركيارق بالخطر الذى يتهددهم من ناحية عمه تتش ،
بعد توالى انتصاراته ، فأشاروا على بركيارق بالتوجه الى أذربيجان لصد
خطر عمه عن ايران والعراق ، وكان بركيارق حينذاك قد استولى على
همدان والرى وسائر المناطق الواقعة بينهما ، فتوجه من الرى الى
أذربيجان ، فلما اقترب من المنطقة التى يعسكر فيها جيش عمه تتش ، اتصل
بعدد من أمراء الجند فى جيش عمه ، طلب منهم الانضمام اليه فوافقوا ،
فانضم من جيش تتش الى جيش بركيارق بفضل تتش الانسحاب والرجوع
الى بلاد الشام ، وبذلك ازدادت كفة بركيارق رجحانا ، وسيطر على
أذربيجان فى عام ٤٨٦هـ (١٠٩٣م) .

غير أنه لم يلبث أن واجه فتنة أخرى أشعل نيرانها خاله اسماعيل
ابن ياقوتى ، وكان واليا على أذربيجان ، وكان لديه جيش قوى ، فأرادت
تركان خاتون المحصورة فى اصفهان أن تضمه الى جانبها ، فأرسلت اليه
طالبة الانضمام الى جانبها ، وممنية له بالزواج منها (١) ، فأجابها
اسماعيل الى ما طلبت ، وسار اليها على رأس جيش وأفر العدد من
الترکمان ، ولكن جيش بركيارق اعترض طريقه واشتبك معه فى قتال
عنيف انتهى بهزيمته وفرارده الى اصفهان حيث أحسنت ترکان خاتون
استقباله ، وأكرمت وفادته ، وأمرت بذكر اسمه فى الخطبة بعد اسم ابنها

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤١ - ١٤٢ .

محمود ، وكادت تتزوج به ، لولا أن أمراء الجيش المناصر لها أصابتهم الغيرة منه ، لأن كل أمير منهم كان يطمع فى الزواج بها ، ويرى أنه أحق بالظفر بتركان خاتون من اسماعيل خال بركيارق عدوها اللدود ، فأخذ أمراء جيش تركان خاتون بذلك ، فأثر الهرب خوفا من القتل أو الأسيرة ، وترك اصفهان الى الرى حيث لجأ الى أخته زبيدة خاتون بعد أن فقد كل شىء ، ولكن أنصار بركيارق تربصوا به قتلوه ، ووضعوا بذلك نهاية لفتنته(١) .

وكان نجم بركيارق يرتفع يوما بعد يوم ، بينما كان موقف تركان خاتون وابنها محمود يزداد ضعفا ، ولذلك توجه بركيارق الى بغداد ومعه وزيره عز الملك الحسين ، وطلب من الخليفة العباسى المقتدى بأمر الله أن يعترف به سلطانا على السلاجقة فلم يجد الخليفة بدا من الاعتراف ، وأمر بقراءة الخطبة باسمه فى ١٤ من المحرم من عام ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) ومنحه لقب ركن الدين ، وتصادف أن توفى الخليفة فى اليوم التالى للاعتراف ببركيارق ، فتولى الخلافة المستظهر بالله ابن الخليفة الراحل ولم يجد الخليفة الجديد - كذلك - بدا من الاعتراف ببركيارق سلطانا ، مما زاده قوة ، وجعله السلطان الشرعى ، وجعل كل من ينازعه عرش السلاجقة . بعد ذلك - متمردا ، ينبغى القضاء عليه .

وكان عمه تتش - حاكم بلاد الشام - مازال مصرا على أنه أحق بعرش السلاجقة من ابن أخيه ، فأخذ يجمع الجند ، ويستعد للتحرك من جديد ، لبسط سيطرته على كل ما يستطيع غزوه من أراضى دولة السلاجقة ، ثم يعلن نفسه سلطانا على الدولة ويقضى على بركيارق ومحمود ابنى أخيه .

وقد تحرك تتش فور اعتراف الخلافة العباسية ببركيارق سلطانا ووصل الى حلب ، وسيطر عليها وقتل الأمراء الموالين لبركيارق فى هذه المنطقة ، وتمكن فى مدة وجيزة من السيطرة على منطقة حلب وديار بكر وأذربيجان وهمدان(٢) ، ثم لاحظ تتش أن الناس يميلون الى أسيرة نظام

(١) ابن الأثير : الكامل : حوادث سنة ٤٨٦هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٧هـ .

الملك ، وأن بركيارق ابن أخيه قد رجحت كفته بسبب تأييد أسرة نظام الملك له ، واتخاذ عزا الملك أحد أبناء نظام الملك وزيرا له ، ففكر تتش فى وسيلة لكسب تأييد النظامية له ، فأسند الوزارة الى فخر الملك أكبر أبناء نظام الملك (١) ، وبذلك قوى نفوذ تتش ، وصار أكبر خطر يهدد بركيارق .

أما محمود أخو بركيارق الأصغر ، فقد كان محصورا فى اصفهان مع أمه ترکان خوتان . وكان نجمه آخذا فى الأفول ، وصار موقفه ضعيفا بعد اعتراف الخلافة العباسية بأخيه بركيارق سلطانا ، وبعد ازدياد قوة عمه تتش ، ولم يلبث أن مرض بمرض الحصبة فى عام ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) وتوفى بنتيجة لهذا المرض ، فاستبد الحزن بأمه ترکان خاتون فمرضت وماتت بعده بقليل ، فانحاز أنصارها الى بركيارق وبايعوه بالسلطنة ، وبسط بركيارق سيطرته على اصفهان وما جاورها ، مما دعم قوته فى مواجهة عمه تتش ، كما انضم اليه مؤيد الملك أحد أبناء نظام الملك ، وكان مقيما فى اصفهان وكان - باجماع المؤرخين - يسمى نظام الملك الثانى ، لكفاءته وذكائه ودهائه ، و كان يرجح سائر اخوته فى الكفاءة ، والمهارة فى ادارة أمور الدولة ، مما جعل أنصار بركيارق يشيرون عليه باسناد الوزارة الى مؤيد الملك ، فأسند اليه الوزارة فى ذى الحجة من العام نفسه (٢) ، فتمكن مؤيد الملك بكفاءته من اعادة الاستقرار الى المناطق التى كانت تحت سيطرة بركيارق بعد أن كان اضطراب قد أخذ يدب الى بعض المناطق ، كما استطاع مؤيد أن يسكب ود أمراء الجيش من العراقيين والخراسانيين ، وأن يجعلهم يعلنون ولاءهم لبركيارق ، والتفافهم حوله ، فعظم شأنه ، وكثر جنده ، وتحرك برفقة وزيره على رأس جيش كبير لقتال عمه تتش ، ودارت بين الطرفين رحى معركة فاصلة بالقرب من الرى فى صفر من عام ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) انتهت بهزيمة تتش ومصرعه (٣) ، وانتصار بركيارق وتخلصه من آخر منافسية على عرش السلاجقة ، فاستقامت السلطنة له ، كما انتهى

(١) كان فخر الدين يقيم فى همذان حين استيلاء تتش عليها ، فحال الاستفادة منه ، بضمه الى جانبه ، وتعيينه وزيرا له .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٣) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٨٥ ؛ ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٨ هـ .

بذلك النزاع حول العرش بعد أن ظل على أشدة سنتين وبضعة أشهر ، وكان سببا فى القضاء على وحدة السلاجقة وتماسكهم ، فأصبحوا شيعا وأحزابا ومعسكرات متباينة ، تتصارع فيما بينها .

وهكذا ترك السلاجقة التطلع الى العالم الخارجى ، ومحاولة بسط نفوذهم على أقاليم جديدة ، وصار بأسهم بينهم شديدا ، وأخذوا يتقاتلون من أجل تحقيق مصالحهم الخاصة ، فأصبح الظفر بالعرش هدفا فى ذاته ، تقوم من أجله الحروب ، وقلدهم وزرأؤهم وقوادهم ، فتنافسوا وتناحروا من أجل الظفر بالوزارة أو القيادة ، فأخذت الدولة السلجوقية فى الضعف والانحيار منذ ذلك الحين ، وأخذ نجمها يقل تالؤا وبريقا جيلا بعد جيل حتى أفل فى النهاية .

* * *

التنازع على الوزارة :

لم يكد القتال من أجل الظفر بعرش السلاجقة ينتهى بانتصار معسكر بركيارق ، وانفراده بالعرش ، حتى بدأ التنازع على الوزارة بين الطامعين فيها من أبناء نظام الملك وبين مجد الملك القمى الوزير الخاص لزبيدة خاتون أم السلطان فعادت دولة السلاجقة مرة أخرى الى الانقسام ، وكان الانقسام هذه المرة أشد خطورة ، لأنه حدث داخل معسكر بركيارق نفسه ، وقد ظهر التنافس على الوزارة بين ابنين من أبناء نظام الملك هما فخر الملك أكبر أبنائه الذى عينه تتش وزيرا قبل أن يهزم ويقتل ، ومؤيد الملك أكفأ أبناء نظام الملك الذى عينه بركيارق وزيرا للدولة ، فتمكن من ترجيح كفة بركيارق ، وجعله ينفرد بعرش السلاجقة .

كما كان مجد الملك يسعى الى الوزارة ، ويجعل الوصول اليها أهم أهدافه التى يحاول بلوغها ، غير أنه كان يعلم علم اليقين أن الناس يحبون أسرة نظام الملك ، ويلتفون حول من تؤيده هذه الأسرة ، فأثر العمل من وراء حجاب ، وعدم الظهور ، حتى لاينكشف أمره فيخسر كل شىء .

وقد وجد مجد الملك فى تنافس فجر الملك ومؤيد الملك ابنى نظام الملك على الوزارة فرصة مواتية للتخلص من الاثنين ، وازاحتهما من طريقه ، حتى

يتمكن بعد ذلك من الظفر بالوزارة ، حين تنتهياً الظروف لمثل هذا الأمر ، ولذلك انضم مجد الملك - فى الظاهر - الى فخر الملك ، لأنه كان يعلم أن أخاه مؤيد الملك أكثر كفاءة منه ، وهو فى الوقت نفسه وزير الدولة المعين من قبل سلطانها الوحيد بركيارق ، فاذا تمكن مجد الملك - متستراً وراء فخر الملك - من عزل مؤيد الملك من الوزارة ، وتعيين أخيه فخر الملك محله ، فإن مجد الملك يكون بذلك قد أزاح أكبر عقبة فى طريق وصوله الى الوزارة ويصير القضاء على فخر الملك أمراً يسيراً بعد القضاء على أخيه مؤيد الملك .

وكانت حجة مجد الملك فى تأييد فخر الملك أنه أكبر أبناء نظام الملك سناً ، فهو أحق بالوزارة بعد أبيه ، كما أن بركيارق أحق بالعرش بعد وفاة والده ملكشاه ، وكأن الوزارة مثل العرش قد أصبحت شيئاً يورث ، وصارت مقصورة على أبناء نظام الملك .

وأخذ مجد الملك يقنع السلطان بذلك المنطق ، وهو أن فخر الملك أحق بأبناء نظام الملك بالوزارة لأنه أكبرهم سناً ، كما أخذت زبيدة خاتون أم السلطان تنصح ابنها بعزل مؤيد الملك وتعيين أخيه الأكبر فخر الملك وزيراً للدولة وفاء لنظام الملك الذى قرر مبدأ أحقية أكبر الأبناء فى الحلول محل والده بعد موته ، وكان فخر الملك فى الوقت نفسه ، يحاول التقرب الى السلطان بكل وسيلة ممكنة ويبالغ فى اظهار الولاء له . وفق نصائح مجد الملك حتى وافق ملكشاه فى النهاية على عزل مؤيد الملك وتعيين أخيه فخر الملك وزيراً للدولة السلاجقة ، وكان ذلك فى عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥ م) (١) . فبدأت مرحلة جديدة من الانقسام والمنازعات الخطيرة داخل معسكر بركيارق نفسه ، كانت سبباً فى تجزؤ دولة السلاجقة ، وسوقها نحو الانهيار .

وكانت سلطة فخر الملك - وزير دولة السلاجقة - اسمية ، بينما كانت السلطة الحقيقية الفعلية فى يد مجد الملك وزير زبيدة خاتون أم السلطان بركيارق ، وقد استطاع مجد الملك أن يبسط نفوذه على كل مرافق الدولة ،

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٨٨هـ .

وأن يتصرف فى جميع الأمور ، وصار فخر الملك دمية فى يده ، يحركها كما يشاء ، وتعود الناس هذا الوضع ، حتى أنهم كانوا يرجعون الى مجد الملك فى أمورهم المختلفة ، فأصبحت الخطوة التالية اسناد الوزارة الى مجد الملك اسنادا فعليا ، حتى تتفق الصفة الرسمية مع الواقع فعلا .

أما مؤيد المؤيد فانه لم يفكر فى مناوأة أخيه فخر الملك ، ولم يحاول أن يدبر المؤامرات ضده ، أو يضع العراقيل فى وجهه لأنه أدرك بفطنته حقيقة الأوضاع فى الدولة نتيجة لضعف بركيارق أمام أمه زبيدة خاتون ووزيرها مجد الملك ، ففكر فى التآمر ضد السلطان نفسه ، للقضاء عليه ، وعلى والدته ووزيرها وكل من حوله من غير النظامية ، وأخذ يتصل بأعداء بركيارق ومنافسيه الطامعين فى عرش السلاجقة حتى استقر به المطاف عند محمد بن ملكشاه أخى بركيارق ، وكان واليا على اقليم آذربيجان من قبل أخيه ، فأكرم محمد وفادته ، وعينه وزيرا له ، ليكسب بذلك تأييد النظامية له ، فيستطيع بذلك منافسة بركيارق نفسه على عرش السلاجقة .

وفى عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) توجه بركيارق الى خراسان لقمع فتنة ظهرت فى هذه المنطقة ، ولكن الفتنة خمدت قبل وصوله ، فأثر السلطان مواصلة السير وبرفقته الوزير فخر الملك وأمه ووزيرها مجد الملك ، فلما اطمأن السلطان على استقرار الأوضاع فى خراسان ، واصل السير حتى وصل الى بلخ ، فوجد مجد الملك أن الفرصة مواتية للتخلص من فخر الملك ، وتمكن بمساعدة أم السلطان من اقناع بركيارق بعزل فخر الملك (١) من وزارة الدولة واحلال مجد الملك محله ، وبذلك حقق مجد الملك غرضه ، ووصل الى هدفه ، كما انتصرت زبيدة خاتون أم السلطان ، ونجحت فى تعيين وزيرها الخاص ، وزيرا للدولة كما فعلت ترکان خاتون من قبل .

وأمسك مجد الملك بزمام الأمور بصورة سافرة بعد أن كان يعمل من وراء حجاب ، وكان توليه الوزارة يعنى تخلى النظامية عن تأييد بركيارق ،

(١) انزوى فخر الملك فى نيسابور بعد عزله من الوزارة ثم قربه سنجر حاكم خراسان ، وعينه وزيرا له ، وظل وزيرا الى أن اغتاله فدائيو الاسماعيلية فى العاشر من المحرم من عام ٥٠٠ هـ .

وانتقال هذا التأييد الى جانب أخيه محمد(١) والى آذربيجان ، وهكذا حدث انقسام جديد فى صفوف السلاجقة ، مما أدى الى اشتعال نيران الحرب بين بركيارق وأخيه محمد الذى طمع فى العرش بتحريض من وزيره مؤيد الملك .

وكان تخلى النظامية عن الوقوف الى جانب بركيارق سببا فى تخلى عدد كبير من أفراد الجيش وحكام الاقاليم وكبار رجال الدولة عن نصره بركيارق حين اشتبك فى قتال ضد أخيه محمد .

وقد أدى تخلى النظامية عن تأييد بركيارق الى اشعال نيران الفتن فى أقاليم مختلفة من دولة السلاجقة المترامية الأطراف ، مما شجع أعداء السلاجقة فى داخل الدولة وخارجها على المجاهرة بالعداء للظفر بمغانم على حساب السلاجقة .

* * *

كثرة الحروب الداخلية :

وقد قضى بركيارق المدة الباقية من حكمه – بعد ذلك – منشغلا بالحروب الداخلية ، وكثرت هذه الحروب وتعددت مياديينها ، وتمزقت الدولة تبعا لها شر ممزق .

وكان مؤيد الملك أكثر المحرضين ضد بركيارق ووزيره مجد الملك ، لأنه لم ينس عزل السلطان له ، وقد استجاب له الأمير « أنر » فى اصفهان ، فأعلن الثورة ضد السلطان ، وأعد جيشا كبيرا ، وتوجه به الى مدينة الرى ، ثم أرسل الى السلطان(٢) يطلب منه تسليم مجد الملك ، غير أن السلطان رفض طلبه ، وسار لقتاله . ولكن « أنر » قتل على أيدي فدائيى الاسماعيلية(٣) قبل أن تقع الحرب بينه وبين السلطان ، فخدمت بذلك فتنته .

(١) كان محمد وسنجر أخوين شقيقين ، وكانت أمهما أم ولد ، وكان محمد أكبر سنا من سنجر .

(٢) كان ذلك فى عام ٤٩٠هـ وكان السلطان حينذاك موجودا فى خراسان .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢هـ ، وقد زاد نشاط فدائيى الاسماعيلية فى هذا الوقت .

ولم يكد السلطان بركيارق ووزيره مجد الملك يستريحان من خطر « أنر » حتى واجها ثورة أخرى فى آذربيجان ، أشعل نيرانها مؤيد الملك المحرك لكل الحركات المعادية للسلطان ووزيره ، فقد أقنع مؤيد الملك محمدا أخا السلطان بأحقية فى عرش السلاجقة ، وكان محمد حاكما على هذه المنطقة من قبل أخيه ، فتأثر بكلام مؤيد الملك الذى اتخذه وزيرا له ، وشق عصا الطاعة ، وأخذ يستعد لقتال أخيه السلطان ، وقطع الخطبة لأخيه ، وأعلن نفسه سلطانا على دولة السلاجقة ، وأمر أن تقرأ الخطبة باسمه .

وهكذا اشتعلت نيران الحروب الداخلية من جديد ، فتحرك محمد يصحبه وزيره مؤيد الملك على رأس جيش كبير قوى من آذربيجان متوجها الى همذان ثم الرى لبسط سلطانه فى أقاليم الدولة المختلفة ، وفى الوقت نفسه جمع بركيارق جيشا وفير العدد ، قوى التسليح ، وسار من الرى الى زنجان فى طريقه الى آذربيجان لخماد الفتنة التى أشعلها أخوه ، وكان ذلك فى عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨ م) وتقابل الطرفان بالقرب من زنجان ، غير أن جنود بركيارق تمردوا عليه ، لأن أكثرهم كان يميل الى أسرة نظام الملك ، ويكره مجد الملك الذى أبعد بركيارق عن تأييد أفراد هذه الأسرة وأنصارها ، فطالب جنود بركيارق بتسليم مجد الملك لهم ليقتلوه ، فتخمد نيران الفتنة والحروب الداخلية ، ولكن بركيارق رفض تسليم الوزير ، فلم يجد الجنود بدا من الهجوم على خيمة مجد الملك ، حيث قتلوه ومزقوه اربا (١) ، فأصيب بركيارق بحالة من الذعر ، وانهزم ، وولى هاربا الى أصفهان ، غير أن الناس سدوا الطريق الى أصفهان فى وجهه ، فتوجه جنوبا الى منطقة الخليج ، ليهرب من المناطق التى يزداد فيها نفوذ النظامية ، ويحاول جمع جنود جدد موالين له يثبت بهم عرشه المهتز .

أما أخوه محمد فقد وأصل التقدم ومعه وزيره مؤيد الملك حتى بلغ مدينة الرى ، فاستولى عليها ، وكانت زبيدة خاتون أم السلطان بركيارق موجودة فيها ، فقبض عليها مؤيد الملك وأمر بقتلها (٢) ، ثم توجه محمد بعد ذلك الى همذان وسيطر عليها ، وأعلن نفسه سلطانا على دولة السلاجقة

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢هـ .

كلها ، وطلب من الخليفة العباسى الاعتراف به ، فوافق الخليفة ، لما أحس بقوة محمد ، وغلبة نفوذه ، واعترف به سلطانا على السلاجقة ، وأمر بذكر اسمه فى الخطبة ، ومنحه لقب غياث الدنيا والدين .

وهكذا وجد سلطانان فى وقت واحد فى دولة السلاجقة ، وكان كل منهما معترفا به من قبل الخليفة العباسى ، مما يدل على ضعف الخلافة العباسية من ناحية ، وتمزق دولة السلاجقة من ناحية أخرى .

ولم يعد عجيبا أن تضعف هذه الدولة ، وتسير بخطى واسعة نحو الانهيار ، لأن أفراد البيت السلجوقى تركوا الأهداف السامية للدولة ، وانشغلوا بقتال بعضهم البعض ، فذهبت ريحهم ، وغربت شمسهم ، بعد أن أصبح الظفر بالعرش أكبر ما يهمهم .

وتوالى الحروب بين بركيارق وأخيه محمد ، واستمرت خمس سنوات متتالية تبادل فيها النصر والهزيمة ، فلم يستطع واحد منهما أن ينتصر على الآخر انتصارا حاسما يجعله سيد الموقف ، بل كان كل منهما يجمع الجند بعد كل معركة سواء أكان منتصرا فيها أم مهزوما ، ليستعد للمعركة التالية ، كان بركيارق يسيطر على المناطق الجنوبية من إيران ، بينما كان محمد يسيطر على الأجزاء الشمالية منها ، وكانت الحرب تقع كل عام بين الطرفين منذ عام ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) الى عام ٤٩٦ هـ (١١٠٢ م) (١) .

أما الخليفة العباسى فى بغداد فكان ضعيفا عاجزا عن التدخل لفض النزاع بين الآخوين ، وكان يعلن تأييده لمن يغلب منهما ، ولكل من يدخل بغداد ويسيطر عليها ، ويأمر بذكر اسمه فى الخطبة ، مما جعله يتناقض فى قراراته وأحكامه .

وقد أدت هذه الحروب المتكررة الى انتشار الفوضى والاضطراب والفساد فى أنحاء دولة السلاجقة ، فصارت الأموال منهوبة ، والدماء مسفوكة ، والبلاد مخربة ، والقرى محرقة ، والسلطنة مظموعا فيها ، محكوما عليها بالخسران ، وأصبح السلاطين مقهورين بعد أن كانوا

(١) ارجع فى معرفة معلومات مفصلة عن هذه الحروب الى ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢ و ٤٩٣ و ٤٩٤ و ٤٩٥ و ٤٩٦ هـ .

قاهرين ، وكان الأمراء والأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ، ليدوم تحكمهم ، ونهبهم للأموال .

وقد قتل فى تلك الحروب المتتالية مؤيد الملك ، كما قتل مجد الملك وزبيدة خاتون ، وهكذا اكتوى الطرفان المتحاربان بنيرانها ، وصا كل منهما يتمنى وضع حد لها .

وفى عام ٤٩٧هـ (١١٠٣م) أرسل بركيارق الى أخيه محمد يدعوه الى تسوية النزاع بينهما عن طريق الصلح (١) ، فاستجاب محمد لدعوة أخيه ، وتم الاتفاق بين الأخوين على تقسيم أقاليم الدولة بينهما ، فتصير الأقاليم الشمالية خاضعة لحكم السلطان محمد ، بينما الأقاليم الجنوبية تحت حكم السلطان بركيارق ، وأن يحمل كل منهما لقب السلطنة ، وأن تظل منطقة خراسان وما جاورها تحت سيطرة سنجر .

وقد ظل هذا الاتفاق قائما حتى توفى بركيارق فى الثانى من ربيع الثانى من عام ٤٩٨هـ (١١٠٤م) ، وكان بركيارق قد عين قبل وفاته ابنه ملكشاه وليا لعهد ، وكان طفلا دون الخامسة من عمره ، فعين بركيارق الأمير اياز أتابكا عليه (٢) .

وهكذا توفى بركيارق وهو شاب فى الخامسة والعشرين من عمره ، بعد اثنتى عشرة سنة وبضعة أشهر من توليه عرش السلاجقة ، وقضى أكثر هذه المدة فى حروب متتالية من أجل الاحتفاظ بعرش السلطنة ، وذاق طعم الانتصار كما تجرع كأس الهزيمة ، وعاش حياة قلق مضطربة .

وقد ترك بركيارق دولة السلاجقة مجزأة الى أجزاء كثيرة ، يتبع كل جزء منها حاكما ، يكاد يكون مستقلا بحكم المنطقة التى يسيطر عليها ، فكان الجزء الشرقى من الدولة خاضعا لحكم سنجر ، وكان الجزء الشمالى منها تحت سيطرة السلطان محمد ، كان الجزء الجنوبى من الدولة تحت سيطرة السلطان بركيارق ، بينما كانت منطقة كرمان تحت حكم أبناء قاورد ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٧هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٨هـ ، والأتابك هو المشرف على التربية وإدارة الأمور .

وكانت بلاد الشام تحت سيطرة أبناء تتش ، بينما كانت بلاد الروم (آسيا الصغرى) تحت حكم أبناء سليمان بن قتلمش ، وكان كل حاكم من هؤلاء مستقلا استقلالا تاما فى ادارة المنطقة الخاضعة لنفوذه .

وهكذا تجزأت دولة السلاجقة ، بعد أن كانت قوية عظيمة ، فلم تعد لها تلك الصورة الرائعة من الاتحاد والتماسك والقوة والهيبة التى كانت معالمها واضحة طوال مدة حكم طغرل الأول وألب أرسلان وملكشاه الذين يسمون بحق - سلاطين السلاجقة العظام(١) .

والحقيقة التى لا جدال فيها أن دولة السلاجقة أخذت فى الانقسام والانحيار بعد مصرع الوزير نظام الملك وموت السلطان ملكشاه بعد خمسة وثلاثين يوما ، فلم تعد دولة واحدة قوية ، بل صارت دولا مختلفة ، وتحولت من أعظم قوة فى العالم الاسلامى بخاصة ، وفى العالم كله بعامه الى عدد من الدول المتناحرة التى يطمع فيها جيرانها فى كل من الشرق والغرب ، وظلت كذلك الى أن غربت شمسها ، مما سنبينه فى الفصول التالية :

(١) يضم كثير من المؤرخين السلطان سنجر بن ملكشاه الى قائمة سلاطين السلاجقة العظام لأنه استطاع أن يعيد التماسك الى أجزاء الدولة فى جزء كبير من مدة حكمه .

الفصل السابع

السلامة في مواجهة خطر الإسماعيلية والصليبية

تمهيد :

كانت دولة السلامة منذ مقتل نظام الملك وموت ملكشاه بعده بقليل منضطربة الأحوال ، لكثرة الخلافات بين أفراد البيت السلجوقي ، بين كبار رجال الدولة الطامعين في الوزارة ، مما أشعل نيران الحروب الداخلية ، وجعل الدولة مجزأة ، لا تماسك بين أجزائها ، ولا تكاتف بين حكام أقاليمها المختلفة من أجل حماية الدولة نفسها من شر أعدائها في الداخل - وفي مقدمتهم الإسماعيلية - ومن شر أعدائها في الخارج ، وعلى رأسهم الروم ، مما أدى إلى تعرض الدولة لخطر الإسماعيلية ، ثم لخطر الحروب الصليبية . وكان الخطر الأول من داخل الدولة ، أما الخطر الثاني فكان من خارجها ، مما يبين الوضع السيئ الذي أصبحت فيه دولة السلامة نتيجة للتنازع على العرش والوزارة ، وكثرة الحروب الداخلية التي أدت إلى تفكك الدولة وضعفها ، مما أغرى بها أعداءها في الداخل والخارج .

وقد ظهر النزاع حول العرش بعد وفاة بركيارق بين ابنه الطفل ملكشاه وعم هذا الطفل محمد الذي كان سلطانا على الجزء الشمالي من دولة السلامة (١) ، وكان بركيارق قد عين ابنه ملكشاه وليا للعهد ، وعين مشرفا على تربيته هو إياز ، فلم يكذب بركيارق يتوفى حتى حمل إياز ملكشاه بن بركيارق إلى بغداد ، وحصل من الخليفة العباسي على التفويض له بالسلطنة ، غير أنه لم يحتفظ بالسلطنة طويلا ، لأن عمه السلطان محمدا تحرك بسرعة ، وتوجه إلى بغداد ، وضم ابن أخيه الطفل إليه ووافق الخليفة العباسي على أن يكون محمد وحده سلطانا على السلامة ، وأن يكون ملكشاه بن بركيارق

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٨ هـ .

وليا لعهدده ، وبادر اياز باعلان ولائه للسلطان محمد الذى رجب به فى البداية ، ثم لم يلبث أن تخلص منه بالقتل بعد ذلك بقليل ، ووافق سنجر شقيق محمد وحاكم خراسان على كل ما تم .

غير أن السلطان محمد لم يلبث أن واجه خطرا داخليا هو الخطر الاسماعيلى ، وخطرا خارجيا هو الخطر الصليبي ، فلننظر كيف واجه السلاجقة هذين الخطرين .

الخطر الاسماعيلى :

كان الاسماعيلية منذ استيلائهم على قلعة الموت فى عام ٤٨٣هـ (١٠٩٠م) يزدادون قوة عاما بعد عام مستفيدين مما أصاب دولة السلاجقة من ضعف نتيجة لما يسودها من حروب داخلية وتفكك ، فزاد نشاطهم ، واتسعت منطقة نفوذهم ، وأخذوا ينشرون دعوتهم ، حتى وصلت الى اصفهان احدى عواصم السلاجقة ، كما انتهزوا فرصة انشغال بركيارق ومحمد بالحرب التى اشتعلت بينهما ، فسيطروا على مناطق جديدة ، وبلغت جراتهم درجة جعلتهم يخطفون الناس بحيل مختلفة ، ويحملونهم الى أماكن غير معروفة حيث يسجنونهم ويعذبونهم ويقتلون بعضهم .

وقد تمكن أحمد بن عبد الملك بن عطاش أحد قواد الاسماعيلية من الاستيلاء على قلعة « شاهدر » (١) بالقرب من اصفهان فى عام ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) ، وكانت « شاهدر » احدى القلاع الحصينة التى بناها ملكشاد لحماية اصفهان وما جاورها ، مما جعل سيطرة الاسماعيلية عليها أمرا خطيرا ، يهدد دولة السلاجقة نفسها .

وهكذا قوى نفوذ الاسماعيلية داخل الدولة السلجوقية ، وصاروا يشكلون دولة داخل هذه الدولة ، وقد تحصن أحمد بن عبد الملك بن عطاش داخل قلعة « شاهدر » وجمع فيها كثيرا من الغلمان لتدريبهم ، واخترن فيها كثير من الأسلحة والأمتعة ، كما بنى دارا للدعوة بالقرب من القلعة ، ونشط فى دعوة الناس الى اتباع المذهب الاسماعيلى ، فاستجاب لدعوته عدد كبير من الناس .

(١) « شاهدر » معناها « القلعة الملكية » .

كما أوعن الاسماعيلية فى قتل مخالفهم ، وأسندوا هذا الامر الى رجل منهم - اسمه علوى المدنى -- فكان يشرف على خطف أعداء الاسماعيلية ثم يقوم بمهمة الجلاذ ، فيعد لهم فى منزل أعده لهذا الغرض بالقرب من اصفهان(١) ، وظل يبطش بمخالفى الاسماعيلية حتى تنبه الناس الى هذا الخطر ، وأخذوا يتعقبون هذا الجلاذ حتى عرفوا المنزل الذى خصصه للبطش بمخالفى الاسماعيلية ، وتمكنوا من القبض على علوى المدنى وزوجته واحرقهما .

ولما ولى السلطان محمد عرش السلاجقة دون منازع فى عام ٤٩٨هـ (١١٠٤م) كانت قوة الاسماعيلية قد بلغت حدا خطيرا ، فكان عليه أن يواجه هذه القوة . ويتصدى لها . ويحاول القضاء عليها ، قبل أن يفكر فى التصدى لأى خطر خارجى(٢) .

وقد أمر السلطان محمد بمداصرة قلعة « شامدر » فى عام ٥٠٠هـ (١١٠٦م) . كما أمر بقتل وزيره سعد الملك الأبى بعد أن أحس بأنه متواطئ مع الاسماعيلية ، وأنه كان يتصل بهم فى الخفاء ، ويتآمر معهم ضد السلاجقة .

وأسند السلطان محمد الوزارة الى ضياء الملك أحمد(٣) أحد أبناء نظام الملك ، وعكف الجيش السلجوقى على حصار القلعة حتى استسلم أحمد بن عبد الملك بن عطاش فى الشام نفسه . فأمر السلطان محمد بقتله وقتل جميع أبنائه ، كما أمر بتخريب القلعة ، ثم أخذ يتعقب الاسماعيلية فى المناطق الأخرى التى انتشر نفوذهم فيها(٤) .

وكان حرص السلطان محمد على القضاء على الاسماعيلية من الأعمال

-
- (١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٥٥ - ١٥٧ .
(٢) كانت الحروب الصليبية قد بدأت فعلا فى ذلك الوقت ولكن السلطان محمد بدأ بمواجهة الخطر الداخلى قبل التصدى للخطر الخارجى .
(٣) كان ضياء الملك يلقب بنظام الملك الثانى كما كان أخوه مؤيد الملك من قبل يلقب بهذا اللقب .
(٤) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٥٨ - ١٦٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٠هـ .

التي جعلته يذكر بالخير في كتب المؤرخين من أهل السنة فأشادت هذه الكتب بغيرته الدينية وجهاده في سبيل القضاء على الشيعة الغلاة ، من أجل اعلاء كلمة أهل السنة ، ونشر الأمن والطمأنينة في ربوع دولة السلاجقة ، بعد أن أشاع الاسماعيلية فيها الفساد والاضطراب .

وقد اجتهد السلطان محمد في الحد من تفوذ الاسماعيلية ثم القضاء عليه قضاء تاما ، بكل وسيلة ممكنة ، ففكر في الاستيلاء على قلعة الموت نفسها ، والقضاء على الحسن بن الصباح ، فأرسل جيشا محاصرة القلعة في شهر المحرم من عام ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) .

وقد دافع الاسماعيلية عن القلعة ببسالة ، فلم يستطيع الجيش السلجوقي - بقيادة الوزير ضياء الملك أحمد - اقتحام القلعة ، فارتد عنها ، بعد أن عجز عن الاستيلاء عليها ، وكان هذا العجز لطمة شديدة لهيبة السلاجقة ، فنشط الاسماعيلية من جديد في نشر دعوتهم ، وفي تثبيت أقدامهم في المناطق التي لهم نفوذ فيها ، كما دبروا مؤامرة لقتل الوزير ضياء الملك ، فضربوه بالسكاكين في شهر شعبان من العام نفسه ، وهو في طريقه الى المسجد ، فجرح في رقبته جرحا بليغا ، وبقي مريضا مدة ثم برأ (١) .

وأخذ الاسماعيلية - كذلك - يغيرون على المناطق المجاورة لقلعة الموت ، ويكثرون من السلب والنهب والقتل ، ويأسرون الرجال ويسبون النساء ، مما اضطر السلطان محمد الى الاستعداد لقتال الاسماعيلية - مرة أخرى - فكلف الأمير أنوشتكين شيركيز صاحب آبه وساو و ما جاورها بالسير لقتال الاسماعيلية في عام ٥٠٥ هـ (١١١١ م) ، فتمكن من الاستيلاء على كثير من قلاع الاسماعيلية في تلك المنطقة (٢) ، ثم توجه بعد ذلك الى قلعة الموت وعكف على حصارها ، وكان السلطان محمد يواليه بالمدد من الميرة والذخائر والرجال بين الحين والحين ، مما ساعد على تشديد الحصار على تلك القلعة ، وتضييق الخناق على الاسماعيلية حتى ضاق الأمر بهم ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٠٣ هـ .

(٢) البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١١٧ .

وعدمت عندهم الأقوات ، بعد أن استمر الحصار بضع سنوات ، وكاد الجيش السلجوقي يبلغ غايته ، ويصل الى هدفه ، لولا أن بلغه نبأ وفاة السلطان محمد ، فاضطر أنوشتكين الى فك الحصار والانسحاب ، لمراقبة الأحوال فى دولة السلاجقة بعد موت السلطان محمد ، وهكذا نجا الاسماعيليه من الهلاك (١) ، وغنموا كثيرا من المخلفات التى تركها الجيش السلجوقي حين انسحابه .

وهكذا توفى السلطان محمد قبل أن يقضى قضاء تاما على الاسماعيليه فبقى خطرهم يهدد دولة السلاجقة فى ايران والعراق بعد عصره ، برغم أنه بذل جهدا كبيرا ، فى الحد من سلطانهم ، وفل شوكتهم وفى القضاء على كثير من قلاعهم الحصينة .

الخطر الصليبي :

وقد واجه السلاجقة - منذ عصر السلطان بركيارق - خطرا آخر غير الخطر الاسماعيلى ، ألا وهو الخطر الصليبي ، وكان خطرا خارجيا جاءهم من الغرب ، ذلك أن الروم أغراهم تمزق السلاجقة وانشغالهم بالحروب الداخلية ، فتحركوا ليأخذوا بالتأثر لأنفسهم من هزيمتهم على أيدي السلاجقة فى موقعة ملازكرد فى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) وتحالفوا مع الدول الأوربية النصرانية ، وصبغوا هجومهم على بلاد المسلمين بصبغة دينية ، فرفعوا الصليب شعارا ، وأعلنوا أن المسلمين يمنعون النهارى من زيارة بيت المقدس ، وأخذوا يرسلون الحملات الحربية لغزو بلاد المسلمين فى آسيا الصغرى وفى بلاد الشام ، وقد كانت الحملة الأولى من هذه الحملات الحربية الصليبية فى عام ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) ، واستمرت الحروب الصليبية أكثر من قرنين من الزمان ، وكانت لها نتائج خطيرة بالنسبة للعالم الاسلامى فى عصر السلاجقة وفى العصور التالية للعصر السلجوقي ، وما زالت بعض آثارها باقية الى العصر الحاضر .

وكان انقسام السلاجقة على أنفسهم ، وتقاتلهم من أجل الظفر بعرش

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٦٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث ، سنة ٥١١هـ .

السلطنة ، وانشغالهم بأهوائهم الشخصية عن التنبه لتحرك أعدائهم فى الداخل والخارج من العوامل التى مكنت الصليبيين من الانتصار على المسلمين فى حملاتهم الحربية الأولى على بلاد المسلمين ، حتى استطاعوا الاستيلاء على بيت المقدس فى عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) ، ولم يستطع السلاجقة فى الشام الوقوف فى وجه الصليبيين ، لأن أفراد البيت السلجوقى فى الشام كانوا لا يقلون انقساماً وتنازعا عن غيرهم من السلاجقة فى ايران والعراق ، فقد اشتد النزاع بين رضوان ودقاق ابنى تتش ، من أجل الظفر بحكم بلاد الشام ، واشتعلت الحروب بينهما منذ عام ٤٩٠هـ (١٠٩٦) (١) ، وذلك بعد أن انقسمت بلاد الشام فعلاً منذ عام ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) فاتخذ رضوان (٢) مدينة حلب عاصمة له ، بينما سيطر أخوه دقاق (٣) على دمشق وما جاورها واتخذها قاعدة لحكمه ، وقد شغل كل منهما بقتال أخيه من أجل تحقيق مآرب الشخصية ، فتمكن الصليبيون من غزو بلاد الشام والوصول الى بيت المقدس فى فلسطين دون عناء كبير ، مستفيدين من انقسام المسلمين وتنازعهم فيما بينهم .

وكانت الحروب الصليبية – فى الحقيقة – فصلاً من فصول الصراع الطويل بين الشرق والغرب ، وهو الصراع الذى بدأ منذ أقدم العصور ، ولا يزال مستمراً الى يومنا هذا متخذاً أسماء مختلفة ، وأشكالا متنوعة .

وقد احتشد المشتركون فى الحملة الصليبية الأولى فى القسطنطينية بعد أن أرسل قيصر الروم الكسيوس كومنينوس فى عام ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) الى البابا أربانوس الثانى يستحثه على دعوة النصارى الخاضعين لسلطانه الرومى فى دول أوروبا المختلفة الى التطوع لاستخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين ، وكان ذلك بعد أن استولى السلاجقة على جزء كبير من ممتلكات الروم فى آسيا الصغرى ، حتى وصلوا الى بحر مرمرة ، وهددوا القسطنطينية

(١) ابن الاثير : الكامل ، حوادث عام ٤٩٠هـ .

(٢) ظل رضوان حاكماً على منطقة حلب من عام ٤٨٨هـ الى عام ٥٠٧هـ وشغل بقتال أخيه دقاق عن قتال الصليبيين .

(٣) حكم دقاق منطقة دمشق من عام ٤٨٨هـ الى عام ٤٩٨هـ وقضى أكثر مدة حكمه فى قتال أخيه رضوان .

نفسها ، بعد أن أسسوا لهم دولة فى تلك المنطقة عرفت باسم « دولة سلاجقة الروم » فأراد قيصر الروم أن يصبغ حربه ضد السلاجقة بصيغة دينية ، كما فعل السلاجقة من قبل ، فاستعدى البابا فى روما ضد المسلمين ، وطلب منه استنفار النصارى الخاضعين لنفوذه الروحى لقتالهم ، برغم أن البابا كان يمثل المذهب الكاثولىكى ، بينما كان الروم يتبعون المذهب الأرثوذكسى ، وقد وجد البابا فى ذلك فرصة لارجاع الروم الى حظيرة كنيسة روما ، فاستجاب لطلب القيصر ، والقى خطبة فى « كلير مونت » (١) حث فيها النصارى المؤمنين الى التوجه الى بيت المقدس لانتزاعها من أيدي المسلمين ، ومنى المشتركين فى هذا الزحف بالجنة ، فاستجاب له عشرات الآلاف من النصارى من مختلف الدول الأوربية ، وحملوا الصليب شعارا على صدورهم ، وتوجهوا الى القسطنطينية ، استعدادا لبدء الحملة الصليبية (٢) ، بهدف الوصول الى بيت المقدس .



وقد سلكت الحملة الصليبية الأولى طريقها عبر أراضى آسيا الصغرى والتي كانت حذاك خاضعة لحكم قلع أرسلان سلطان سلاجقة الروم ، فتصدى رجاله للزحف الصليبي ، ولكنهم لم يستطيعوا إيقافه ، فواصل الصليبيون تقدمهم حتى بلغوا « نيقية » فحاصروها حتى سقطت فى أيديهم فى عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) (٣) ثم اشتبك الصليبيون مع المسلمين فى معركة عنيفة فى « اسكى شهر » انتهت بانتصارهم على قوات قلع أرسلان انتصارا تيسرت لهم بعده السيطرة على الجزء الغربى من شبه جزيرة الأناضول .



واجتاز جيش الصليبيين - بعد ذلك - جبال طوروس ، واحتل جزء منه مدينة طرسوس ، بينما تابع الجيش سيره جنوبا حتى وصل الى انطاكية - عاصمة سوريا الشمالية حينذاك - وتمكن من انتزاعها من أيدي السلاجقة

(١) تقع كلير مونت فى الجنوب الشرقى من فرنسا .

(٢) انضم الى الحملة الصليبية الأولى كثير من الصعاليك على أمل الظفر بالفنائم التى تفرج كربتهم وتخلصهم من البؤس الذى يشكون منه نتيجة لاشتداد الأزمة الاقتصادية فى أوروبا حينذاك .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٤٩٠ هـ .

فى عام ٤٩١هـ (١٠٩٧م) (١) ، وأسس الصليبيون امارة فى انطاكية (٢) ، ظلت قائمة خمس وسبعين ومائة سنة ، وقد حاول كربوغا أمير الموصل أن ينقذ المدينة من أيدي الصليبيين ولكنه فشل وخسر عددا كبيرا من جنده (٣) .

وكان جزء من جيش الصليبيين قد أتجه شرقا بعد اجتياز جبال طوروس حتى وصل الى مدينة الرها - التى كان سكانها من الأرمن - وتمكن من الاستيلاء عليها بقيادة بلدوين الذى أسس امارة فيها ، وكان أول أمير لهذه الامارة الصليبية فى عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) ، وكانت هذه الامارة أول امارة صليبية لاتينية فى هذه المنطقة (٤) .

أما بلاد الشام فكانت قبل وصول الصليبيين الى المنطقة محل نزاع بين أفراد البيت السلجوقي من ناحية ، وبين السلاجقة والفاطميين من ناحية أخرى ، وقد تمكن السلاجقة منذ عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠م) من الاستيلاء على أجزاء من بلاد الشام ، من انتزاع فلسطين من أيدي الفاطميين ، كما تمكنوا من السيطرة على دمشق وحلب والرها ، وبلغ نفوذهم الموصل ، غير أن الفاطميين تمكنوا بواسطة اسطولهم القوى - حينذاك - من السيطرة على جميع المدن الساحلية مثل عسقلان وعكا وصور ، وبلغت سيطرتهم جبيل شمالا ، وكان ذلك فى عام ٤٨٢هـ (١٠٨٩م) كما عادوا الى السيطرة على مدينة القدس فى عام ٤٨٩هـ (١٠٩٦م) فظلت تحت سيطرتهم حتى سقطت فى أيدي الصليبيين فى عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) أى أن بلاد الشام كانت أحوالها مضطربة حين مجيء الصليبيين اليها ، لكثرة المنازعات بين أفراد البيت السلجوقي - كما ذكرنا - بين السلاجقة والفاطميين - كما بينا - وكان السلاجقة على مذهب السنة بينما كان الفاطميون على مذهب أهل الشيعة ، مما جعل اتحادهم لمواجهة

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١هـ ، أبو الفدا : تاريخه ، ج ٢ ص ٢٢٠ ، ابن خلدون : تاريخه ، ج ٥ ص ٢٠ .

(٢) كان بوهمند قائد الجيش الذى استولى على انطاكية ثم صار أميرا على امارتها .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١هـ ، أبو الفداء : تاريخه ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .

(٤) حتى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٣ ، ص ٧٥٣ - ٧٥٤ .

الخطر الصليبي أمرا متعذرا ، ويسر للصليبيين الانتصار على الطرفين ،
وتحقيق هدفهم ببلوغ بيت المقدس والاستيلاء عليه .

وهكذا واصل جيش الصليبيين تقدمه وانتصاراته على المسلمين في
بلاد الشام بأجزائها المختلفة الموزعة من السلاجقة والفاطميين ، مستفيدا من
اضطراب الأحوال فيها ، فبعد استيلاء الصليبيين على انطاكية ، تقدم جزء
من جيشهم جهة الجنوب ، وكان بقيادة ريموند (١) ، واحتل معرة النعمان
في عام ٥٩١ هـ (١٠٩٧ م) وأخلاها من أهلها بعد أن قتل عددا كبيرا منهم ثم
جعلها طعمة للنيران (٢) .

وسار ريموند - بعد ذلك - غربا حتى وصل الى « حصن الاكراد » (٣) ،
وهو موقع عسكري بالغ الأهمية ، لأنه يتحكم في الممر الواقع بين سهول
العاصي والبحر الأبيض المتوسط (٤) ، وقد احتل ريموند ذلك الموقع ، فحقق
كسبا حربيا كبيرا ، ثم حاصر « عرقة » - على الحافة الغربية من لبنان
الشمالي (٥) - وتقدم الى « انطرسوس » على الساحل ، واستولى عليها دون
مقاومة ، ثم أثر ترك هذه المغنم والانضمام الى الجيش الزاحف الى « بيت
المقدس » التي كانت الهدف المقصود ، الذي تحرك الصليبيون من أجل
تحقيقه . .

وتحرك جيش الصليبيين جنوبا ، وواصل سيره حتى بلغ « الرملة »
وتمكن من الاستيلاء عليها ، فصارت أول منطقة لاتينية في سورية الجنوبية -
أي فلسطين (٦) - ، وسار الجيش الصليبي - بعد ذلك - في طريقه الى « بيت

(١) اسمه الكامل ريموند دوتولوز .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ ، أبو الفداء : تاريخه ، ج ٢ ،
ص ٢٢١ .

(٣) ابن خلدون : ج ٥ ، ص ١٨٧ ، وهي قلعة الحصن اليوم ، وسميت حصن
الأكراد لأنها في الأصل قلعة بناها أمير حمص سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣١ م) وجعلها
مقرا لحامية كردية ، أرجع الى كتاب حتى وجرجي وجبور : تاريخ
العرب ، ج ٣ ، حاشية ص ٧٥٦ .

(٤) كان البحر الأبيض المتوسط يسمى حينذاك بحر الروم .

(٥) حتى وجرجي وجبور : تاريخ العرب ، ج ٣ ، ص ٧٥٦ .

(٦) ابن القلائس : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢٦ .

المقدس « فبلغها فى عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) ، وكانت المدينة حينذاك تحت سيطرة الفاطميين - كما ذكرنا .

وقد تمكن الجيش الصليبي من فتح المدينة (١) ، كما تمكن من احراز نصر آخر على جيش الفاطميين عند عسقلان (٢) ، مما ساعد على تثبيت أقدام الصليبيين فى القدس ، ولو أن عسقلان بقيت مقرا للأسطول المصرى ، ومركز حامية مصرية ، كان الوزير المصرى الملك الأفضل يستفيد من وجودها فى الوقعية بالعدو الصليبي (٣) .

وهكذا أقام الصليبيون ولاية لاتينية ثالثة فى القدس ، لم تلبث أن أصبحت أعظم الولايات مرتبة ، وعهد بالأمر فيها الى جودفرى شقيق بلدوين وحقق الصليبيون هدفهم بالاستيلاء على بيت المقدس ، فرجع كثير من المتطوعين بعد ذلك الى بلادهم (٤) .

وكان أول عمل قام به جودفرى بعد السيطرة على بيت المقدس هو إخضاع مدن الساحل حتى يستطيع الاتصال بأوربا ، فاستعان بالسفن الايطالية التى تنقل الحجاج الصليبيين فى السيطرة على المدن الساحلية ، بعد أن أقتنع أصحاب السفن أن السيطرة على هذه المدن يفتح أسواقا جديدة لبضائعهم ؛ وقد تمكنت السفن الايطالية من بسط نفوذ الصليبيين على يافا وأرسوف وقيسارية وعكا وحيفا (٥) فى عام ٤٩٤هـ (١١٠٠م) ، ولم يستطع الأسطول المصرى الفاطمى منع الصليبيين من السيطرة على أكثر المدن الساحلية برغم أنه كان الأسطول القوى الوحيد فى المنطقة حينذاك .

كما توغل الصليبيون حتى وصلوا الى بيسان وسيطروا عليها ، ثم استولوا على نابلس (٦) ، وبذلك أصبح الصليبيون خطرا عظيما يهدد العالم الاسلامى بعمامة ، ودولة السلاجقة بخاصة .

-
- (١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢هـ .
 - (٢) المرجع السابق فى حوادث السنة المذكورة .
 - (٣) ابن ميسر : أخبار مصر ، ص ٣٩ ما بعدها .
 - (٤) حتى وجرى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٣ ، ص ٧٥٧ .
 - (٥) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٤هـ .
 - (٦) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٨ .

غير أن السلاجقة انشغلوا بالحروب الداخلية فيما بينهم ، من أجل الظفر بالعرش ، فلم ينتبهوا الى ذلك الخطر الصليبي العظيم ، ولم يقدروا خطورته تقديرا صحيحا ، كما أن الخلافة العباسية ، فى بغداد كانت فى حالة من الضعف لاتمكنها من التصدى للخطر الصليبي أو المساهمة فى صدّه وابعاده عن العالم الاسلامى ، فلم يحاول السلطان بركيارق التصدى للصليبيين وهم يوجهون حملتهم الأولى الى بيت المقدس ، ولم يتحرك الخليفة العباسى لبيان خطورة هذه الحملة على بلاد المسلمين ، ودعوتهم للجهاد من أجل انقاذ الاسلام من الخطر الصليبي ، مما أدى الى تفاقم هذا الخطر بمرور الأيام ، وتوالى الحملات الصليبية فزاد خطرها على بلاد المسلمين .

وحين استولى الصليبيون على بيت المقدس فى عام ٤٩٢هـ (١٠٩٨م) ، وسفكوا دماء الألاف من المسلمين أقبل وفد من بلاد الشام الى بغداد مستغيثا بأولى الأمر فيها ، وشرحوا ما دهم المسلمين بذلك البلد الشريف ، وبكوا وأبكوا ولكنهم عادوا من غير قضاء حاجة (١) ، وأحال الخليفة المستظهر بالله رجال الوفد الى السلطان بركيارق ، الذى بدأت سلطنة السلاجقة تنحل به ، وانتهى الأمر عند هذا الحد ، لأن بركيارق كان مشغولا بالنزاع مع أخيه محمد ، لم يحرك ساكنا ، وعاد الوفد دون أن يتحرك أحد لصد الخطر الصليبي .

وفى عام ٥٠١هـ (١١٠٧م) أحرق الصليبيون بمدينة طرابلس ، فتحرك وفد من أهلها الى بغداد مستنجدا بالخليفة غير أن استغاثة أهل طرابلس لم تجد من يستجيب لها ، فعاد أفراد الوفد ، دون أن يظفروا بطائل (٢) .

وبعد ثلاث سنوات من هذا الحادث أقلعت من مصر مراكب تحمل أمتعة كثيرة لتجار من حلب ، فوقع عليها الفرنج وأخذوها بما فيها ، فسار جماعة من حلب الى بغداد مستنفرين على الفرنج ، واجتمع معهم خلق كثير من الفقهاء وغيرهم ، ودخلوا جامع السلطان وهو حاضر ، وكسروا المنبر ، وكسروا شباك المقصورة ، وبطلت الصلاة ، فأرسل الخليفة المستظهر حينئذ

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٢هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٠١هـ .

الى السلطان محمد السلجوقى يكل اليه الاهتمام بهذا الفتق ، فتقدم الى من معه من الأمراء بالتجهز للجهاد ، والسير الى قتال الفرنج ، فساروا وهم عدد قليل فلم يصنعوا شيئاً (١) .

وهكذا وقف سلطان السلاجقة كما وقف خليفة المسلمين فى بغداد فى حالة عجز تام عن مواجهة الخطر الصليبي ، كما عجز الحكام السلاجقة فى بلاد الروم والشام عن صد هذا الخطر ، والحيلولة دون وصول الصليبيين الى بيت المقدس ، وانشاء امارات صليبية فى بلاد المسلمين ظلت تهدد الاسلام والمسلمين قرنين من الزمان ، قبل أن يتمكن المسلمون من طرد الصليبيين من بلادهم ، والقضاء على خطرهم .

وقد حاول السلطان محمد - مرة - أن يفل شوكة الصليبيين بعد أن تفاقم خطرهم ، فأرسل فى عام ٥٠٨ هـ (١١١٤ م) ، جيشاً لقتالهم ، غير أن هذا الجيش لم يوفق فى أداء المهمة التى كلف بها ، لأن خلافاً حدث بين أمرائه ، مما أدى الى تمزيق صفوف جنود المسلمين ، وهزيمتهم فى عام ٥٠٩ هـ (١٠١٥ م) (٢) فازداد الصليبيون قوة وخطراً .

وقد أدى ظهور الخطر الصليبي من خارج حدود دولة السلاجقة الى جانب ظهور الخطر الاسماعيلى من داخلها الى اضعاف السلاجقة سواء فى ايران والعراق أو فى الشام وبلاد الروم .

وكان أفراد البيت السلجوقى أنفسهم لا يكفون عن التنازع فيما بينهم من أجل تحقيق مصالحهم الشخصية ، فاضطربت أحوال السلاجقة فى جميع أنحاء دولتهم بعامه ، وفى ايران والعراق بخاصة ، مما سندينه فى الفصول التالية .

(١) المرجع السابق ، حوادث سنتى ٥٠٤ هـ و ٥٠٥ هـ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنتى ٥٠٨ هـ و ٥٠٩ هـ .

الفصل الثامن

انقسام دولة السلاجقة

بدأت الدولة السلجوقية تتفكك وتنقسم الى عدد من الأجزاء منذ وفاة السلطان ملكشاه فى عام ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) ، فقد أصبحت الدولة فى عصر ابنه بركيارق مسرحا للفتن والحروب الداخلية طمعا فى العرش من جانب أفراد البيت السلجوقى ، أو فى الوزارة من جانب كبار رجال الدولة ، وكانت النتيجة انتقال الدولة السلجوقية من حالة التماسك والقوة ورفعة الشأن والهيبة من الأعداد والأصدقاء ، الى حالة التفكك والانقسام والضعف ، مما أغرى بها أعداءها فى الداخل والخارج .

وكان الاسماعيلية والصليبيون ألد أعداء السلاجقة فى وقت ضعفها وتفككها وانقسامها . أما الاسماعيلية فكانوا يكمنون داخل الدولة - كما بينا - ويسيطرون على كثير من القلاع الحصينة ، وكان زعيمهم الحسن بن الصباح لا يزال يحتفظ بشئى من القوة ، ويزاول نشاطه .

وأما الصليبيون ، فكانوا يهددون الدولة من جهة الغرب ، ويسيطرون على أجزاء مهمة من بلاد الشام ، وبخاصة المدن الساحلية ، ويسيطرون على بيت المقدس ، مما يشكل خطورة كبيرة على دولة السلاجقة بخاصة ، وعلى العالم الاسلامى بعامه .

وقد حاول السلطان محمد - كما ذكرنا - أن يقضى على الخطر الاسماعيلى . فوفق الى حد كبير فى الحد من نفوذ الاسماعيلية فى ايران ، غير أنه فشل تماما فى صد الخطر الصليبي ، وهكذا أصبحت دولة السلاجقة بعد وفاة السلطان محمد فى عام ٥١١هـ (١١١٧م) تواجه الخطرين الاسماعيلى والصليبي ، وتعانى من التنازع والانقسام بين أفراد البيت

السلجوقي من أجل الظفر بالعرش ، فكان منطقيا أن تنقسم فعلا الى عدد من الأجزاء .

تجدد النزاع حول العرش :

وقد تجدد النزاع حول العرش بعد وفاة السلطان محمد فى عام ٥١١ هـ (١١١٧ م) ، وبدأ شبح الحروب الداخلية بين أفراد البيت السلجوقي يطل برأسه من جديد ، فى وقت كان أعداء السلاجقة يتربصون بهم الدوائر ، فقد تنازع محمود بن السلطان محمد وعمه سنجر حاكم خراسان وما وراء النهر على عرش السلاجقة ، لأن السلطان محمدا أوصى قبيل وفاته بإسناد السلطنة الى ابنه محمود - وكان حينذاك فى الرابعة عشرة من عمره - ووافق الخليفة العباسى المستظهر بالله على ذلك ، فذكر اسم السلطان محمود فى الخطبة فى بغداد (١) ، ولكن عمه سنجر استنكف أن يكون تابعا لابن أخيه ، فأعلن نفسه سلطانا على السلاجقة ، وهكذا وجد سلطانان فى وقت واحد ، وأخذ كل منهما يستعد لقتال الآخر .

وفى عام ٥١٣ هـ (١١١٩ م) تحرك سنجر من خراسان نحو الغرب لقتال ابن أخيه ، كما تحرك محمود من أصفهان جهة الشرق لقتال عمه ، والتقى الطرفان عند « سبزوار » فدارت بينهما معركة فاصلة انتهت بانتصار سنجر وفرار محمود ، فاعترف الخليفة العباسى بسنجر سلطانا على السلاجقة .

ولم يلبث سنجر أن عطف على ابن أخيه محمود ، فصالحه وزوجه ابنته ، وعينه وليا لعهدده ، وكتب بذلك الى سائر الولايات التى تخضع لحكمه - مثل خراسان وغزنه وما وراء النهر - كما كتب الى الخليفة العباسى بهذا التعيين ، ليكون على علم بالأمر ، ورد الى محمود جميع ما أخذه منه من البلاد ما عدا مدينة الرى التى اتخذها قاعدة له ، لمراقبة محمود خشية أن تحدثه نفسه بالخروج عليه مرة أخرى (٢) ، كما أمر سنجر بأن يلقب محمود بلقب السلطان ، وأن يكون لقبه هو السلطان الأعظم .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١١ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٣ هـ .

وهكذا بدا واضحا أن دولة السلاجقة الأصلية فى ايران والعراق ، قد صارت قسمين متميزين قسم فى الشرق على رأسه السلطان الأعظم سنجر ، وقسم فى الغرب على رأسه السلطان محمود ، وأخذت كتب التاريخ منذ ذلك الوقت تذكر أخبار كل قسم على حدة ، وتذكر السلاجقة فى الشرق باسم سلاجقة الشرق أو سلاجقة خراسان ، بينما تذكر السلاجقة فى الغرب باسم سلاجقة الغرب أو سلاجقة العراق .

وانتهى التنازع على عرش السلاجقة بأن صارت دولتهم ممزقة الأوصال ، فلم تعد أجزاء الدولة تخضع جميعها لحكم سلطان واحد - كما كانت الحال فى عصور حكم طغرل الأول وألب أرسلان وملكشاه - بل أصبح كل جزء من أجزاء دولتهم فى ايران والعراق وآسيا الصغرى والشام يكاد يكون مستقلا عن غيره من الأجزاء ، يصرف أموره حكامه ، دون اتصال أو تعاون بين هؤلاء الحكام ، وصارت المنازعات الداخلية تشغل هؤلاء الحكام عن أى هدف آخر .

وظلت دولة السلاجقة بهذه الصورة الى أن سقطت أجزاء الدولة الواحد منها فى اثر الآخر ، ودالت هذه الدولة بعد أن احتلت مكانا مرموقا فى التاريخ حين كانت قوية متماسكة .

3

ولا يجد الدارس لدولة السلاجقة فى ايران والعراق بدا من أن يدرس . ابتداء من عام ٥١٣ هـ (١١١٩ م) كلا من سلاجقة خراسان وسلاجقة العراق على حدة ، لأن كل جزء من أجزاء دولة السلاجقة ، أصبحت أحداثه خاصة به ، غير مرتبطة بما يجرى من أحداث فى الجزء الآخر .

* * *

سلاجقة خراسان

كان سنجر يمثل سلاجقة خراسان أو سلاجقة الشرق (١) ، وكان واليا على خراسان وما وراء النهر منذ عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) قبل أن يصير سلطانا على السلاجقة ، ويتخذ لقب السلطان الأعظم تمييزا له عن سلاجقة العراق الذى كان الواحد منهم يلقب بالسلطان ويعترف بسنجر بالزعامة على السلاجقة ، كما يعترف الخليفة العباسى له كذلك بهذه الزعامة .

وقد استطاع سنجر - قبل توليه زعامة السلاجقة - أن يبسط نفوذه على بلاد أخرى ، وأن يضمها الى ممتلكاته ، فتمكن من فتح ترمذ وطخارستان فى عام ٤٩١ هـ (١١٩٧ م) (١) كما بسط سيطرته على جميع أجزاء إقليم ما وراء النهر فى عام ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) (٢) ، وتمكن فى عام ٥١١ هـ (١١١٧ م) من الانتصار على أرسلان شاه الغزنوى ، وفتح غزنه .

وقد ازدادت قوته بعد توليه عرش السلطنة وزعامة السلاجقة بعد أن هزم ابن أخيه ، فتمكن من بسط نفوذه على أكثر أجزاء ايران والعراق ، وصار اسمه يذكر فى الخطبة على منابر ما وراء النهر وخراسان وطبرستان وكرمان وسجستان واصفهان ، وهمدان والرى وأذربيجان وأرمينية وأرانية والعراقين والموصل وديار بكر وديار ربيعة والشام والحرمين ، كما أصبح اسمه ينقش على السكة فى هذه الأقاليم جميعها بوصفه زعيما للسلاجقة .

غير أن دولة السلاجقة كانت ممزقة برغم اعتراف أجزائها المختلفة بزعامة سنجر ، فكان كل جزء من أجزائها يفلئ بالأحداث ، وتتفجر فيه الحروب ، وكان من أبرز الأحداث التى وقعت فى المنطقة الشرقية من ايران

(١) أجمعت كتب التاريخ على هذه التسمية وعلى تقسيم دولة السلاجقة بهذه الصورة .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩١ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ .

– حيث يوجد زعيم السلاجقة – ظهور دولتين فتييتين جديدتين هما : الدولة القره خطائية ، والدولة الخوارزمية ، لأن كل دولة منهما أثرت فى سير الأحداث فى دولة سلاجقة خراسان بخاصة وفى جميع أجزاء الدولة السلجوقية بعامة فى أثناء القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) مما يجعل من الضرورى التعريف بهاتين الدولتين ، حتى تفهم الأحداث فهما صحيحا .

* * *

الدولة القره خطائية

كانت القبائل القره خطائية مجموعة من القبائل التركية التى سكنت شمالى شرقى ايران فى العصر السلجوقى ، واستطاعت تثبيت أقدامها فى هذه المنطقة ، وازدادت قوتها حتى تمكنت من تأسيس دولة تحمل اسمها فى عام ٥١٨ هـ (١١٢٤ م) ، واتخذت مدينة « بلاساغون » عاصمة لها ، وكان كل ملك من ملوكها يطلق عليه لقب « گورخان » (١) .

وقد اتسع نفوذ هذه الدولة فى المناطق المجاورة لها ، وخضعت لنفوذها قبائل « القيرقيز » أقوى القبائل المقيمة فى تلك المنطقة ، وظل نفوذها فى اتساع حتى بلغ « كاشغر » و « ختن » ثم استطاع والى « كاشغر » أن يوقف تقدمهم .

غير أن القبائل القره خطائية كانت لا تكف عن الاغارة على البلاد الاسلامية القريبة من مساكنها ، وقد كثرت غاراتها فى عام ٥٣١ هـ (١١٣٦ م) ، وأمعنت فى السلب والنهب والتدمير والقتل ، حتى أصيب الناس بذعر شديد ، فاستنجدوا بالسلطان سنجر ، لوضع حد لطغيانها ، والقضاء على الدولة التى أسستها .

ولم يجد سنجر بدا من التحرك لقتال القره خطائية ، فأعد جيشا كبير العدد وافر العدة . حتى يتمكن من القضاء على جميع القبائل التركية المتمردة المقيمة فى بلاد ما وراء النهر ، ووضع حد لاعتداءاتها المتكررة

(١) الراوندى : راحة الصدور ، حواشى ص ١٧٢ : اقبال : تاريخ ايران ، ص ١٧٦ .

التي شكا منها عماله في تلك النواحي ، وسار على رأس ذلك الجيش الى اقليم ما وراء النهر في ٥٢٥ هـ (١١٤٠ م) (١) ، فحافت القبائل التركية المختلفة الساكنة في أنحاء هذا الاقليم ، وبادر كثير منها باظهار الولاء للسلطان ، وكان في مقدمة هذه القبائل « القيرلق » و « القره خطائية » ، فقد اعتذرت عن اعتداءاتها السابقة ، وتعهدت بالتزام الطاعة والولاء للسلطان ، غير أنه رفض تعهدها بتحريض من عماله ، وصمم على قتالها والقضاء عليها ، واشتبك معها في معركة عنيفة عند « قطوان » - بالقرب من سمرقند - في عام ٥٣٦ هـ (١١٤١ م) .

وقد استمات القيرلق والقره خطائية في القتال حتى تمكنت هذه القبائل من هزيمة سنجر هزيمة ذكراء ، ووقعت زوجته أسيرة ، بينما لاذ هو بالفرار (٢) .

وكانت هزيمة سنجر في موقعة « قطوان » أول هزيمة يصاب بها منذ امساكه بزمام الأمور في خراسان وما وراء النهر ، فكانت حدا فاصلا بين مرحلتين من حكمه ؛ مرحلة القوة والظفر وغلبة النفوذ ، ومرحلة الضعف والهزيمة والانهيار ، كما كانت ذات نتائج وآثار خطيرة بالنسبة لتاريخ السلاجقة في خراسان بخاصة ، وفي ايران والعراق بعامة .

وقد قوى أمر القره خطائية - بعد انتصارهم على سنجر ، فأخذوا يسيطرون نفوذهم ويثبتونه في اقليم ما وراء النهر ، ووصل نفوذهم الى كاشغر ، كما سيطروا على سمرقند وبخارى ، وتعهدهم الخانيون (٣) بدفع الخراج لهم ، فصاروا بذلك خطرا عظيما يهدد سنجر وسلاجقة خراسان تهديدا مباشرا (٤) .

كما جرأت هزيمة سنجر على أيدي القره خطائية حكام الدولة الخوارزمية المجاورة لسلاجقة خراسان ، فطمعوا في جزء من ممتلكات السلاجقة في

(١) البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٦ هـ .

(٣) المقصود بالخانيين هنا الخانيون من آل آفراسياب .

(٤) ظلت الدولة القره خطائية قائمة الى عام ٦٠٩ هـ (١٢٠٢ م) الى أن تمكن السلطان علاء الدين من مد الخوارزمي من القضاء عليها .

المنطقة ، وأظهروا التمرد والمخالفة لسنجر ، فقامت بين الطرفين حروب ،
كان لها أثرها فى زلزلة أركان دولة سلاجقة خراسان ، كما سيأتى .

* * *

الدولة الخوارزمية

قامت الدولة الخوارزمية فى عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) ، وقد أسسها
قطب الدين محمد فى هذا العام حين أطلق على نفسه لقب خوارزم شاه
- أى ملك خوارزم - وأعلن قيامها ، وأصبحت تذكر منذ ذلك الوقت باسم
الدولة الخوارزمية ، ولو أن ملوكها تظاهروا فى البداية بالطاعة والولاء
للسلاجقة وعدوا أنفسهم معينين من قبلهم (١) .

وقد أسند السلطان سنجر ولاية خوارزم الى « علاء الدين آتسز »
بعد وفاة أبيه قطب الدين محمد ، فظل « آتسز » على وفاق مع سنجر فلم
يفكر فى التمرد أو الخروج عليه ، فاطمأن سنجر اليه ، حتى انه اصطحبه
معه فى حملته ضد بهرامشاه الغزنوى فى عام ٥٢٩ هـ (١١٢٤ م) (٢) .

غير أن آتسز اغتر بقوته واستقرار نفوذه ، فحاول الاستقلال بدولته
فى خوارزم ، والابتعاد عن كل مظاهر التبعية للدولة السلجوقية فلم يكد
يرجع من غزته ، حتى ثار على السلطان سنجر فى عام ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م)
وأخذ يهاجم الهضاب الواقعة فى أسفل نهر جيحون ، فتمكن من انتزاع
هذه المنطقة من قبضة السلاجقة ، وضمها الى منطقة نفوذه ، وهكذا بدأ
نزاع جديد بين السلاجقة والخوارزميين .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٩٠ هـ .

وقد كان قطب الدين محمد ابناً لعبد تركى اسمه « آنوشتكين »
كان أحد أمراء السلاجقة فى غرجستان قد اشتراه ضمن جماعة من
المماليك وقد أظهر « آنوشتكين » من الكفاءة واللياقة ، ما فتح أمامه
باب الترقى فى عهد السلطان ملكشاه ، فعينه والياً على خوارزم فظل
يتمتع بهذا المنصب حتى توفى فى عام ٤٩٠ هـ فخلفه ابنه قطب الدين
محمد فاتخذ لقب ملك خوارزم ، وأعلن قيام الدولة الخوارزمية مع
التظاهر بالطاعة والولاء للسلاجقة فى بداية الأمر .

(٢) المرجع السابق ، فى حوادث سنة ٥٢٩ هـ .

ولم يجد سنجر بدا من السير لقتال آتسن وتأديبه والزامه الطاعة والولاء له ، فسار على رأس جيش كبير من بلخ الى خوارزم فى شهر المحرم من عام ٥٣٣هـ (١١٣٨ م) وتقدم آتسن للقاءه ، فتقابل الطرفان بالقرب من « هزاراسب » ودارت بينهما معركة حامية الوطيس انتصر فيها السلطان سنجر انتصارا باهرا ، بينما ولى آتسن الأدبار يجر جر أذيال الهزيمة النكراء التى منى بها ، ووقع ابنه أسيرا فى يد سنجر ، وأسند سنجر ولاية خوارزم الى ابن أخيه هو - غياث الدين سليمان بن محمد السلجوقى (١) غير أن آتسن تمكن من العودة الى خوارزم ، واستطاع التغلب على سليمان السلجوقى ، وطرده من خوارزم ، واستعاد حكمه وسيطرته على المنطقة ، ولكنه خشى - فى الوقت نفسه - أن يتدرك السلطان سنجر لقتاله من جديد فحاول استرضاءه بالحسنى ، فأرسل اليه فى شهر ذى الحجة من عام ٥٣٥هـ (١١٤٠ م) يعلن ولاءه له ، ويتعهد باطاعة أمره ، وعدم الخروج عليه مرة أخرى ، وخدع سنجر بما أبداه « آتسن » فعفا عنه ، وسمح له بالاستمرار فى حكم خوارزم تحت رعاية السلاجقة ولو أن آتسن صار فى الحقيقة حاكما لاسلطان لأحد عليه ، وأصبح مستقلا مستقلا تاما على السلاجقة .

ثم شجعت الهزيمة التى منى بها سنجر فى قطوان فى عام ٥٣٦هـ (١١٤١ م) آتسن على معاودته التمرد والعصيان ، ومحاولة الاستفادة من ضعف سنجر فأخذ يغير على المناطق الشرقية - الواقعة بين كاشغر وبخارى - وتمكن من انتزاعهما من يد سنجر ، فتجددت بذلك الحروب بين الطرفين ، وأمر آتسن بحذف اسم السلطان سنجر من الخطبة ، وبأن تقرأ الخطبة باسمه هو ، وأرسل جيشا الى منطقة بيهق ، فانتشر هذا الجيش باقليم خراسان ينهب ويرتكب أعمالا شنيعة ، واستطاع آتسن الاستيلاء على بيهق وعلى مدن كثيرة من خراسان (٢) .

ولم يجد السلطان سنجر بدا من الاستعداد لقتال آتسن مرة أخرى ، فأعد جيشا كبيرا ، وسار على رأسه فى عام ٥٣٨هـ (١١٤٣ م) (٣) مصمما

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٣هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٦هـ ؛ الراوندى : راحة الصدور ،

ص ١٧٤ ؛ البندارى : مختصر تواريخ السلجوق ، ص ٢٨٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٨هـ .

على غزو خوارزم والقضاء على آتسز الذى تحصن فى هذه المدينة ، فحاصر سنجر خوارزم حصارا شديدا ، وضيق الخناق على آتسز ، خير أنه اعتذر للسلطان (١) ، وأبدى ندمه على العصيان « وتعهّد بالتزام الولاء والطاعة التامة للسلطان ، والتمس العفو منه ، فقبل سنجر عذره وعهده ، وفك الحصار عن المدينة ، وعاد بجيشه الى مرو ، وهكذا نجا آتسز من الهلاك ، ونجت الدولة الخوارزمية من السقوط والفناء .

والعجيب أن آتسز لم يكف عن التمرد والثورة على سنجر بعد ذلك ، والعجيب كذلك أن سنجر كان يحارب آتسز كلما ظهر منه تمرد ، وكانت كفته راجحة غالبا ، ولكنه كان برغم تفوقه على آتسز يخدع فى كل مرة بما يظهره آتسز من الندم ، وبما يتظاهر به من حب السلطان ، والميل الى طاعته ، فكان يعفو عنه دائما ، ويقبل اعتذاره ويقره على حكم خوارزم ، حتى اشتهر آتسز بذكائه ودهائه ، وعرف سنجر بسذاجة ، وقصر نظره ، فتكررت أخطاؤه ، وكانت سببا فى القضاء عليه وعلى دولته فى النهاية .

وكانت الحرب الأخيرة بين سنجر وآتسز فى عام ٥٤٢ هـ (١١٤٨م) (٢) ، واستقر بعدها حكم آتسز وخلفائه على خوارزم ، كما رسخت قواعد الدولة الخوارزمية وأخذت تزداد قوة بمرور الأعوام ، وتساهم فى توجيه سير الأحداث فى ايران والعراق ، بينما أخذت دولة سلاجقة خراسان تسير بخطى واسعة نحو الانهيار والزوال ، وتبعتها دولة سلاجقة العراق ، فسقطت كذلك قبل نهاية القرن السادس الهجرى ، وواجه العالم الاسلامى بعدها غارات المغول على بلاد المسلمين ، وهى الغارات التى كان من آثارها اسقاط الخلافة العباسية السنية كما سيأتى .

سلاجقة العراق

كانت الأحوال فى أجزاء الدولة السلجوقية المختلفة مضطربة غير مستقرة ، فكثررت المنازعات والحروب فى دولة سلاجقة العراق ، وانتشرت الفتن حتى كان السلطان سنجر يضطر أحيانا الى التدخل لقمع الفتن ، واقرار الأوضاع ، برغم انشغاله بقتال القره خطائية الخوارزميين .

(١) كان آتسز موصوفا بالدهاء بينما كان سنجر معروفا بالسذاجة وسرعة التصديق والتأثر .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٣ هـ .

وكان كل فرد من أفراد البيت السلجوقي يعد نفسه مستقلا في الجزء الذي يخضع لنفوذه ، ويحاول توسيع منطقة هذا النفوذ ما استطاع الى ذلك سبيلا ، مما أدى الى كثرة المنازعات ، ونشوب الحروب ، وتعدد ميادينها .

وكان السلطان محمود سلطانا على دولة سلاجقة العراق التي يخضع لنفوذها الجزء الغربي من ايران والعراق ، بعد أن سمح السلطان سنجر لابن أخيه محمود - بعد انتصاره عليه - بأن يظل حاكما على هذا الجزء من دولة السلاجقة ، وأن يحتفظ بلقب السلطان - كما ذكرنا - غير أنه لم يسلم من منافسة اخوته له على عرش سلاجقة العراق ، ففي عام ٥١٤هـ (١١٢٠م) (١) ثار عليه أخوه مسعود حاكم الموصل وأذربيجان ووقعت الحرب بين الأخوين ، وانتهت بانهزام مسعود وأعوانه ، واضطراب الحالة في أذربيجان وما جاورها .

وأدى اضطراب الحالة في هذه المنطقة الى تمرد حكام جورجيا ، الذين كانوا من النصاري ، فأخذوا يغيرون على بلاد المسلمين منذ عام ٥١٣هـ (١١١٩م) ، حين كان السلطان محمود مشغولا بقتال عمه سنجر ، ولم يستطع طغزل أخو محمود أن يقف في وجههم ، فأمعنوا في بلاد المسلمين نهبا وتخريبا وقتلا ، وتقدموا حتى بلغوا مدينة تفليس فحاصروها حصارا شديدا ، حتى اضطرت الى التسليم في عام ٥١٤هـ (١١٢٠م) بعد بضعة شهور من حصارها .

وزادت الحرب بين محمود وأخيه مسعود الوضع في تلك المنطقة اضطرابا ، وكان السلطان محمود يقيم في همذان ، بعد انتصاره على أخيه ، فشكا سكان أذربيجان اليه من كثرة غارات حكام جورجيا عليهم ، وطلبوا منه أن يحميهم من هذه الغارات ، فأعد جيشا كبيرا ، وقاده الى أذربيجان في عام ٥١٦هـ (١١٢٢م) ، فلما وصل الى تبريز تحصن فيها ، وانضم الى جيشه متطوعون من أهل شروان ، فسار لقتال المغيرين ، وصمد لهم ، وتمكن من الانتصار عليهم في عام ٥١٧هـ (١١٢٣م) (٢) ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٤هـ وكانت الحرب في شهر ربيع الأول من هذا العام .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥١٤هـ وحوادث سنة ٥١٧هـ .

وطردهم من بلاد المسلمين ، ثم أقام السلطان محمود مدة في « شروان »
للاطمئنان الى استقرار الحالة في المنطقة ، قبل أن يعود الى مقره في
همدان .

غير أن الأحوال ظلت غير مستقرة في أجزاء الدولة السلجوقية
المختلفة ، لكثرة الفتن والمنازعات بين الحكام ، والطامعين في الحكم ، أو
في توسيع مناطق نفوذهم ، كما كانت الأحوال مضطربة في أنحاء العالم
الاسلامي كله شرقا وغربا ، فكانت مصر وفلسطين وبعض أجزاء سورية
الساحلية في حالة من الاضطراب الشديد تحت حكم الفاطميين ، نتيجة
لضعف الخليفة الفاطمي ، وكثرة المنازعات بين الوزراء وقواد الجيش
من أجل الظفر بالنفوذ والجاه

كما كان حكام السلاجقة في الشام وفي بلاد الروم يتنازعون فيما بينهم ،
بغية الظفر بالسلطان والنفوذ ، وتوسيع دائرة هذا النفوذ .

ولم يكن الخليفة العباسي في بغداد بأحسن حالا من الخليفة الفاطمي
في القاهرة ، مما جعل العالم الاسلامي - في كثير من أجزائه - عرضة
لأطماع الطامعين من المسلمين وغير المسلمين ، ومكن الصليبيين - كما
ذكرنا - من شق طريقهم الى بيت المقدس ، وتثبيت أقدامهم في كثير من
أجزاء الشام وآسيا الصغرى ، وأغراهم انقسام دولة السلاجقة وتفرق
المسلمين ، وانتشار الفتن والدروب الداخلية في بلادهم ، فحاولوا توسيع
مناطق نفوذهم ، وتمكنوا من السيطرة على مدينة صور في عام ٥١٧هـ ،
(١١٢٣م) (١) وكانت حصنا منيعا زادهم قوة على قوتهم ، وجعلهم شوكة
تديدة الوحز في جنب المسلمين .

وهكذا كانت الأوضاع في المناطق القريبة من ممتلكات سلاجقة العراق
مضطربة أشد الاضطراب ، وزادها سوءا انقطاع الأمطار في العراق - في
العام نفسه - مما أدى الى قلة الأقوات ، وغلاء الأسعار في جميع أنحاء
المنطقة ، وظلت الحالة الاقتصادية سيئة فيها الى عام ٥١٩هـ (١١٢٤م) .

وقد شجع تفرق السلاجقة وتنازعهم الاسماعيلية في ايران والشام ،

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥١٧هـ .

فبلغت قوتهم فى الشام درجة مكنتهم من السيطرة على قلعة بانياس فى
ذى القعدة من عام ٥٢٠هـ (١١٢٥م) (١) ، كما قتلوا قسيم الدولة آقسنقر
البرسقى صاحب الموصل .

ومما زاد الطين بلة فى دولة سلاجقة العراق حدوث خلاف بين
السلاجقة والخلافة العباسية ، فقد حدث فى العام المذكور خلاف شديد بين
الخليفة العباسى المسترشد بالله والسلطان السلجوقى محمود ، وحدثت
مناوشات كثيرة بين الطرفين ، فسار السلطان محمود على رأس جيش
كبير لفتح بغداد وحاصرها ، فلم يجد الخليفة العباسى بدا من مصالحته .
فدخل السلطان محمود بغداد ، وأقام فيها الى شهر ربيع الثانى من عام
٥٢١هـ (١١٢٦م) ثم رحل بعد ذلك الى همدان (٢) .

كما كان الوزراء فى نزاع دائم ، فكانوا يدبرون المؤامرات لبعضهم
البعض ، وكثيرا ما كانوا يحرضون السلاطين والأمراء لقتال بعضهم
البعض ، مما زاد الحالة اضطرابا وزاد نيران الفتن اشتعالا .

النزاع حول عرش سلاجقة العراق :

ووصل الاضطراب فى دولة سلاجقة العراق منتهاه حين توفى
السلطان محمود فى شوال من عام ٥٢٥هـ (١١٣٠م) ، فقد ظهر النزاع من
جديد حول عرش السلاجقة فى دولتهم بالعراق وتنازع عليه داود بن محمود
وعمه مسعود ، وهكذا اشتعلت نار الحرب من جديد بين أفراد البيت
السلجوقى ، واقتتل الطرفان فى العام المذكور ثم اصطلحا ، واتفقا على أن
يتولى مسعود عرش سلاجقة العراق ، غير أن منافسا جديدا على العرش
ظهر بعد الصلح بقليل ، ألا وهو سلجوقشاه أخو مسعود وعم داود ،
فتصدى له مسعود وقاتله ، ثم تم الصلح بين الأخوين على أن يصير مسعود
سلطانا على سلاجقة العراق ، ويصبح سلجوقشاه وليا لعهد ، وكان ذلك
فى عام ٥٢٦هـ (١٢١١م) (٣) ، وأقر الخليفة العباسى المسترشد بالله
هذا الوضع .

-
- (١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث السنوات ٥١٨هـ و ٥١٩هـ و ٥٢٠هـ .
(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٢٠هـ : الراوندى : راحة الصدور ،
ص ٢٠٥ ، البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٥٢٦ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٦هـ .

غير أن الصلح لم يضع حداً للتنازع على عرش سلاجقة العراق ، فشارت المنازعات بين أفراد البيت السلجوقي من جديد ، وانتشرت الفتن في إيران والعراق ، وكثرت الحروب الداخلية ، فتدخل السلطان سنجر بوصفه زعيماً للسلاجقة لوضع حد لحالة الفوضى والاضطراب التي سادت دولة سلاجقة العراق ، واشتبك معه في قتال بالقرب من « دينور » في عام ٥٢٦ هـ (١١٣١ م) وتمكن من انزال الهزيمة به ، ففر مسعود ، بينما أمر سنجر بإسناد عرش سلطنة السلاجقة في العراق إلى طغرل أخى مسعود (١) ، فخطب له في جميع البلاد وسمى السلطان طغرل الثاني .

ولم يرق داود بن محمود ما حدث من تغيير ، فرفع راية العصيان ، ثم توجه إلى همذان ، فخرج إليه عمه طغرل فانهزم داود ولجأ إلى بغداد (٢) .

أما مسعود ، فإنه رفض التسليم بالأمر الواقع ، وتوجه إلى همذان – أيضاً – لمحاربة أخيه طغرل ، وكان ذلك في عام ٥٢٧ هـ (١١٣٢ م) وتمكن من الانتصار عليه ، والاستيلاء على المدينة ، فأعلن نفسه من جديد سلطاناً على سلاجقة العراق (٣) .

وتكرر القتال بين مسعود وأخيه طغرل ، وتبادلا النصر والهزيمة (٤) ، وظل مسعود يواصل القتال من أجل الظفر بعرش سلاجقة العراق ، حتى ظفر به في النهاية دون منازع .

النزاع بين السلاجقة والخلافة العباسية :

لم تخمد الفتن بتولى مسعود عرش سلاجقة العراق ، لأن الخليفة العباسي المسترشد بالله لم يسترح إلى رجحان كفة مسعود ، وامسكه بزمam الأمور ، وخوف الأمراء منه ، وبخاصة بعد استيلائه على همذان (٥) ، فلجأ الأمراء إلى الخليفة العباسي في بغداد ، مما شجعه على الاستعداد لقتال

(١) البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٥٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٦ هـ .

(٣) الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٠٨ – ٢٠٩ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٨ هـ .

(٥) كان استيلاء مسعود على همذان بعد وفاة أخيه طغرل في عام ٥٢٩ هـ .

مسعود ، فأمر بحذف اسم مسعود من الخطبة في بغداد وصمم على السير لقتاله ، وأخذ الأمراء يحسنون له الرحيل والخروج لقتال مسعود ، ويسهلون عليه الأمر ، ويهونون له من شأن مسعود حتى خرج من بغداد في عام ٥٢٩ هـ (١١٢٤ م) ، واشتبك في قتال مع جيش مسعود ، ولكنه هزم ، ووقع أسيراً هو وعدد كبير من أصحابه ، وغنم جيش مسعود غنائم طائلة ، وأنزل الخليفة في خيمة ، بينما ألقى أكابر رجاله في السجن ، وأرسل مسعود واليا من قبله على بغداد ، فانتشر خبر هزيمة الخليفة وأسرته وسجن رجاله (١) ، فثار الناس في بغداد وانتشرت الفتنة في أرجائها ، وكثرت المناوشات بين أنصار مسعود والعامّة في بغداد ، فانتهز الاسماعيلية هذه الفرصة ، وهجموا على خيمة الخليفة - التي لم تكن عليها حراسة قوية - وقتلوه ، ومثلوا به أبشع تمثيل ، فانتشر الحزن في بغداد ، وبويع ابنه الراشد بالله بالخلافة ، وأيده حاكم بغداد من قبل مسعود (٢) ، ولكن الناس ثاروا على مسعود ، وحملوه دم الخليفة المسترشد بالله ، وأصبح على الخليفة الجديد الراشد بالله أن يطالب بدم أبيه ، فبقيت العداوة بين السلاجقة والخلافة العباسية .

وقد صار السلطان مسعود بعد قتل الخليفة المسترشد بالله قويا مرهوب الجانب ، فحاول التخلص من جميع أعدائه ، وأخذ يبسط سلطانه على العراق وسائر الأقاليم الداخلة في حدود دولة سلاجقة العراق ، غير أن الخليفة الراشد بالله لم يلبث أن جاهره بالعداء ، وسواء أكان سبب هذا العداء رغبة الراشد بالله في الأخذ بثأر أبيه (٣) أم كان سببه مطالبة مسعود للراشد بالله بضريبة كبيرة (٤) ، فان الحرب قامت فعلا بين الطرفين في عام ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) واجتمع كثير من الأمراء وحكام الأقاليم حول

(١) البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٧٦ - ١٧٧ ؛ الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٢٧ .

(٢) الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٢٨ ؛ البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ١٧٤ - ١٨٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٢٩ هـ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

(٣) الراوندي : راحة الصدور ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ ؛ صدر الدين الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٠٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٣٠ هـ .

الخليفة العباسي ، فأمر بحذف اسم مسعود من الخطبة ، واستقر رأيه
احلال ابن أخيه داود محله ، فسار مسعود على رأس جيش كبير الى بغداد
فى العام المذكور ، وحصارها حصاراً شديداً ، استمر نيفا وخمسين يوماً ،
حتى دب اليأس الى قلوب أنصار الخليفة ففرقوا ، واضطر الخليفة نفسه
الى الفرار الى الموصل ، فدخل مسعود بغداد ، وعزل الخليفة الراشد بالله
وعين مكانه عمه المقتفى لأمر الله ، وأخذ البيعة له ، وحدد له مخصصاته ،
ووضع يده على زمام الأمور فى دار الخلافة .

غير أن النزاع بين الخليفة الراشد بالله العباسي والسلطان مسعود
السلجوقي ظل قائماً ، فحدث اقتتال بين الطرفين أكثر من مرة ، وكانت كفة
السلطان مسعود راجحة دائماً ، فانتهاز الاسماعيلية فرصة ضعف الراشد
بالله ، وهجموا عليه وقتلوه ، كما قتلوا أباه المسترشد بالله من قبل .

وهكذا ساءت الصلات بين العباسيين والسلجقة فبعد أن كان السلجقة
يدينون بالطاعة والولاء للخلافة العباسية ، ويعدون أنفسهم جنود الخلافة
المخلصين ، تجرأوا عليها ، واشتبكوا فى قتال معها ، وتسببوا فى قتل
الخليفة المسترشد بالله وابنه الخليفة الراشد بالله بواسطة الاسماعيلية ،
وصار السلطان السلجوقي هو الذى يختار الخليفة العباسي ، وكان هذا
قلباً للأوضاع زاد الدولة السلجوقية بعامة ، ودولة سلجقة العراق بخاصة
ضعفاً وانقساماً ، فانتشرت الفتن فى أرجائها ، ونفر الناس منها ، فكان هذا
أيذاً بقرب انهيارها وزوالها .

حقيقة أن الكلمة العليا فى العراق صارت للسلطان مسعود بعد قتل
الراشد بالله العباسي ، ولكن الحالة ظلت مضطربة فواصلت نيران الفتن
اشتعالها ، فأصبحت الدولة ميداناً للحروب الداخلية والمنازعات المحلية (١) ،
وقضى السلطان مسعود الجزء الأكبر من مدة حكمه فى اخماد الفتن (٢) ،
ومحاولة القضاء على أعدائه والمتمردين عليه ، حتى خلا له الجو ، وصار
مرهوب الجانب فى المناطق الخاضعة لحكم سلجقة العراق الى أن توفى

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٢٣١ ؛ البندارى : مختصر تواريخ
آل سلجوق ، ص ١٨٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٠هـ وسنة ٥٤٢هـ . .

فى أول رجب من عام ٥٤٧هـ (١١٥٢م) فأصاب الوهن دولة سلاجقة العراق ، وعادت من جديد - ميدانا للفتن والحروب الداخلية ، وضعف السلاطين حتى صاروا ألعوبة فى أيدي قواد الجيش وحكام الأقاليم - كما سيأتى - وظل الوضع على هذه الصورة حتى غربت شمس هذه الدولة .

وهكذا يلاحظ الدارس لتاريخ السلاجقة أن دولتهم أصبحت منذ أواخر القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى ، ميدانا للحروب الداخلية ، من أجل تحقيق المصالح الخاصة على حساب المصلحة العامة ، كما كانت جميع الظروف المحيطة بدولتهم ، توجب عليهم أن يتحدوا ، فقد كان الاسماعيلية يسيطرون على قلاع حصينة داخل الدولة ، وكان الصليبيون قد نجحوا فى شق طريقهم الى بيت المقدس والاستيلاء عليه ، وانشاء امارات قوية على الحدود الغربية للسلاجقة ، غير أن السلاجقة تفرقوا بدل أن يتحدوا ، وانشغلوا بالحروب الداخلية فيما بينهم بدل أن يوحدوا صفوفهم لقتال أعدائهم فى الداخل والخارج ، فكان أمرا منطقيا أن تتجزأ دولتهم وتضعف ثم تنهار وتتساقط أجزاءؤها جزءا فى اثر جزء . ولقد صدق ابن العبرى حين صفهم فى هذه الحالة بقوله : « فكأنما سسل طين السلاجقة من جفن الجفاء ، وجبلت جبلتهم على الاغفال والاغفاء ، فالرحم عندهم مقطوعة ، والعزة فى خدمتهم بالذل مشفوعة ، والاغترار بهم غرر ، وصفوهم كدر ، يقسمون ويحنثون ، ويبرمون وينكثون » (١) .

فلننظر كيف انهارت أجزاء دولة السلاجقة بعد تفسخها ، ولنبدأ برؤية انهيار الجزء الشرقى منها ، لأنه كان أسرعها الى الانهيار والزوال .

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٤٣ .

الفصل التاسع

انهيار دولة سلاجقة خراسان

لعل من المصادفات العجيبة أن أول انهيار فى دولة السلاجقة حدث فى خراسان وما وراء النهر كما قامت دولتهم فى البداية فى هذه المنطقة ، وهذا أمر فيه عبرة لمن يعتبر ، وتلك سنة الله فى خلقه ، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فلقد اتحدت صفوف السلاجقة فى بداية أمرهم ، فتمكنوا من إعلان قيام دولة لهم فى عام ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) فى خراسان ، واتخذوا مدينة نيسابور قاعدة لهم ، ثم تفرق شمل السلاجقة واختلفوا فى نهاية أمرهم ، فانهارت دولتهم أول ما انهارت فى خراسان .

وكان سنجر مقيما فى هذه المنطقة ، وكان زعيم السلاجقة الملقب بالسلطان الأعظم ، غير أنه كان حين وفاة السلطان مسعود فى عام ٥٤٧هـ (١١٥٢م) شيخا هراما يقترب من السبعين من عمره ، ويحمل على عاتقيه عبء هذه السنوات من عمره ، وهى سنوات حفلت بالكثير من الحروب التى هدت قوته ، وبخاصة بعد هزيمته من القره خنائية فى قطوان فى عام ٥٣٦هـ (١١٤١م) - كما ذكرنا - وهى حروب اضطر الى خوض بعضها دفاعا عن حدود دولته ، وصونا لنفوذه ، وخوفا على هيبة السلاجقة من التبدد والضياع .

حقيقة ان سنجر وفق فى أكثر الحروب التى خاض غمارها غير أن كثرة هذه الحروب ، وتعدد ميادينها قد هدت قوته وفل شوكتة ، وأفقده فى نهاية الأمر السيطرة على جزء من ممتلكاته ، فاندسر سلطانه عن كثير من أجزاء ما وراء النهر ، وكانت هزيمته من القره خنائية سببا فى تجرؤ حكام

الأقاليم عليه ، وضياح سلطانه نهائيا فى اقليم ما وراء النهر فبدأ نجمه فى الأفول .

وكان من نتيجة ذلك كله أن دولة السلاجقة فى خراسان بزعامة سنجر فقدت السيطرة على أطرافها ، فكثرت قيام الدول والامارات المستقلة حولها ، وكان سنجر يضطر بين حين وآخر الى الاشتباك فى قتال ضد بعض هذه الدول (١) - كما ذكرنا - غير أنه عجز أخيرا عن مواجهة هجوم الغز فى عام ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) وهو أمر يستحق الوقوف عنده ودراسة نتائجه .

★ ★ ★

فتنة الغز :

كانت الغز من القبائل التركية المسلمة التى تسكن فى اقليم ما وراء النهر ، فلما استولت القبائل القره خطائية على هذا الاقليم هاجرت طوائف الغز ، وسكنت بالقرب من بلخ ، فأراد الأمير قماج حاكم بلخ ابعاد الغز عن هذه المنطقة ، ولكنهم أرضوه بالمال والهدايا فرضى عنهم وصادقهم ، وتركهم يقيمون بجواره دون أن يتعرض لهم بأذى ، فظلوا سنوات بجواره ، وعرفوا باستقامتهم ، واتباعهم لمبادئ الاسلام القويمية ، وتمسكهم باقامة الصلاة وايتاء الزكاة .

وفى عام ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) لاحظ قماج حاكم بلخ كثرة عدد الغز وازدياد قوتهم ، فتوجس فى نفسه خيفة منهم ، وطلب منهم الانتقال من جواره ، والبحث عن مقام آخر لهم ، غير أنهم رفضوا طلبه ، فصمم قماج على محاربتهم واجلائهم بالقوة ، فوجدوا صفوفهم ، واستعدوا للقاءه ،

(١) من أهم الدول التى قامت فى عصر سنجر الدولة القره خطائية والدولة الخوارزمية وقد ذكرنا شيئا عن كل منهما ، ثم الدولة الغورية وكانت تسيطر على جبال الغور ومدينة فيروزكوه بالقرب من غزنة وامتد نفوذها الى هراة وقد اشتبك سنجر فى قتال مع علاء الدين حسين الغورى لما حاصر مدينة بلخ وانتصر سنجر عليه وأسره ثم أطلق سراحه فارتفع شأن الدولة الغورية بعد ذلك وسيطرت على غزنة ثم سيطرت على أكثر أجزاء شبه القارة الهندية وصارت من الدول القوية المساهمة فى توجيه سير الأحداث فى ايران والهند فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى .

بعد أن فشلوا فى استرضائه ، ووقعت الحرب بينهم وبينه ، فتمكنوا من الانتصار عليه وغنموا غنائم طائلة ، فشكاهم قماج الى السلطان سنجر .

وحذر السلطان من خطرهم وكثرة عددهم ، وقوة بأسهم ، وبين له ما ارتكبه من جرائم النهب والسلب والقتل ، واسترقاق النساء والأطفال ، وتخريب المدارس ، وحرق الكتب وقتل الفقهاء .

وكان السلطان سنجر حينذاك مقيما فى مرو ، فلما أحاطه قماج علما بحال الغز ، راسلهم يتهدهم ، وأمرهم بمفارقة بلاده فاعتذروا وبذلوا بذلا كثيرا ليكف عنهم ، ويتركهم فى مراعيهم ، فلم يجبهم الى ذلك ، وجمع عساكره من أطراف البلاد ، وسار اليهم على رأس جيش كبير ، فقاتل الغز ببسالة منقطعة النظير ، فتمكنوا من انزال هزيمة نكراء بجيش السلطان سنجر ، وقتلوا عددا كبيرا من أفراد ، وكان قماج نفسه من بين القتلى ، ووقع السلطان سنجر فى النهاية أسيرا فى أيدي الغز ، وأسر معه جماعة من أمراء جيشه ، فقتل الغز الأمراء ، بينما بقى سنجر أسيرا لديهم الى عام ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) .

وكانت هذه الهزيمة أعظم كارثة حلت بالسلطان سنجر زعيم السلاجقة ، وبدولة سلاجقة خراسان بخاصة ثم بدولة السلاجقة كلها بعامة ، فقد استولى الغز بعد انتصارهم على سنجر على أكثر البلاد ، وأمعنوا فيها نهباً وتخريباً وقتلاً ، فخربت مدن كثيرة كانت عامرة مزدهرة مثل مرو ونيسابور ، وقد وصف ابن الأثير فى تاريخه ما فعله الغز بمدينة نيسابور فى قوله :

« فركب الغز ودخلوا نيسابور ونهبوها نهباً مجحفاً ، وجعلوها قاعاً صافصفاً ، وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها ، وقتلوا القضاة والعلماء فى البلاد كلها » (١) .

ولما وصلت فلول جيش السلطان سنجر الى نيسابور ، انسحب الغز منها بعد نهبها وتخريبها ، فاجتمع أمراء السلاجقة وأحضروا سليماً نشأه ابن السلطان محمود ونصبوه سلطاناً على سلاجقة خراسان ، والتفوا

((١)) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٨ هـ .

حوله ، وخطبوا له بالسلطنة فى مختلف البلاد ، وسار جماعة من العسكر السلطانى الى طائفة كثيرة من الغز ، فأوقعوا بهم ، وقتلوا منهم كثيرا ، وانهزم الباقون .

ثم اجتمع الجند حول سليما نشاہ ، وساروا الى مرو يطلبون الغز ، فبرز الغز اليهم ، واشتبك الطرفان فى قتال مرير ، انتهى بانتصار الغز ، وهزيمة جند خراسان ، فولوا الأدبار ، وتبعهم الغز ، وعاودوا نهب المدن وسلبها وتخريبها ، وقتل الفضلاء من أهلها ، وقد فعلوا هذا فى طوس ونيسابور (١) وسائر مدن خراسان التى وصلوا اليها ، مما تسبب فى هلاك كثير من العلماء والفقهاء ، وحرق كثير من خزائن الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وتقويض أركان دولة السلاجقة فى خراسان ، مما عجل بانتهيارها وزوالها بعد ذلك بضع سنوات .

وقد ضعف شأن السلطان سليما نشاہ بعد انتصار الغز على جيشه ، وتدميرهم مدن خراسان الكبرى ، وكان وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك قد توفى فى شوال سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) فاستوزر بعده ابنه نظام الملك أبا على الحسن بن طاهر ، غير أن أوضاع الدولة أصابها الخلل ، وكان سليمانشاہ سىء التدبير قبيح السيرة ، فعجلت هزيمته بانتهيار حكمه ، وفارق خراسان فى صفر سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) وعاد الى جرجان ، فاجتمع الأمراء وراسلوا الخان محمود بن محمد بن بغراخان ابن أخت السلطان سنجر ، وخطبوا له على منابر خراسان ، واستدعوه فملكوه أموره ، وانقادوا له ، فى شوال سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، وساروا معه الى الغز ، وهم يحاصرون هراة فجرت بينهم حروب ، وكان الظفر فى أكثرها للغز (٢) .

وكان للسلطان سنجر مملوك اسمه « اى آبه » ولقبه المؤيد ، فلما اشتدت فتنة الغز ، وكان السلطان سنجر أسيرا تمكن من كسب ود كثير من الأمراء ، فأطاعوه ، فعلا شأنه ، وعظم أمره ، وكثر جنده ، واستطاع

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٩ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٤٩ هـ .

السيطرة على نيسابور وطوس وأبيورد وشهرستان والدامغان ، وإزاحة الغز عن هذه المنطقة وقتل منهم خلقا كثيرا .

وكان « إبي آبه » حسن السيرة ، فعُدل في الرعية واستمال الناس ، ووفر الخراج على أهله ، وبالع في مراعاة أرباب البيوت ، فاستقرت البلاد بعد اضطراب ، ودانت له الرعية بالطاعة والولاء .

أما الخان محمود بن محمد ، فإنه لما يئس من قتال الغز ، سار إلى نيسابور ، فوجد أن « إبي آبه » قد غلب عليها ، فراسل الغز في الصلح ، فقبلوا ، واصطلحوا معه في رجب من سنة ٥٤٩ هـ هدنة على دخل (١) .

وأما السلطان سنجر فقد ظل أسيرا في أيدي الغز ثلاث سنوات وبضعة أشهر ، ثم تمكن من الهرب من الأسر في رمضان من عام ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) . وواصل السير حتى وصل إلى دار ملكه « مرو » فاجتمع الناس حوله ، وجلس على عرشه مرة أخرى ، غير أنه كان حينذاك شيخا نرفسا ، فلم يتو على تحمل صدمة ما رآه في دياره من الخراب والدمار ، فمرض ثم توفي حزنا وكمدا في عام ٥٥٢ هـ (١١٥٧) (٢) .

والواقع أن فتنة الغز كانت ضربة قاصمة لظهر دولة السلاجقة في خراسان ، وقد عجلت وفاة سنجر بانتهيارها بعد مرته ببضع سنوات ، فقد أخذ حكام الدولة الخوارزمية يسيطرون على أجزاء الدولة السلجوقية في خراسان جزءا في أثر جزء حتى ضموها إلى ممتلكاتهم بعد أقل من خمس سنوات من وفاة السلطان سنجر ، زعيم السلاجقة وآخر سلاطينهم العظام ، حين كان قويا ، مرهوب الجانب ينتب بالسلطان الأعظم ، ويدين له سائر حكام السلاجقة في جميع أجزاء الدولة بالطاعة والولاء .

ولهذا يعد عصر سنجر ذا أهمية خاصة في تاريخ دولة السلاجقة ، فقد كان نهاية لعصور سلاطين السلاجقة العظام ، كما كانت نهاية لدولة السلاجقة في خراسان ، وكان سقوط هذه الدولة من أهم عوامل انهيار دولة السلاجقة في إيران والعراق .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٩ هـ .

(٢) المرجع السابق ، حوادث سنة ٥٥١ هـ .

كما كان عصر سنجر من العصور التي ازدهر فيها الأدب الفارسي ، لما عرف عنه من تشجيع للشعراء والكتاب وسائر المشتغلين بالعلم بمختلف فروعهم ، والمشتغلين بالفن بمختلف ألوانه ، وإن المدح الكثير الذي قيل فيه . والكتب العديدة التي قدمت له ، وأشار مؤلفوها في مقدماتها به ، لتدل دلالة واضحة على تشجيعه للأدباء (١) والعلماء ، والمشتغلين بالفنون الجميلة بما كان يقدمه لهم من عطايا وهبات .

وقد ظل سنجر حاكما أكثر من ستين عاما ، بين حاكم على خراسان و سلطان أعظم لدولة السلاجقة (٢) ، فساعد طول مدة حكمه على كثرة الانتاج العلمى والأدبى والفنى فى عصره ، مما ساعد على رقى الثقافة ، وازدهار الحضارة الاسلامية فى هذا العصر .

وهكذا سقطت دولة سلاجقة خراسان بسقوط حكم سنجر على أيدي الغز ثم موته ، وعجز خلفائه عن ملء الفراغ الذى تركه ، واستطاع حكام خوارزم الذين كانوا من قبل أتباعا لها أن يستولوا على جميع ممتلكاتها فى خراسان ، بحيث لم تقم لها قائمة بعد ذلك .

أما دولة السلاجقة فى العراق ، ففقدت أخذت تسير بخطى واسعة نحو الانهيار والزوال بعد سقوط دولة السلاجقة فى خراسان ، وكانت نهايتها - كذلك - على أيدي حكام الدولة الخوارزمية فى عام ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) مما سنتبينه فيما يلى .

(١) كان معزى النيسابورى وأنورى الأبيوردى من أهم الشعراء الذين مدحوا السلطان سنجر بمدائح مشهورة فى الأدب الفارسي ، وهناك شعراء آخرون كثيرون . اشتهروا بمدحهم للسلطان سنجر منهم على سبيل المثال أديب صابر وعبد الواسع الجبلى ، وسيد أشرف الغزنوى وسنائى الغزنوى ، وهم جميعا من الشعراء المعروفين فى الأدب الفارسي الاسلامى .

(٢) عين سنجر حاكما على خراسان فى عام ٤٩٠ هـ وظل متصفا بهذه الصفة أكثر من عشرين عاما ، أى الى وفاة أخيه محمد فى عام ٥١١ هـ ثم أعلن نفسه سلطانا على دولة السلاجقة وظل متصفا بهذه الصفة الى عام ٥٥٢ هـ كما ظهر من الدراسة التى تضمنها هذا الكتاب ، أى أنه ظل حاكما أكثر من ستين عاما .

الفصل العاشر

انهيار دولة سلاجقة العراق

تمهيد :

أخذت دولة السلاجقة في الانقسام بعد موت السلطان ملكشاه في عام ٤٨٥ هـ (١١٩١ م) ، فكان انقسامها أول معول هـد في كيانها - كما بينا - ثم تجزأت الى أجزاء مختلفة ، كان كل جزء منها مستقلا - في الواقع - عن غيره من الأجزاء ، كما كان يـموج بالفتن والحروب في داخله ، مما شجع أعداء السلاجقة في داخل الدولة وخارجها على التحرك ، فتحرك الاسماعيلية في داخل الدولة ، وتحرك الصليبيون في خارجها وبسطوا نفوذهم ، وصاروا يشكلون خطرا جسيما على دولة السلاجقة بجميع أجزائها .

واختلف السلاجقة في العراق مع العباسيين بعد أن كانوا يتمتعون بتأييدهم ، فتغيرت نظرة الناس الى السلاجقة وأصبح العباسيون أعداء لهم ، يؤيدون كل من يحاول القضاء عليهم .

وسقطت دولة السلاجقة في خـراب ان على أيدي حكام الدولة الخوارزمية الذين صاروا خـنجرا في ظهر دولة السلاجقة في العراق ، مما ساعد على سرعة سقوط هذه الدولة .

وأغرى انقسام أفراد البيت السلجوقي في العراق الأتابكة من أمراء الجيش، على التدخل في أمور الدولة المختلفة بما فيها التصرف في العرش ، واختيار من يجلس عليه من أفراد البيت السلجوقي ، فساعد ذلك على ازدياد الأحوال فسادا واضطرابا ، فلم تكن هناك نهاية لهذا كله الا انهيار دولة السلاجقة في العراق وزوالها بعد زوال دولة السلاجقة في خراسان بأقل من خمسة وثلاثين عاما ، وهي مدة قصيرة في عمر التاريخ .

وكان الأتابكة آخر معول سقطت به دولة السلاجقة فى العراق ،
مما يجعل التعريف بهم مفيدا فى الدراسة ، ويكفيها فى التعريف بهم بيان
نفوذهم فى دولة سلاجقة العراق بعد وفاة السلطان مسعود .

نفوذ الأتابكة :

كان لأمرء الجيش والأتابكة (١) نفوذ فى دولة السلاجقة بحسب رتبهم
العسكرية ، ومقامهم عند السلطان ، ومكانتهم فى الدولة ، وكان هذا النفوذ
يزداد كلما ازدادت الدولة ضعفا ، فكانوا يشتركون فى توجيه سير الأمور ،
وفى اختيار السلاطين ، وفى ترجيح كفة فرد من أفراد البيت السلجوقى ،
وتولييه العرش .

وكان نفوذهم يظهر بين حين وآخر فى تحريض أفراد البيت السلجوقى
ضد بعضهم البعض ، وفى بث روح الغدر وعدم الثقة بينهم ، وكثيرا
ما اشتعلت نيران الحروب الداخلية بسبب تحريضهم ، غير أنهم كانوا -
غالبا - يستترون وراء السلاطين وحكام الأقاليم . وظلوا كذلك حتى ضعفت
دولة السلاجقة وتجزأت ، وأخذت أجزاؤها تنهار ، ثم تلاشى أول جزء
منها فى خراسان ، وتصعد بنيان دولة السلاجقة فى العراق ، فظهر الأمرء
الأتابكة على المسرح السياسى فى العراق ظهورا واضحا ، وبدأ نفوذهم
قويا ملموسا ، وبرزت أسماؤهم وشخصياتهم ، وأمسكوا بزمام الأمور فى
الدولة وبخاصة بعد وفاة السلطان مسعود السلجوقى فى عام ٥٤٧هـ
(١١٥٢م) ، فصار سلاطين السلاجقة يأتمرون بأوامرهم ، وينفذون
رغباتهم ، دون أن يكون لهؤلاء السلاطين نفوذ ملحوظ .

وكان من أكثر الأمرء نفوذا بعد وفاة مسعود « خاص بك » ابن
بلنكرى ، فأمسك بزمام الأمور فى يده . وكان السلطان مسعود قد عهد
بولاية العهد الى ملكشاه ابن أخيه مسعود . فلما تولى مسعود ، أجلس خاص
بك ملكشاه على عرش سلاجقة العراق ، وأمر بقراءة الخطبة باسمه ، ورتب

(١) الأتابكة جمع أتابك ومعناها السيد الوالد أو الأمير الكبير وهى رتبة
عسكرية رفيعة كانت تمنح لكبار الوزراء ولحكام الولايات وللمشرفين
على تربية أبناء السلاطين .

له الامور وقررهما بين يديه . وأذعن له جميع العسكر بالطاعة ، والولاء (١) ،
غير أن ملكشاه انصرف الى اللهو والشراب ، فقبض عليه خاص بك وسجنه ،
وأرسل الى أخيه محمد بن محمود سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٢ م) وهو بخوزستان
يستدعيه لتولى عرش سلاجقة العراق ، فسار محمد اليه ، فلما وصل الى
همدان أجلسه على العرش ، وخطب له وبألف في خدمته واطهار الولاء له ،
وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار .

وخشى السلطان محمد أن يصيبه ما أصاب أخاه من قبل ، فدبر مؤامرة
لقتل خاص بك ، وتمكن من التخلص منه ، ونجح أخوه ملكشاه في الهرب من
السجن والفرار الى خوزستان (٢) .

وكان بطش السلطان محمد بخاص بك تنبيها للأمراء ، فأخذوا يتآمرون
عليه ، ويحاولون التخلص منه ، وعزله عن عرش السلطنة .

كما انتهز الخليفة العباسي المقتضى لأمر الله فرصة وفاة مسعود ،
فحاول استعادة استقلاله وحرية المسلوقة والانتقام من السلاجقة ، وأمر
بحذف اسم السلاجقة من الخطبة في بغداد ، ورفض ذكر اسم السلطان محمد
في الخطبة حين طلب منه ذلك ، فكان هذا اعلانا لحرب جديدة بين السلاجقة
والعباسيين ، لم تلبث نيرانها أن اشتعلت في عام ٥٥١ هـ (١١٥٦ م) (٣) .

وحاول الخليفة العباسي أن يستميل اليه بعض أفراد البيت السلجوقي ،
ويضمهم الى جانبه ، فسمح لسليمانشاه بن محمد - عم السلطان محمد -
بدخول بغداد ، وأخذ عليه العهد والميثاق أن يلزم طاعة الخليفة ، فلا يتعرض
للعراق بحال ، وخطب له ببغداد ، وخلع عليه خلع السلطنة ، ثم أرسله الى
بلاد الجبل لقتال ابن أخيه السلطان محمد في همدان ، وسير معه ثلاثة
آلاف فارس ، فتوجه سليمانشاه الى همدان ، ورأسل ابن أخيه ملكشاه -
الذي كان يسيطر على خوزستان - ودعاه الى الانضمام اليه ، وعينه وليا
للعهد ، فقدم اليه ملكشاه في ألفى فارس ، وانضم اليها ايلدگز أتابك

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٤٧ هـ .

(٢) البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٢٨ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥١ هـ .

آذربيجان ، فصاروا جمعا عظيما ، وتحركوا جميعا صوب همذان لقتال السلطان محمد الذى لم يكذب يسمع خبرهم حتى سار اليهم ، ف وقعت الحرب بين الطرفين ، وانتهت بانتصار السلطان محمد ، وتشتت شمل سليمان شاه وصحبه ، وأراد سليمان شاه الرجوع الى بغداد عن طريق شهرزور غير أنه وقع أسيرا ، ثم حمل الى الموصل حيث سجن فى قلعة بها .

ثم أرسل السلطان محمد الى الخليفة العباسي ، وطلب منه أن يخطب له ببغداد وسائر مدن العراق ، فامتنع الخليفة عن اجابته الى ذلك ، فسار محمد من همذان فى عساكر كثيرة نحو بغداد ، وأرسل حاكم الموصل لارسال عساكر اليه لاحكام الحصار على بغداد ، وتمكن محمد من دخول العراق والوصول الى بغداد وحصارها ، فاضطرب الناس ببغداد ، وأرسل الخليفة الى الأطراف لجمع العساكر ليتمكن من فك الحصار عن بغداد ، وجرت بين الطرفين حروب دون أن يصل أحدهما الى نتيجة حاسمة ، وضاق أهل بغداد بحصار محمد لها ، لانقطاع الموارد عنهم ، ولكنهم ظلوا صامدين ، بينما أصر محمد على الاستمرار فى حصار بغداد وتضييق الخناق عليها ، غير أن أخاه ملكشاه تحالف مع ايلدگز أتابك آذربيجان ، واتحدت قواتهما ، وسارا نحو همذان - عاصمة السلطان محمد - وتمكنا من الاستيلاء عليها ، فاضطر محمد الى رفع الحصار عن بغداد ، والسير الى همذان لانتقاذ عرشه ، وبخاصة بعد أن علم أن ايلدگز قد اصطحب معه أرسلان بن طغرل بن محمد السلجوقي - وهو ابن زوجته - وأنه ينوى اجلسه على عرش سلاجقة العراق فى همذان .

وقد نجح السلطان محمد فى استرداد همذان ، وطرد ايلدگز وملكشاه منها ، وجلس على عرش السلاجقة فيها ، غير أنه لم يلبث أن توفى بعد ذلك بقليل فى عام ٥٥٤هـ (١١٥٩م) (١) .

أما الخليفة المقتفى لأمر الله فقد تخلص من نفوذ السلاجقة بعد رفع الحصار عن بغداد ، وزوال الخطر عنه ، وأصبح أول خليفة عباسي يحكم

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٤هـ .

مستقلا عن سيطرة الأتراك منذ عهد المنتصر(١) ، وكان هذا نصرا للخلافة العباسية على الدولة السلجوقية .

ولما توفى السلطان محمد اختلف الأمراء والأتابكة فيمن يخلفه على عرش سلاجقة العراق ، وانقسموا الى ثلاثة أحزاب ؛ حزب يريد تولية أخيه ملكشاه ، وحزب يرغب فى تولية عمه سليمانشاه ، وكان أكثر عددا ، وحزب يميل الى تولية أرسلان بن طغرل الذى كان أيلدگز أتابك اذربيجان زوجا لأمه .

أما ملكشاه فانه سار من خوزستان على رأس جيش ، ثم توجه الى اصفهان ودخلها ، ثم أرسل الى الجند فى همذان يدعوهم الى الدخول فى طاعته ومؤازرته ، فلم يجيبوه الى طلبه ، لأن أكثرهم ، كان يريد تولية عمه سليمانشاه ، فأخذ ملكشاه يجمع الجند بكل وسيلة ممكنة حتى اجتمع عنده عدد كبير منهم ، فلما كثر جنده أرسل الى بغداد يطلب أن تقطع خطبة عمه سليمانشاه ، وأن تقرأ الخطبة باسمه والا قصدها ، غير أن أعداء ملكشاه كانوا يدبرون المؤامرات ضده ، ونجحوا فى النهاية فى التخلص منه بدس السم له فى الطعام ، فتوفى مسموما فى عام ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) وقرئت الخطبة فى اصفهان باسم سليمانشاه ، فاستقر حكمه فى أكثر أنحاء دولة سلاجقة العراق .

ولم يكن سليمانشاه شخصا حكيما يحسن تصريف الأمور ، لأنه كان محبا للهو والمجون ، يشغل أكثر وقته فى ملذاته الخاصة ، مما نفر الأمراء منه ، وجعلهم يفكرون فى عزله وتولية فرد غيره من أفراد البيت السلجوقى ، وانتهى الأمر بالقبض عليه فى همذان فى عام ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) والقائه فى السجن داخل قلعة ، ثم دس السم له فى الطعام ، فتوفى كذلك مسموما فى ربيع الآخر من عام ٥٥٦ هـ (١١٦٠ م) (٢) .

وقد أرسل الأمراء - بعد القبض على سليمانشاه وسجنه - الى الأتابك ايلدگز يطلبون منه الحضور ومعه ابن زوجته أرسلان بن طغرل ، فसार

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٦٣ ؛ ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٥ هـ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

ايلدگز اليهم على رأس جيش كبير يرافقه أرسلان ، ووصل هو وابن زوجته الى همذان ، ثم أجلس أرسلان بن طغرل على عرش السلطنة في همذان ، فصار سلطانا على دولة سلاجقة العراق ، ووافق الخليفة العباسي على ما حدث فخطب لأرسلان في جميع مدن الدولة .

واتخذ السلطان أرسلان زوج أمه ايلدگز أتابكا له ، كما اتخذ أخاه لأمه محمدا بن ايلدگز الملقب بجهان بهلوان(١) حاجبا له ، فأخذ نفوذ الأتابكة يظهر في دولة السلاجقة منذ ذلك الوقت ، وصار زمام الأمور في أيديهم ، فكانوا يتصرفون في جميع الأمور وفق إرادتهم وصار السلطان دمية في أيديهم .

وحاول حكام أقاليم ايران المختلفة من الأتابكة أن يقلدوا ايلدگز في اصفهان فرد من أفراد البيت السلجوقي ثم محاولة توليته عرش السلاجقة ، والامساك بزمام الأمور في الدولة بهذه الوسيلة ، ولكنهم فشلوا ، لأن ايلدگز كان لديه جيش قوى يقوده ابنه محمد جهان بهلوان ، فتمكن بواسطته من الانتصار على جميع منافسيه من الأتابكة ، وكان أقواهم اينانج حاكم الري ، فتحالف ايلدگز معه ، وصاهره بأن زوج ابنه محمدا بابنة اينانج ، فعاشت معه في همذان ، وأصبح ايلدگز واينانج حليفين ، يتعاونان معا في التغلب على أعدائهما(٢) .

وقد صار ايلدگز منذ تولية ابن زوجته سلطانا على سلاجقة العراق ممسكا بزمام الأمور في الدولة ، مهيمنا على كل شيء فيها ، لا يتم شيء الا بأمره ، فكان يتصرف في جميع الأمور برأيه ، أما السلطان أرسلان فكان رمزا ، يملك ولا يحكم ، مكتفيا بلقب السلطان .

واستطاع الأتابك ايلدگز بكفاءته وحسن تدبيره أن يدير أمور الدولة ادارة حسنة ، وأن يزيد كيد أعدائها ، وينتصر عليهم(٣) ، مما أدى الى

(١) « جهان بهلوان » معناها « بطل العالم » .

(٢) حمد الله مستوفى قزويني : تاريخ گزيده ، ص ٤٧٠ .

(٣) محمد بن ابراهيم : تاريخ سلجوقيان كرمان ، ص ٥١ ؛ كرمانى : تاريخ أفضل ، ص ٤٣ .

استقرار الأوضاع في دولة سلاجقة العراق ، وأحمد الفتن وكان لايلدگز ابنان يساعده في تصريف الأمور ، وإدارة مرافق الدولة هما محمد جهان بهلوان وعثمان قزل أرسلان(١) .

وهكذا برز نفوذ الأتابكة وحكام الأقاليم وأمراء الجيش ، وأصبح زمام الأمور في أيديهم ، وأصبحوا يتخذون أبناء السلاطين أدوات في أيديهم يستعملونها في وقت الضرورة .

وقد قضى ايلدگز بضع سنوات في القضاء على منافسيه من الأتابكة ، فاشتبك في حروب كثيرة ضد حكام الأقاليم المختلفة وبعض أمراء الجيش المتمردين واستطاع في النهاية التغلب على جميع منافسيه بعد الانتصار عليهم ، واسكات أصواتهم ، وأصبح أقوى شخصية في جميع أنحاء دولة سلاجقة العراق ، أما أرسلان فلم يكن له إلا الاسم ، تقرأ باسمه الخطبة ، وتضرب باسمه السكة(٢) ، مما جعل ايلدگز من القوى التي لها خطرهما في دولة سلاجقة العراق .

وظل ايلدگز قويا مرهوب الجانب طوال مدة حياته حتى توفي في عام ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) ، فاحتل ابنه محمد جهان بهلوان مكانه أتابكا للسلطان أرسلان - الذي كان أخاه لأمه كما ذكرنا - وأمسك بزمام الأمور في الدولة كما فعل أبوه من قبل ، وغلبت شخصيته على شخصية أخيه السلطان الذي لم يستطيع التخلص من نفوذ أخيه وسيطرته ، وتدخله في كل صغيرة وكبيرة برغم أنه كان أصغر منه سنا ، فحزن مرض وأثر الانزواء حتى توفي في عام ٥٧١ هـ (١١٧٥) (٣) ، وقيل ان أخاه جهان بهلوان دس له السم في الطعام ليتخلص منه نهائيا ويولى مكانه ابنه طغرل(٤) الذي كان طفلا في السابعة من عمره ، فيصبح وصيا عليه ، ويستطيع التصرف في كل شيء ، دون معارضة أو تضاييق من هذا الطفل .

(١) « قزل أرسلان » معناها « الأسد الأحمر » هو معروف بأنه أقوى أنواع الأسود .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنوات ٥٥٦ هـ و ٥٥٧ هـ و ٥٦٣ هـ .

(٣) راوندی : راحة الصدور ، ص ٣٠١ .

(٤) البنداری : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٢٠١ .

وهكذا يتبين أن كفة الأتابك كانت ترجح كفة السلطان ، فكان يعزل السلطان أو يقتله اذا عارض نفوذه ، أو حاول اظهار شخصيته .

وقد تركزت السلطة فى يد الأتابك محمد جهان بهلوان ، وكان ابن أخيه السلطان طغرل الثالث طفلا لا حول له ولا طول ، ولايكاد يعنى ما يدور حوله وعيا صحيحا ، مما جعل قوة جهان بهلوان تبلغ درجة عظيمة تجعل الحكام الآخرين يرهبون جانبه ويرسلون السفراء الى بلاطه(١) .

وتمكن جهان بهلوان من الاحتفاظ لدولة سلاجقة العراق باستقرارها ، واستطاع بشجاعته وقوته ومساعدة أخيه قزل أرسلان أن يصمد عن الدولة عدوين فى وقت واحد ؛ أحدهما ملك الأنجاز الذى أغار على أذربيجان ، والآخر محمد بن طغرل بن محمد بن ملكشاه عم طغرل الذى أغار على العراق(٢) ، فتوطدت بذلك أركان دولة سلاجقة العراق فى عهد السلطان طغرل الثالث ، وظلت الأحوال هادئة مستقرة عشر سنوات الى عام ٥٨١هـ (١١٨٥ م) كان جهان بهلوان فى أثائها السيد المطاع فى الدولة .

تغير الأوضاع خارج دولة السلاجقة

وكانت الأوضاع خارج دولة السلاجقة قد تغيرت تغيرا فى صالح المسلمين بعامه ، وفى صالح أهل السنة بخاصة ، وذلك فى أثناء غلبة نفوذ الأتابكة على دولة سلاجقة العراق ، فقد تمكن صلاح الدين يوسف من إسقاط دولة الفاطميين فى مصر فى عام ٥٦٧هـ (١١٧١ م) وقطع الخطبة لهم ، وضم مصر الى الخلافة العباسية السنية ، فخطب للخليفة العباسى المستضىء بنور الله فيها ، وحل المذهب السنى محل المذهب الشيعى الاسماعيلى ، وتم ذلك دون عناء أو اضطراب(٣) ، فتوحدت جبهة المسلمين فى مواجهة الصليبيين .

ثم صمم صلاح الدين على مواصلة الجهاد ضد الصليبيين ، لأنه كان يعد طردهم من بلاد المسلمين الهدف الأسمى الذى يتوق جميع المسلمين الى

-
- (١) صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٧٢ .
(٢) أمير خواند : روضة الصفا (الجزء الرابع) .
(٣) أبو الفدا : تاريخه ، ص ٥٣ .

بلوغة ، فأخذ يعد العدة لقتال الصليبيين ، ووجد أن توحيد مصر وسورية تحت حكمه أمر لازم قبل السير لقتال الصليبيين ، وبخاصة بعد وفاة نور الدين حاكم سورية فى عام ٥٧٠هـ (١١٧٤م) فأعلن استقلاله بمصر ، ثم اشتبك فى قتال مع اسماعيل بن نور الدين وانتصر عليه وتمكن من بسط سيطرته على سورية ، كما استطاع أخوه توارنشااه الاستيلاء على بلاد اليمن ، وبسط نفوذ صلاح الدين فيها ، كما وصل نفوذ صلاح الدين الى بلاد الحجاز ، ووافق الخليفة العباسى فى عام ٥٧١هـ (١١٧٥م) على أن تكون مصر والمغرب والنوبة وغربى الجزيرة العربية وفلسطين والجزء الأوسط من سورية تحت حكم صلاح الدين ، وبأن يكون السلطان (١) الوحيد على هذه المناطق كلها ، فقويت شوكته فى مواجهة الصليبيين ، كما تمكن فى عام ٥٨١هـ (١١٨٥م) من بسط سيطرته على الموصل ، فأعلن أمراء العراق الطاعة والولاء له ، وهكذا أحاط صلاح الدين بالصليبيين من كل جانب ، وصار فى وضع يمكنه من التفرغ لقتالهم .

ثم بدأ صلاح الدين تحرير بلاد المسلمين من أيدي الصليبيين ، فاستولى على طبرية فى عام ٥٨٣هـ (١١٨٧م) ثم أنزل بالصليبيين هزيمة ساحقة فى موقعة حطين ، وسقطت بعدها بأسبوع مدينة بيت المقدس ، فدانت له بسقوطها مدن سورية وفلسطين المهمة ، بعد أن كانت فى أيدي الصليبيين ، وواصل صلاح الدين حملاته على القلاع الحصينة التى كانت تحت سيطرة الصليبيين ، فتمكن من السيطرة عليها وانتزاعها من أيديهم ، وسقط آخر معقل لهم فى تلك المنطقة فى عام ٥٨٥هـ (١١٨٩م) وكانت هذه المعقل أشواكا فى جنب المسلمين(٢) .

غير أن هذه الانتصارات التى حققها المسلمون بقيادة صلاح الدين جعلت ملوك أوروبا الصليبيين يتحمسون لإرسال حملة صليبية جديدة لإعادة السيطرة على بيت المقدس ، كان على رأس هذه الحملة فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا وفيليب أغسطس ملك

(١) أبو الفداء : تاريخه ، ص ٦٠ .
(٢) حتى وجرى جبور : تاريخ العرب ، ج ٣ ، ص ٧٦٦ - ٧٦٧ .

فرنسا ، وقد تمكنت هذه الحملة من فتح عكا فى عام ٥٨٧هـ (١١٩١م)
ثم تم الصلح بين الطرفين فى عام ٥٨٩هـ (١١٩٢م) غير أن صلاح الدين
لم يلبث أن توفى بعد ذلك بقليل (١) .

وكان لانتصار صلاح الدين أثر كبير فى قل شوكة الصليبيين ، فأخذت
كفة المسلمين ترجح كفتهم منذ ذلك الدين ، حتى تمت الغلبة لهم ، فانتهى
الأمر بطرد الصليبيين ، وتحرير بلاد المسلمين .

كما حاول صلاح الدين فى عام ٥٨١هـ (١١٨٥م) أن يغزو قلاع
الاسماعيلية فى قزوين وبسطام ودامغان بعد أن سيطر على الموصل ، فطلب
من الأتابك جهان بهلوان ، أن يسمح له بالمرور فى الأراضى الخاضعة
لنفوذه ، حتى يحقق هدف غزو قلاع الاسماعيلية ، غير أن الأتابك جهان
بهلوان رفض السماح لصلاح الدين بالمرور فى أراضى سلاجقة العراق ،
مخافة أن يفكر صلاح الدين فى السيطرة عليها ، فوقف فى طريقه ، ورجع
صلاح الدين بعد أن تم الصلح بينه وبين جهان بهلوان (٢) .

ومرض جهان بهلوان بعد ذلك مباشرة ، ولم يلبث أن توفى فى أوائل
عام ٥٨٢هـ (١١٨٦م) ، وكان الى آخر لحظة من حياته يسيطر على جميع
الأقاليم الخاضعة لحكم سلاجقة العراق ، وكان السلطان طغرل بن أرسلان
معه والخطبة له فى هذه البلاد بالسلطنة ، وليس له من الأمر شئ ، وانما
البلاد والأمراء والأحوال بحكم الپهلوان (٣) ، فلما توفى خلفه أخوه عثمان

(١) ارجع فى تفاصيل ما ذكر الى ابن خلدون : تاريخه ، ج ٥ ، ص ٢٢١ ؛
ابن شداد « سيرة صلاح الدين ، ص ١٩٠ ، الأصفهاني : الفتح القسى
فى الفتح القدسى ، ص ٣١٨ ؛ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ،
ص ٣٨٦ - ٣٨٧ ؛ أبو الفدا : تاريخه ، ج ٣ ، ص ٨٣ - ٨٤ .

(٢) ذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل فى حوادث سنة ٥٨١هـ أن صلاح الدين
كان يحاصر الموصل فعلم بوفاة شاه أرمن ملك أخلاط ففكر فى
الاستيلاء عليها ، فسار اليها فى الوقت الذى كان جهان بهلوان قد سار
فيه للقيام بنفس المهمة فترددت الرسائل بين الطرفين ، وتم الصلح
بينهما ، فانصرف صلاح الدين عن مواصلة القيام بتلك المهمة وخطب
لجهان بهلوان فى أخلاط .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٢هـ .

قزل أرسلان فى منصب الأتابك ، وكان السلطان طغرل حينذاك شابا فى الثامنة عشرة من عمره ، فلم يطلق أن يظل ألعوبة فى يد عمه ، فخرج عن حكمه ، ولحق به بعض الأمراء والجند . ووقف الخليفة العباسى الناصر لدين الله الى جانب الأتابك قزل أرسلان ، فظهرت الفتن والحروب الداخلية من جديد ، بعد أن كانت البلاد آمنة مستقرة فى عهد البهلوان ، وتصادف أن حدث خلاف بين الشافعية والحنفية فى اصفهان ، وانتشرت الفتنة بين أنصار المذهبين ، فكثرت القتل والنهب والاحراق بين الفريقين ، كما حدثت فتنة عظيمة فى مدينة الرى بين أهل السنة والشيعة ، فتفرق أهلها ، وقتل منهم عدد كبير ، خربت المدينة ، وانتشرت الفتنة فى جميع الأرجاء ، فظهرت بوادر انهيار دولة السلاجقة فى العراق .

انهيار دولة سلاجقة العراق

كانت وفاة الأتابك محمد جهان بهلوان بداية لتداعى أركان دولة السلاجقة فى العراق ، فقد انتشرت فيها الفتن والحروب الداخلية ، وعمت أنحاء كثيرة من البلاد ، مما عجل بسقوط الدولة بعد بضع سنوات من وفاته .

وقد خلف قزل أرسلان أخاه البهلوان فى منصب الأتابك ، وكان فى أذربيجان فعزم على الرحيل الى همذان مقر السلطنة لتسيير دفة الأمور (١) ، غير أن ابن أخيه السلطان طغرل الثالث كان قد أصبح شابا فأراد التخلص من سيطرة عمه - كما ذكرنا - فقامت منازعات بين الطرفين ، وانضم كثير من الأمراء والجند الى طغرل فقوى أمره ، بينما انحاز الخليفة العباسى الى قزل أرسلان ، وعمت الفتنة البلاد ، فاضطربت أحوالها اضطرابا شديدا وتمكن السلطان طغرل من السيطرة على أجزاء كثيرة من البلاد ، فأرسل قزل أرسلان الى الخليفة العباسى الناصر لدين الله يستنجد به ويخوفه من طغرل ويتعهد بالطاعة والولاء للخليفة (٢) ، فأمدّه بجيش وصل الى همذان قبل

(١) امير خواند : روضة الصفا (الجزء الرابع) .

(٢) بن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

وصول قزل أرسلان ، فاضطر الى القتال وحده ، فهزم شر هزيمة فى عام ٥٨٢ هـ (١١٨٧م) ، ورجع الى العراق مدحورا (١) .

وعلا شأن السلطان طغرل بعد انتصاره على جيش الخليفة ، فأعلن حاكم مراغه الولاء له ، وتوجه الى همذان لتقديم فروض الطاعة له ، فأمر طغرل ، وأودع عنده ابنه الصغير بركيارق (٢) للاشراف على تربيته .

وعاود قزل أرسلان التحرك صوب همذان فى أوائل عام ٥٨٤ هـ (١١٨٨م) على رأس جيش كبير ، كما جهز الخليفة العباسى جيشا آخر فى العام نفسه تمكن من الوصول الى همذان والاستيلاء عليها بينما هرب السلطان طغرل الى آذربيجان ، وأقام فى مدينة تبريز .

وكان الأتابك قزل أرسلان قد وصل الى مدينة كرمانشاهان حين بلغه نبأ رحيل طغرل من همذان ، وتوجه الى آذربيجان ، فغير طريق سيره ، وتبع طغرل الى آذربيجان ، فلما علم طغرل بذلك ، ترك تبريز ورجع الى همذان بعد رحيل جيش الخليفة عنها ، وظل طغرل عاما فى حالة اضطراب (٣) وتنقل من مكان الى آخر ، فانفرط عقد من حوله من الأمراء والعساكر ، وضعفت قوته ، فرجحت كفة قزل أرسلان ، وكان حينذاك يقيم فى آذربيجان ، بينما

(١) صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٧٧ :
وقد ذكر ابن الأثير فى تاريخه فى حوادث سنة ٥٨٤ هـ أن الخليفة الناصر لدين الله جهز عسكرا كثيرا وسيرهم الى مساعدة قزل أرسلان ليكف الناس طغرل عن البلاد ، فسار العسكر ثالث صفر الى أن قارب همذان واقتتلوا فلم يثبت عسكر بغداد بل انهزموا وتفرقوا ، وعاد العسكر الى بغداد متفرقين ، ويبدو أن ابن الأثير يشير الى تلك الواقعة التى ذكرنا أنها كانت فى عام ٥٨٤ هـ ، ويفهم من كلام الراوندى فى كتابه راحة الصدور أن الواقعة المذكورة كانت فى أواخر عام ٥٨٣ هـ ، لأن المعركة التالية بين الطرفين كانت فى شهر المحرم من عام ٥٨٤ هـ ، ونظرا لأن الراوندى كان معاصرا لهذه الأحداث جميعها ، فان ما ذكره هو الصحيح .

(٢) ارجع الى الراوندى : راحة الصدور ، حواشى ص ٣٤٧ .

(٣) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٤٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٤٨ .

السلطان طغرل هائم على وجهه ، لايجرؤ على دخول همذان عاصمة ملكه ، فهو يطوف حولها دون أن ينزل بها .

وفى شهر صفر من عام ٥٨٥ هـ (١١٨٩م) تحرك قزل أرسلان من أذربيجان قاصدا همذان ، ولم يكن لطغرل طاقة الوقوف فى وجهه (١) فأفسح له الطريق ، فاستولى قزل أرسلان على همذان دون مقاومة ، وأخذ نجمه فى الارتفاع فتوافد الرسل عليه من مختلف الأطراف معلنين التأييد له ، ثم رجع الى أذربيجان وجاءه جيش العراق من دار الخلافة لتأييده ، وإبلاغه وقوف الخليفة الى جانبه (٢) .

وظل السلطان طغرل يتنقل من مكان الى آخر خائفا مضطربا ، ثم دخل همذان خلسة فى عام ٥٨٦ هـ (١١٩٠م) واختفى فيها ، غير أن جيش الخلافة توجه من أذربيجان الى همذان من شهر رمضان من العام نفسه ، واستولى عليها ، فوقع طغرل أسيرا فى أيدي رجال الجيش ، ثم دخل قزل أرسلان همذان ، ووجد طغرل أسيرا ، فسمجنه فى قلعة بأذربيجان (٣) .

وهكذا خلا الجو لقزل أرسلان ، واستقر فى العاصمة همذان ، فأخذ يتحدث عن سلطان رمزى من السلاجقة يجلسه على عرشهم فى العراق ، وفكر فى اجلاس سنجر بن سليمان شاه على العرش ، فأخرجه من السجن ليجلسه على العرش ، ووزع الاقطاعات على الأمراء ، ثم توجه الى أصفهان ، حيث تزوج بالخاتون زوجة أخيه البهلوان ، وكانت سيدة رائعة الجمال ، فتهيأت له جميع أسباب السعادة والعظمة ، وأقبلت الدنيا عليه ، فلم يلبث أن وصلتته رسالة من الخليفة العباسى تظهر رضاه عنه وموافقة على أن يلى عرش السلطنة ، فأعلن قزل أرسلان نفسه ساطانا فى عام ٥٨٧ هـ (١١٩١م) (٤) ،

(١) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٥٥ وما بعدها حواشى ص ٣٥٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٦٢ وحواشيه ؛ حمد الله قزوينى : تاريخ كزیده ، ص ٤٧٥ .

(٣) صدر الدين الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٨٧ - ١٨١ ؛ ابن الوردى : تاريخه ، ص ١٠٠ .

(٤) الراوندى راحة الصدور ، ص ٣٦٣ .

وصار واضحا أن بساط سلاجقة العراق قد طوى ، كما طوى بساط سلاجقة خراسان من قبل ، وأن شمس دولة السلاجقة فى ايران والعراق قد أذنت بالمغيب .

غير أن أمراء العراق حققوا على قزل أرسلان هذه المنزلة (١) ، وخشوا أن يفتك بهم كما تنكر لعمه طغرل ، وألقاه فى السجن ، وكانت الخاتون زوجته الجديدة ترى أن ابنها قتلوغ اينانج من زوجها السابق جهان بهلوان أحق بهذا المجد من عمه قزل أرسلان الذى كان قد انصرف عنها ، برغم جمالها المفرط ، لسوء سلوكه ، فتعاونت مع أمراء العراق (٢) هى وابنها قتلوغ اينانج وأخذ الجميع يتآمرون ضد قزل أرسلان ، ويفكرون فى وسيلة لقتله (٣) .

وانتهى الأمر بتدبير مؤامرة لقتله ، فأرسلوا اليه من قتله وهو نائم على فراشه (٤) .

وكانت الدولة حينذاك تمشج بفتن كثيرة متنوعة ، فلم يعرف قتلته على وجه التحديد ، فقليل ان أمراء العراق هم الذين قتلوه بالاتفاق مع الخاتون زوجته الجديدة ، وهو القول الراجح الذى ذكرناه ، وقيل ان الاسماعيليه هم الذين قتلوه (٥) ، مستفيدين من جو الفتن السائد فى الدولة ، كما فعلوا أثناء النزاع بين السلطان مسعود والخلافة العباسية ، فقتلوا الخليفة المسترشد بالله ثم قتلوا ابنه الراشد بالله - كما مر - غير أن هذا القول مستبعد لأن الاسماعيليه لم يذكروا اسم قزل أرسلان بين أسماء الذين اعترفوا بقتلهم وتباهوا بقتلهم لهم .

وقيل ان انصار الشافعية هم الذين قتلوه ، لاضطهاده لمشايخهم وقتله كثيرا منهم ، لأنه كان مناصرا للحنفية حين ثار نزاع شديد بينهم وبين الحنفية فى اصفهان - كما ذكرنا - وهو قول مستبعد كذلك ، لأنه لم يتواتر فى كتب

(١) أمير خواند : روضة الصفا (الجزء الرابع) .

(٢) المرجع السابق (الجزء الرابع) .

(٣) هذا ما ذكره الحسينى فى أخبار الدولة السلجوقية .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٨٧ هـ .

(٥) تاريخ البناكتى : الجزء الرابع .

التاريخ ، التى دونت أخبار السلاجقة ، ومنها كتب معاصرة للأحداث المذكورة
مثل كتاب راحة الصدور للراوندى ، مؤرخ الدولة السلجوقية حينذاك .

ومهما يكن من شئ ؛ فان تولى قزل أرسلان عرش السلطنة قبل
اغتياله يدل دلالة واضحة على أن قوة ألبكة أذربيجان قد بلغت حدا جعلهم
جديرين - فى رأى الخليفة العباسى فى ذلك الوقت - بتولى عرش السلطنة ،
كما يدل ما حدث على أن سلاجقة العراق كانوا ضعافا فى حالة احتضار ،
وأن دولتهم كانت وشيكة الانهيار .

ولما قتل قزل أرسلان صار الأمراء سادة الموقف ، فأمسكوا بزمام الأمور
وأخذوا يوزعون السلطة والمناصب فيما بينهم .

وحاول نصرة الدين أبو بكر بن محمد جهان بهلوان أن يخلف عمه قزل
أرسلان فى السلطة ولكنه لم يوفق فاكتمى بحكم أذربيجان ، بينما اقتسم أمراء
العراق ومعهم أخوه قتلوغ اينانج (١) حكم الأقاليم الأخرى فى دولة سلاجقة
العراق ، وظهرت المنافسة بين الأخوين بصورة قوية واضحة ، فاشتباكا فى
حروب كثيرة حتى روى أن الحروب شبت بينهما أربع مرات فى شهر واحد (٢)
وشغل أمراء العراق بالغنائم ، فانتهز السلطان طغرل هذه الفرصة ، ودبر

(١) كان قتلوغ اينانج أخا غير شقيق لنصرة الدين أبى بكر وكانت أمه
الخاتون أجمل زوجات جهان بهلوان ، وكانت تتوق الى اسناد منصب
رفيع الى ابنها ، وقد ورد فى بعض الكتب التى سجلت أخبار السلاجقة
من الكتب التى مر ذكرها أن الخاتون تزوجت قزل أرسلان بهدف التخلص
منه وابعاده عن طريق ابنها قتلوغ اينانج ، ولذلك اشتركت فى المؤامرة
التي دبرت لقتله ويسرت للقاتل سبيل الوصول الى فراشه لقتله .
ومما يرجح هنا القول ، أنها تزوجت بعد ذلك السلطان طغرل
السلجوقى - مع أنه كان أصغر سنا من ابنها قتلوغ اينانج - لتتمكن
من التخلص من منافسته لابنها ، بالاشتراك فى مؤامرة لقتله - كما
فعلت مع عمه قزل أرسلان - غير أنه فطن لخطتها ، فدبر مؤامرة لقتلها
قبل أن تقتله ، مما جعل ابنها قتلوغ اينانج يستعدى عليه حكام خوارزم
ثم يقدم على قتله كما سيأتى .

(٢) أمير يحيى القزوينى : لب التواريخ (الجزء التاسع) ؛ خواندميز : حبيب
السير ، ص ١٠٧ .

وسيلة للهروب من السجن ، ونجح في الهروب من سجنه ، فانضم اليه بعض الأمراء ، وتمكن من جمع عدد من الجند ، وتكوين جيش حارب به أمراء العراق وابن عمه قتلوغ اينانج بالمقرب من قزوين ، وتمكن من الانتصار عليه ثم توجه الى مقر حكمه في همذان حيث جلس على العرش (١) من جديد ، وأقره على ذلك كثير من حكام الأطراف ، بينما تفرق أمراء العراق ، وهاموا على وجوههم دون تنظيم .

وظن السلطان طغرل الثالث أنه استرد بذلك عرشه المغصوب ، وأنه سيوطد دعائم سلطنة السلاجقة في العراق ، غير أنه فوجيء بتحصن ابن عمه قتلوغ اينانج في مدينة الري ، واعداده جيشا لقتاله ، فأخذ السلطان طغرل يعد العدة لقتال ابن عمه في الري .

والتقى طغرل في تلك الأثناء بالخاتون أم قتلوغ اينانج فوجد عندها استعدادا للزواج ، فتزوجها - برغم أنه كان أصغر سنا من ابنها - لعله يتقى بذلك شر مكائدها ومؤامراتها ، غير أنه بأمر بالتخلص منها بدس السم لها ، فقتلها قبل أن تدبر هي مؤامرة لقتله كما فعلت مع عمه قزل أرسلان للتخلص منه (٢) حتى يخلو الجو لابنها قتلوغ اينانج ، فيرتفع نجمه ، ويصل الى السلطة .

وقد زاد قتل طغرل للخاتون أم قتلوغ اينانج نار العداوة بين الطرفين اشتعالا ، فصمم كل منهما على القضاء على الآخر ، وتحالف قتلوغ اينانج مع علاء الدين تكش حاكم خوارزم ، وحرضه على القضاء على دولة السلاجقة وبسط سيطرته على ممتلكاتها في ايران والعراق ، ووجد حاكم خوارزم في طلب قتلوغ اينانج فرصة مواتية لغزو أراضي السلاجقة في ايران والعراق ، والاستيلاء عليها فأمد قتلوغ اينانج بجيش استولى به على مدينة الري وسيطر على قلعة طبرك ، فتوجه السلطان طغرل على رأس جيش كبير وحاصر مدينة الري كما حاصر قلعة طبرك وانتصر على ابن عمه قتلوغ اينانج وعلى

(١) الراوندي : راحة الصدور ، ص ٣٦٤ وحواشيها ؛ ابن الأثير الكامل ، حوادث سنة ٥٨٨ هـ .

(٢) الراوندي : راحة الصدور ، ص ٣٦٧ وحواشيها .

جيش خوارزم المناصر له ، وقتل قائد جيش خوارزم وأسر أمراءه ، واستولى على المدينة والقلعة ، وأخذ الفتنة في هذه المنطقة ، وهرب قتلوغ اينانج ومن معه ، وكان ذلك في سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٤ م) ثم رجع السلطان طغرل بعد أنتصاره الى عاصمة ملكة همذان (١) .

غير أن حاكم خوارزم أرسل جيشا آخر عاود مهاجمة مدينة الري ، فأسرع السلطان طغرل لردّه عنها ، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة بالقرب من هذه المدينة في الرابع من المحرم سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) انتهت بانتصار طغرل انتصارا باهرا ، وهزم جيش خوارزم هزيمة نكراء ، وقتل كثير من من قواده (٢) .

وأخذ طغرل يتفقد أجزاء دولته ، خشية أن يرسل حاكم خوارزم جيشا آخر لغزو البلاد ، فزار مدينة الري ، واطمأن على خضوعها لنفوذه ، غير أن قتلوغ اينانج استمر في اتصاله بحاكم خوارزم ، وتحريضه على قتال طغرل ، كما اشترك الخليفة العباسي في تحريض حاكم خوارزم على القضاء على طغرل ، وأرسل اليه في ذلك العام نفسه رسولا يشكو من طغرل ، ويطلب منه قصد بلاده ومعه منشور باقطاعه البلاد ، فسار من نيسابور الى الري وتلقاه قتلوغ اينانج ومن معه قرب مدينة الري مظهرين الطاعة والولاء (٣) ، وساروا معه ، فلما سمع السلطان طغرل بوصول حاكم خوارزم أسرع للقاءه ، ودارت بين الطرفين معركة عنيفة فاصلة بالقرب من مدينة الري في منتصف عام ٥٩٠ هـ (١١٩٣ م) ، وحمل طغرل بنفسه في وسط عسكر خوارزم ، فأحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه (٢) .

-
- (١) الراوندي : راحة الصدور ، ص ٣٦٦ .
 - (٢) نفس المرجع والصفحة وحواشيها .
 - (٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٩٠ هـ .
 - (٤) الراوندي : راحة الصدور ؛ ص ٣٧١ ويذكر ابن الأثير في تاريخه في حوادث سنة ٥٩٠ هـ أن الحرب كانت في شهر ربيع الأول لا في شهر جمادى الآخرة وما ذكر الراوندي هو الصحيح لأنه كان معاصرا للأحداث .

وروى أن قتلوغ اينانج ابن عم طغرل هو الذى قام بقتله وقطع رأسه (١) ، وارسالها الى الخليفة العباسى ببغداد ، ايدانا بالقضاء على دولة سلاجقة العراق .

وسار تكش الخوارزمى بعد قتل طغرل الى همذان وفتحها بسهولة ، وجلس على عرش السلاجقة فيها (٢) فكان هذا اعلانا لانهايار دولة سلاجقة العراق على أيدي حكام خوارزم ، كما سقطت على أيديهم من قبل دولة سلاجقة خراسان .

ولم يلبث تكش أن استولى على جميع الأراضى التى كانت خاضعة لحكم سلاجقة العراق قبل سيطرتهم وأقر الخليفة العباسى الناصر لدين الله بسط نفوذ الدولة الخوارزمية على جميع الأراضى التى كانت تحت حكم السلاجقة ، وعين قتلوغ اينانج واليا على اصفهان ، وأقطع كثيرا من بلاد تلك الأقاليم لمماليكه (٣) .

وهكذا سقطت دولة السلاجقة فى ايران والعراق بعد أن بسط السلاجقة سيطرتهم عليها أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان .

وكان لايران والعراق فى العصر السلجوقى آثار واضحة فى الثقافة الاسلامية وفى ازدهار الحضارة الاسلامية فى مختلف ألوان النشاط البشرى .

والحقيقة التى لا جدال فيها أن العصر السلجوقى كان مليئا بالأحداث ، وكانت له سمات واضحة وآثار باقية فى ايران والعراق وما جاورها من بلاد آسيا الصغرى وبلاد الشام مازالت ظاهرة الى يومنا هذا .

(١) البندارى : مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص ٣١٢ ؛ الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٧٢ - ١٧٦ .
(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٣٧٥ .
(٣) نفس المرجع والصفحة ، وقد ورد ذكر استيلاء تكش على العراق فى الصفحات من ٣٧٥ الى ٤٠٣ ؛ ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٥٩٠ هـ .

وقد تلاحقت الأحداث السياسية في العصر السلجوقي بصورة تصرف
الدارس عن تسجيل غيرها من الأحداث ، حتى لا ينقطع تسلسل هذه الأحداث .
لذلك نرى من اللازم أن نختم دراستنا لایران والعراق في العصر السلجوقي
بتعريف موجز بألوان الحضارة المختلفة في ذلك العصر حتى تكتمل ملامح
صورته ، وتظهر خصائصه التي تميزه عن غيره من العصور وبالله التوفيق .

الفصل الحادى عشر

ألوان الحضارة فى العصر السلجوقى

كان للحضارة الاسلامية فى العصر السلجوقى خصائص واضحة ، وألوان مميزة عرفت بها ، وكانت هذه الخصائص والألوان واضحة فى جميع مظاهر النشاط البشرى فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، فظهرت فى ميادين الحياة المختلفة من سياسية وإدارية واجتماعية ودينية وأدبية وفنية ولا شك فى أن التعريف بألوان الحضارة الاسلامية فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى يجعل صورة هذا العصر واضحة فى التاريخ الاسلامى ، ويبين أهميته ومكانته بين عصور هذا التاريخ ، ويظهر ما ساهم به السلجوقية من نصيب فى بناء صرح الحضارة الاسلامية الراقية التى وصلت فى عصرهم الى درجة رفيعة من الرقى والازدهار ، وحقت تقدما كبيرا فى جميع الميادين ، فزهت ألوانها ، واعترف برقيها الأصدقاء والأعداء على السواء .

ونبدأ الآن التعريف بألوان الحضارة الاسلامية فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، فنعرف أولا بالجانب السياسى .

أولا : الجانب السياسى

يشمل الجانب السياسى نظم الحكم فى العصر السلجوقى فى تولى عرش السلطنة وحكم الأقاليم والوزارة والحجابه والكتابة ، وهى مناصب كبيرة فى الدولة - حينذاك - وقد كانت ذات تأثير فى توجيه سياسة الدولة ، وكانت السلطنة أعلى هذه المناصب ، ثم تتدرج المناصب الأخرى فى أهميتها وفقا لأحوال الدولة ، وشخصيات من يتولونها .

وكان لبداوة السلجوقية ، وغلبة النظام القبلى عليهم أثر واضح فى نظم الحكم التى طبقوها بعد قيام دولة لهم ، وفى بقاء هذه النظم مطبقة منذ قيام الدولة الى سقوطها .

١ - السلطنة :

أما السلطنة فقد كان يتولاها أقوى أفراد البيت السلجوقي شخصية ، وأكثرهم نفوذا ، فلم يكن هناك نظام معين لاعتلاء عرش السلطنة ، بل كان يعتليه أقواهم ، وقد وضح هذا الأمر منذ ظهور قوة السلاجقة ، فكان طغرل الأول زعيمهم الذى قاد حروبهم ثم اعتلى العرش بينما كان أخوه جغرى بك يكبره سنا ، ويعمل تحت لوائه ، ويعين حاكما من قبله على خراسان وما وراء النهر .

ولذلك كان النزاع حول عرش السلطنة يثور كلما توفى سلطان من سلاطين السلاجقة ، وكان الأمر ينتهى - دائما - بتحكيم السيف ، فيظفر المنتصر بالعرش ، مهما كانت سنه ، وظل العرش منصبا تدور حوله المنازعات ، طوال العصر السلجوقي - كما بينا - فكان النزاع حول العرش سببا من أسباب انقسام السلاجقة ، وتفكك دولتهم ، وانهارها فى النهاية .

وكان السلطان السلجوقي يمارس سلطات واسعة ؛ فيقود الجيش - ويدير المعارك الحربية ، ويعين حكام الأقاليم والوزراء والقواد والحجاب والكتبة ويعزلهم ، ويوجه سير الأمور فى دار الخلافة العباسية - فى أكثر الأحيان - ويحصل منه على لقب رفيع هو : « ركن الدنيا والدين » أو « معز الدنيا والدين » أو « مغيث الدنيا والدين » وكان هذا اللقب يقترن - غالبا - بلقب آخر هو « يمين أمير المؤمنين » أو « برهان أمير المؤمنين » أو « قسيم أمير المؤمنين » (١) .

وكان سلاطين السلاجقة يحرصون على الظفر بموافقة الخليفة العباسى على توليهم عرش السلطنة ، حتى يكتسبوا الصفة الشرعية أمام الناس ، وكان الخلفاء ضعافا من الناحية الحربية ، مما جعلهم يمنحون تأييدهم لمن يغلب من أفراد البيت السلجوقي ، أو لمن يصل منهم الى بغداد قبل غيره ، ولذلك كان الخليفة العباسى يتناقض أديانا فى قراراته - كما بينا - .

(١) ارجع الى راحة الصدر للراوندى فى بداية تعريفه بكل سلطان .

وقد ظلت موافقة الخليفة العباسي أمرا ضروريا بالنسبة للسلطان السلجوقي منذ بداية دولة السلاجقة الى نهايتها لما كان للخليفة من سلطان روحى على المسلمين من أهل السنة الذين كان السلاجقة منهم مما جعلهم يحرصون على كسب هذه الموافقة بمختلف الوسائل ، كما ظل منصب السلطان السلجوقي أرفع المناصب فى الدولة الى حين سقوطها .

٢ - حكام الأقاليم :

قسم السلاجقة دولتهم - منذ انشائها - الى أقاليم ، وعين السلطان طغرل الأول مؤسس دولة السلاجقة على كل اقليم حاكما من أفراد البيت السلجوقي ، وكان الحاكم يتخذ لقب « شاه » أى « الملك » وهو لقب أقل شأننا من لقب « السلطان » لأن حكام الأقاليم كانوا يدينون بالطاعة والولاء للسلطان الذى يملك حق تعيينهم وعزلهم ، وبخاصة حين كانت دولة السلاجقة قوية متماسكة .

وقد عين حكام للأقاليم من غير أفراد البيت السلجوقي حين اتسعت الدولة ، وصارت مترامية الأطراف ، وظلت سلطاتهم - كما حددها طغرل الأول - فكان حاكم الاقليم مستقل بإدارة اقليمه وتصريف أموره الداخلية ، كما كان له الحق فى فتح ما يستطيع الى فتحه سبيلا من المناطق المجاورة له ، وضم ما يفتحه الى حوزته .

وكان لكل حاكم من حكام الأقاليم جيشه الخاص به ، ووزيره الذى يساعده فى تصريف أمور الاقليم ومعه عدد من الموظفين على اختلاف وظائفهم ودرجاتهم للمعاونة فى تصريف الأمور وتنفيذ الأوامر .

وكانت سيطرة السلاطين شاملة على مختلف الأقاليم فى عصور قوة الدولة ، فلما ضعفت دولة السلاجقة وتجزأت ، فقد السلاطين هذه السيطرة ، فصار حكام الأقاليم مستقلين تماما فى إدارة الأقاليم وتصريف الأمور - دون رجوع الى السلطان - ووصل بعض عبيد السلاطين الى مناصب حكام الأقاليم ، وصاروا يتحكمون فى السلاطين أنفسهم وفى اختيارهم وعزلهم - كما رأينا - .

ومهما يكن من شىء فان حكام الاقليم فى العصر السلجوقي كان فى

منصب رفيع يلى منصب السلطان فى رفعتة ، وكثيرا ما كان حكام الأقاليم من أفراد البيت السلجوقى يتطلعون الى منصب السلطان - كما اتضح فيما سبق .

٣ - الوزارة :

كان منصب الوزير من أهم المناصب فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى (١) ، لأن الوزير كان يرأس جميع رجال الديوان ، ويشرف على جميع أعمال الدولة ويرأس جميع موظفيها ، مما جعل الوزير يمسك بزمام الأمور فى الدولة ، ويستطيع توجيه سياستها فى الداخل والخارج ، اذا كان الوزير قويا ، نافذ الكلمة فى الدولة .

كما كانت سلطة الوزير تمتد الى الولايات المختلفة عن طريق السلطان ، لأنه ينفذ أوامره ، التى قد يكون هو نفسه سببا فى إصدارها ، بواسطة نصحه للسلطان أو ابداء رأيه فى الأمور ، اذا استشير فيها ، وكثيرا ما كان الوزير يقوم باسناد حكم الولايات الى الأمراء وقواد الجيش (٢) ، وبخاصة فى أوقات قوة الوزير ، ونفذ كلمته فى جميع أقاليم الدولة .

وكان الوزير فى العصر السلجوقى يسمى « السيد الأعظم » (٣) وكان منصبه يساوى منصب رئيس الوزراء فى العصور الحديثة وكان يرأس جميع الدواوين التى تقابل الوزارات فى نظم الحكم الحديثة ، وكان أهمها حينذاك ديوان الاستيفاء ، وديوان الأشرف ، وديوان الأوقاف ، وديوان الانشاء ، وديوان عرض الجيش ؛ وقد ألغى السلجوقى ديوان البريد برغم ما كان له من أهمية (٤) .

(١) كان منصب الوزير من أهم المناصب فى الدولة العباسية ، وقد اقتبس العباسيون هذا النظام عن الفرس الذين ساعدوا منذ البداية فى قيام الدولة العباسية ، وظهر نفوذهم فيها منذ بدايتها الى عصر الرشيد ، ثم ضعف بعد نكبة البرامكة فى عام ١٨٧هـ ثم عاود الظهور من جديد فى عصر المأمون ، وكان أكثر الوزراء حينذاك من الفرس .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ١٢٨ - ١٣٠ .

(٣) كان لقب الوزير بالفارسية « خواجه بزرگ » أى « السيد الأعظم » .

(٤) نظامى عروضى سمرقندى : چهار مقاله ، ص ٢٣ - ٢٤ .

وكان يشرف على كل ديوان من هذه الدواوين رئيس يصرف أموره ، وكان رئيس الديوان يقابل الوزير فى نظم الحكم الحديثة ، وكان رئيس الديوان يخضع لاشرف الوزير ، مما جعل منصب وزير الدولة فى العصر السلجوقى منصبا يتنافس عليه كبار رجال الدولة - من غير أفراد البيت السلجوقى - لأهميته واتساع سلطاته ، وكونه فى الواقع المنصب التالى لمنصب السلطان فى الدولة السلجوقية كلها بمختلف أقاليمها ، فكثرت حوله التنافس ، وأدى التنافس الى تدبير المؤامرات والدسائس ضد الوزير بواسطة أعدائه الذين يتطلعون الى تولى منصب الوزارة بدله (١) .

وقد بلغ بعض الوزراء درجة من القوى والنفوذ ، مكنتهم من التدخل فى كل صغيرة وكبيرة فى دولة السلاجقة ، دون أن يخشوا العزل من جانب السلطان ، لرجحان كفته حينذاك على كفة السلطان نفسه .

وكثيرا ما أدى التنافس على منصب الوزارة الى التفكير فى التخلص من الجالس على كرسيها بالقتل ، مما جعل حياة كثير من وزراء العصر السلجوقى تنتهى بالقتل .

ويعد نظام الملك أشهر وزراء العصر السلجوقى على الإطلاق ، فقد بلغت سلطة الوزير فى مدة توليه الوزارة أعلى درجاتها ، فكان نافذ الكلمة فى كل الأمور ، وكان يسيطر على الجيش ، وعلى حكام الولايات ، وقد هدد السلطان نفسه بالعزل حين فكر السلطان فى إقالته من منصب الوزارة - كما رأينا - مما جعل منصب الوزارة هدفا يحاول رؤساء الدواوين وكبار رجال الدولة بلوغه والظفر به .

وقد نجح فى الظفر بهذا المنصب كثير من أبناء نظام الملك وأحفاده ، فساهموا بذلك فى توجيه سياسة السلاجقة فى مراحل مختلفة من تاريخهم - كما رأينا - .

(١) ازداد نفوذ الوزراء فى العصر العباسى الثانى حين ضعفت الخلافة العباسية ، فاشتد التنافس على الوزراء ، وتفشى الدس ، وانتشرت الرشوة ، ابتغاء الوصول الى الوزارة ، ارجع فى هذا الى كتاب الدكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٣ ، ص ٢٥٥ .

وقد بين نظام الملك فى كتابه « سياستنامه » أى « كتاب السياسة » أفضل النظم لحكم الولايات التى تتكون منها الدولة ، وفى تصريح الأمور المختلفة بطريقة ترضى الحاكم والمحكوم على السواء ، فسجل فى كتابه المذكور أصول المنهج الصحيح للحكم الناجح ، الذى تستقر به البلاد ، ويرضى به العباد .

وقد اشتد التنافس على منصب الوزارة طوال العصر السلجوقى فى إيران والعراق ؛ وبخاصة بعد موت السلطان ملكشاه ، وبلغ التنافس على هذا المنصب حدًا جعل الطامعين فيه ، يثير الفتن بين أفراد البيت السلجوقى ، ويشعلون نيران الحروب الداخلية بينهم ، مما أدى الى انقسام دولة السلاجقة ، وضياع قوتها ، وذهاب ريحها .

ومهما يكن من شىء ، فان منصب الوزارة فى إيران والعراق فى العصر السلجوقى كان لأهميته ذا بريق خاص يخلب أنظار كبار رجال الدولة فى هذا العصر من بدايته الى نهايته .

٤ - الحجابة :

كان منصب الحجابة من المناصب المهمة فى إيران والعراق فى العصر السلجوقى ، لأن الحاجب كان موكلًا بتنظيم الاتصال بين الناس والسلطان (١) ، مما جعل وظيفته حساسة ، وجعل منصبه من المناصب الرفيعة فى الدولة - بعد منصب الوزير - لشدة صلته بالسلطان وقربه منه ، فكان فى الواقع من أهم رجال البلاط .

وكان على رأس الحجاب فى البلاد موظف رفيع الدرجة ، هو الحاجب الأعظم (٢) ، وهو كبير الحجاب الذى يشرف على سير الأمور فى البلاد ، ويتصل السلطان به فى أمور البلاط المختلفة ، ويصل نفوذه أحيانًا الى درجة التدخل فى مختلف أمور الدولة ، وبخاصة حين ضعف السلاطين أو مرضهم أو انشغالهم بالحروب أو بمصالحهم الخاصة .

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٢) كان « الحاجب الأعظم » يلقب بالفارسية « حاجب بزرگ » .

وكثيرا ما كان الحجاب يتدخلون فى تعيين حكام الأقاليم ، فكانوا - أحيانا - يستبدون بهذه الأمور دون الوزراء ، وكان أصحاب الدواوين يرجعون اليهم فى كثير من الأمور ، ما جعل الحجاب فى كثير من الأوقات هدفا لـدسائس الوزراء ، اذا زاد نفوذهم ، وعظم استبدادهم بأمور الدولة (١) .

والواقع أن وظيفة الحاجب كانت إحدى الوظائف الكبرى فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى مما جعل منصب الحجابة من المناصب التى يكثر التنافس عليها بين كبار رجال الدولة ، وظل هذا المنصب محتفظا بأهميته من بداية العصر السلجوقى الى نهايته .

٥ - الكتابة :

كان لـبداوة السلاجقة أثر واضح فى كثرة عدد الموظفين فى الدواوين المختلفة ، وفى ظهور أهمية طبقة الموظفين وما يتمتع به أفراد هذه الطبقة من مكانة ونفوذ فى الدولة كل حسب أهمية وظيفته فى الدولة .

وكانت الدواوين - حينذاك - تقابل الوزارات فى العصور الحديثة - كما ذكرنا - وقد أدى تعدد هذه الدواوين الى تعيين طائفة من كبار الموظفين ، لمعاونة رؤساء الدواوين فى الاشراف على تصريف الأمور فى كافة ميادين الحياة المختلفة فى الدولة ، وكان كل واحد من هؤلاء الموظفين الكبار يطلق عليه لقب « الكاتب » (٢) ، مما جعل منصب الكتابة من المناصب المهمة فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى .

وكان من أشهر الكتاب فى الدولة : كاتب الرسائل وكاتب الخراج ، وكاتب الجند .

أما كاتب الرسائل فكانت مهمته تحرير الرسائل السياسية ، والأوامر السلطانية التى يريدها السلطان ، ثم اعتمادها منه ، كما كان يقوم بمراجعة

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٣ ، ص ٢٦٧ .
(٢) تقابل وظيفة الكاتب فى العصر السلجوقى وظيفة « رئيس الادارة » أو مدير الادارة فى نظم الحكم الحديثة .

الرسائل الرسمية ، ووضعها فى الصيغة النهائية ثم ختمها بخاتم السلطان ، وكان من مهمته - كذلك - الجلوس مع السلطان فى مجلس القضاء ، كما كان يتولى مكاتبة الحكام والأمراء .

أما كاتب الخراج وكاتب الجند فكان كل منهما يحرر ما يتعلق بمهام وظيفته ، فيشرف كاتب الخراج على كل ما يتعلق بالخراج وتنظيم الجانب الاقتصادى فى الدولة ، بينما يشرف كاتب الجند على أمور الجند المختلفة بما يكفل الراحة والاستقرار وانضباط الأمور بين الجند .

وهكذا كانت وظيفة الكاتب بصفة عامة ، ووظيفة كاتب الرسائل بصفة خاصة من الوظائف الكبيرة المهمة فى الدولة .

وقد حدد ابن خلدون الصفات التى ينبغى توفرها فى كاتب الرسائل فى قوله : « وأعلم أن صاحب هذه الخطة لابد من أن يتميز من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ، فانه معرض للنظر فى أمور العلم لما يعرض فى مجلس الملوك من القيام على الآداب ، والتخلق بالفضائل ، مع ما يضطر اليه فى الترسيل ، وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها(١) » .

وتعد رسائل من أهم وثائق العصر السلجوقى المغيرة فى دراسة هذا العصر دراسة صحيحة موثقة ، واللائم بمظاهر الحضارة المختلفة فيه .

ومن أشهر كتاب الرسائل فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى منتجب الدين الجوينى كاتب الرسائل فى عصر السلطان سنجر السلجوقى ، فقد حفظ هذا الكاتب كثيرا من الرسائل والأوامر السلطانية فى ذلك العصر فى كتابه المعروف « عتبة الكتبة » يستطيع الدارس للعصر السلجوقى بواسطتها أن يقف على كثير من الأمور التى كانت تجرى فى دولة السلاجقة ، وأن يعرف شيئا عن بعض وزرائهم وعلمائهم وكتابهم(٢) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢١٥ .

(٢) ارجع الى عتبة الكتبة لمنتجب الدين الجوينى ، طبع طهران ، ١٣٢٩ هـ .
شمسية .

والشئ الذى لاجدال فيه أن منصب الكتابة كان من المناصب المرموقة فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، لما كان يتمتع به الكاتب من مكانة لقربه من السلطان ، واتصاله المباشر بأمور الدولة المختلفة ، مما جعل الكتابة من المناصب التى يكثر التنافس عليها .

* * *

ثانيا : الجانب الادارى

١ - حكم الأقاليم :

كانت دولة السلاجقة فى ايران والعراق تتكون من عدد من الأقاليم ، وكانت ادارة هذه الأقاليم متأثرة متأثرا واضحا بالنظم القبلية التى تجعل الحاكم يستأثر بادارة الاقليم الذى عين حاكما عليه ، دون تدخل من جانب السلطان فى تنظيم الاقليم وتصريف أموره الداخلية ، فحاكم كل اقليم كان مستقلا استقلا تاما فى ادارة أمور اقليمه ، مع اعلانه الطاعة والولاء للسلطان ، وقد ظل حكام الأقاليم مستقلين بادارة أمور أقاليمهم فى أوقات قوة دولة السلاجقة ، وفى أوقات ضعفها على السواء .

وكانت دولة السلاجقة - وهى فى أوج قوتها - تضم أقاليم عديدة ، أشهرها خراسان وما وراء النهر وبست وهرات وسجستان وكرمان وهمدان ، وأبهر وزنجان وأذربيجان ، والرى واصفهان وفارس ، وبلاد الشام ، وآسيا الصغرى .

وكان أفراد البيت السلجوقى يحاولون الاستئثار بحكم الأقاليم ولكن هذا لم يمنع من تعيين حكام للأقاليم من غير أفراد البيت السلجوقى من كبار رجال الدولة ومن قواد الجيش .

وكان حاكم الاقليم يستعين بعدد من الموظفين فى ادارة أمور اقليمه ، وكان يتخذ - أحيانا - وزيرا له يشرف على هذه الادارة ، كما كان يتخذ الجنود ، ويستعين بالمقبائل فى تكوين جيش له ، ليحمى به حدود اقليمه ، ويرد به كيد أعدائه ، ويوسع به سيطرته على الأراضى المجاورة لاقليمه اذا وجد الى ذلك سبيلا ، فكان لكل حاكم جيش تابع له ، مختص به .

ولما ضعفت الدولة السلجوقية بعد موت ملكشاه ، قبل ولاء حكام الأقاليم للسلطان السلجوقي ، وانعدام الترابط والانسجام بين أجزاء الدولة السلجوقية ، فلم يعد هناك نظام معين لحكم الأقاليم ، بل صار كل حاكم يصرف أمور اقليمه حسبما يتراءى له . .

وظهرت أهمية المدن والثغور حين انعدام الترابط بين الأقاليم ، وازدادت هذه الأهمية بمرور الزمن ، حتى صار حكام المدن والثغور كحكام الأقاليم ، يصرف كل منهم أمور مدينته دون الرجوع الى سلطة ادارية أعلى منه ، وسجلت الكتب التي روت تاريخ السلاجقة أخبار بعض المدن وبخاصة ما كان منها ثغورا ، كما سجلت أعمال حكامها مثل مدينة مرو ومدينة الري ومدينة تبريز ومدينة مراغه ومدينة گنجه .

وكانت الثغور تؤدي واجبا دينيا مقدسا ، هو التصدي لاعداء الاسلام والمسلمين ، وصددهم عن البلاد الاسلامية مما أضفى عليها وعلى حكامها أهمية كبيرة ، وجعل ولاية الثغور موضع تقدير المسلمين ، ومدح الشعراء والكتاب (١) ، لسهرهم على حراسة بلاد المسلمين ، وحسن بلاتهم في قتال أعداء الدين .

وهكذا انعدم الترابط الاداري بين أجزاء دولة السلاجقة بعد ضعف سلاطينها ، وانتشار الفتن والحروب الداخلية في أرجائها ، فاستقل حاكم كل جزء بتصريف الأمور في منطقته كل حسب قوته ونفوذه والظروف المحيطة بمنطقة .

* * *

٢ - الدواوين :

كانت الحاجة الى الدواوين ماسة في العصر السلجوقي ، لأن دولة السلاجقة كانت تضم ولايات كثيرة ، مما جعل كل ولاية في حاجة الى موظفين وديوان يشرف على ادارة الأمور فيها .



(١) ارجع الى كتاب نظامي الكنجوى للمؤلف ص ٥٨ وما بعدها لمعرفة معلومات أكثر عن هذا الموضوع .

وكان سلطان السلاجقة يشرف على ادارت الولايات جميعها فى اوقات قوة الدولة وتماسكها ، بمساعدة وزيره ورؤساء الدواوين التابعة له .

وقد أدت كثرة الدواوين (١) الى استعمال كثير من الموظفين ، غير أن الادارة فى دولة السلاجقة لم تعين الحدود الفاصلة بين هذه الدواوين ، وتحدد عمل كل منها بدقة ، نظرا لبداوة السلاجقة ، وتأثير النظام القبلى فيهم ، مما جعلهم لا يلتزمون بتطبيق نظم ادارية معينة .

وكان ديوان البريد من الدواوين ذات الأهمية فى الدولة العباسية ، غير أن السلاجقة ألغوا هذا الديوان ، ولم يفتنوا الى أهميته ، لأن فى استطاعة رئيس هذا الديوان أن يراقب العمال ، ويتجسس على الأعداء ، فكان صاحب البريد فى الدولة العباسية عينا للخليفة ينقل أوامره الى ولاته وعماله ، كما ينقل أخبار هؤلاء اليه (٢) .

وكان وجود الدواوين المختلفة نظاما اداريا متبعاً قبل السلاجقة ، وكان لازماً لتصريف أمور الدولة المختلفة ، كما كان لازماً لتصريف الأمور فى كل اقليم من أقاليمها ، غاية الأمر أن بداوة السلاجقة جعلتهم محتاجين الى عدد كبير من الموظفين ، مما جعل طبقتهم مميزة ، وجعل العمل فى الدواوين من الأعمال التى يتنافس الناس على الظفر بها .

٣ - الشرطة :

كان الشرطة عصب الجهاز الادارى فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، وكان رجال الشرطة يحافظون على النظام ، ويعملون على استتباب الأمن فى ربوع دولة السلاجقة المترامية الأطراف بصورة عامة ، وفى كل اقليم ومدينة كبيرة فى الدولة بصورة خاصة .

وكان لكل أمير من أمراء السلاجقة حرس وأتباع ، يرأسهم شخص عظيم الرتبة يسمى « أمير الحرس » ، كانت وظيفته الاشراف على أفراد

(١) كان الديوان أشبه بالوزارة فى العصور الحديثة - كما ذكرنا - وكان رئيسه أشبه بالوزير كذلك ، وكانت طبقة الموظفين من الطبقات المميزة ذات النفوذ فى سائر أقاليم الدولة .

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٣ ، ٢٧٢ .

الحرس ، لضمان حسن أدائهم لوظيفتهم ، ونجاحهم فى المحافظة على النظام والاستقرار .

وكان حكم المدن الكبرى المهمة فى الدولة ، يركل - من الناحية الادارية - الى شخص يسمى « صاحب الشرطة » كان يشرف على سير الأمور فى المدينة ، ويحافظ على النظام فيها ، ويقضى على المنحرفين والعابثين بالأمن والنظام ، فكانت وظيفته - بذلك - من الوظائف الادارية ذات الأهمية فى الدولة السلجوقية ، مما جعلها تنفق على رجال الشرطة بسخاء ، فتمنحهم أجورا كبيرة ، تكفل لهم حياة كريمة مريحة .

وكان العباسيون كذلك - يهتمون بالشرطة ، ويختارون صاحب الشرطة من علية القوم ، ومن أهل العصبية والقوة (١) وكان رجال الشرطة يتولون تنفيذ أحكام الجرائم فى حالة استبرائها ، ثم يتولون تنفيذ الحدود بعد استيفائها ، مما جعل للشرطة أهمية كبيرة فى التنظيم الادارى فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى .

* * *

ثالثا : الجانب الروحى

كان للجانب الروحى اعتبار كبير فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى لأن السلاجقة كانوا مسلمين متمسكين بالمذهب السنى ، حريصين على كسب تأييد الخليفة العباسى لهم ولحكمهم ، ليكون هذا الحكم شرعيا فى نظر الناس ، ليلتفوا حولهم ، ويناصروهم ، وكان الخليفة يتمتع بقوة روحية كبيرة ، باعتباره امام المسلمين فى جميع الأقاليم التى يكثر فيها أتباع المذهب السنى .

وقد عاصر حكم السلاجقة - فى ايران والعراق وأجزاء من بلاد الشام وآسيا الصغرى - حكم الفاطميين الشيعة فى مصر ، وفى أجزاء من شمالى افريقية وبلاد الشام ، وشهد نفوذ الشيعة فى أجزاء من ايران - ممثلين فى سماعيلية بزعامة الحسن بن الصباح ، وشهد كذلك سيطرة الصليبيين

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٣ ، ص ٢٧٨ .

على أجزاء من آسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين ، واستيلاءهم على بيت المقدس .

وشهد حكم السلاجقة – قبل نهايته – سقوط الدولة الفاطمية فى مصر والشام ، واضعاف نفوذ الاسماعيلية فى ايران ، وانحسار النفوذ الصليبي عن بيت المقدس وكثير من الأجزاء التى سبقت لهم السيطرة عليها كما ذكرنا .

وهكذا كان للجانب الروحى بأنواعه المختلفة أثر واضح فى توجيه سير الأحداث فى العصر السلجوقى ، وفى ألوان الحضارة فى هذا العصر ، مما جعل الفرق الدينية كثيرة فيه ، وأدى الى كثرة المنازعات بين هذه الفرق ، ووصلت المنازعات – أحيانا – الى درجة الاقتتال بين الفرق فى حروب طاحنة متكررة .

كان لهذه الأحوال أثر فى حياة الناس الدينية ، فشاع بينهم التعصب ، وانتشرت بينهم الخرافات ، ومال فريق منهم الى التصوف ، مؤثرا العزلة والانزواء ، بعيدا عن الفتن والحروب .

وهكذا كانت المعسكرات الدينية المتباينة سببا فى جعل حياة الناس النفسية قلقة مملوءة بالخوف والاضطراب وبلبلة الأفكار ، مما أشاع النفاق ، نتيجة لضعف الخلافة السنية والشيوعية على السواء ، وعجزها عن الاشتراك فى توجيه سير الأحداث من دولهما ، واقتصار نفوذهما على الجانب الروحى فى حياة الناس .

أما المعسكر الصليبي فكان مناهضا للمعسكرين السنى والشيعى ، فكان همه السيطرة على بلاد المسلمين أيا كان مذهب الحكام فيها .

كما كان المعسكر الاسماعيلى الشيعى فى ايران مصدر قلق وخوف لأهل السنة ، لأن الاسماعيلية كانوا يبيحون دماء مخالفيهم من أهل السنة ، ويرسلون الفدائيين لاغتيال كبار رجالهم من الوزراء والسلاطين والخلفاء ، مما جعل حياة الناس – فى دولة السلاجقة – تضطرب اضطرابا شديدا (١) .

(١) ارجع الى نظامى الكنجوى للمؤلف ، ص ٥٢ – ٦٢ للحصول على معلومات أكثر تفصيلا فى هذا الموضوع .

رواج التصوف :

وقد ساعد ماراج حياة الناس من قلق واضطراب على رواج سوق التصوف فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، وكان ذلك نتيجة لما ساد الحياة السياسية من اضطراب ومنازعات وحروب ، وما شاع من تعصب وخرافات ، وما انتشر من نزاع بين الفرق الاسلامية المختلفة ، ومن عداوة أهل العلم بعضهم للبعض الآخر ، ومن غلبة الجفاف على المباحث العلمية ، ومن استخدام العلم والفلسفة أداة للمجادلات المذهبية ، وجعل المباحث العلمية محصورة داخل نطاق الاحساسات المذهبية(١) .

وهكذا انحرف العلم عن هدفه الحقيقى الذى هو البحث عن حقائق الأشياء ، وتقرير هذه الحقائق ، فشاع ضيق النظر والتعصب ، واتخذت الحكمة والفلسفة خادمتين لمجادلات أصحاب المذاهب ومناظراتهم .

وقد وضحت هذه الظاهرة فى القرن الخامس الهجرى ، حين كثرت الفرق الاسلامية ، وتعددت الحروب بين أهل السنة والشيعة ، وحاول كل من الطرفين ترويج مذهبهِ والانتصار على مخالفيه ، كما حاول كل فريق أن يسفك دماء أفراد الفريق المعادى له ، وكان يعد هذا العمل من الأعمال التى يرضى الله عنها ، ويثبت عليها .

وقد ثار الغزالى(٢) فى أواخر ذلك القرن فى وجه الفلاسفة وأخذ يسفه أحلامهم ، ويكفرهم فى كتابه « تهافت الفلاسفة »(٣) كما ذكر القفطى أن معاصرى عمر الخيام تناولوه بالقدح فى دينه ، حتى ترك نيسابور وذهب الى الحج ، وكان بعد رجوعه من مكة يخفى أسرارهِ ، ويتظاهر برعاية ظواهر الشرع(٤) .

وقد اشتد النزاع المذهبى بين الشيعة والسنة(٥) والمعتزلة والأشاعرة ، كما ظهر نزاع بين مذاهب أهل السنة ، وبخاصة بين الشافعية والحنفية ،

-
- (١) قاسم غنى : تاريخ تصوف در اسلام ، ص ٤٦٤ .
 - (٢) الغزالى بتشديد الزاى هى النسبة الصحيحة الى غزال من الغزل .
 - (٣) الغزالى : تهافت الفلاسفة ، ص ٣ - ٤ .
 - (٤) القفطى : تاريخ الحكماء ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .
 - (٥) أشار ابن الأثير فى تاريخه فى حوادث سنة ٤٠٨ هـ الى النزاع بين أهل =

وقد تكرر هذا النزاع بين الحدين والحدين طوال القرن الخامس الهجرى ،
وكان النزاع يتطور الى درجة اشتعال نيران الحرب بين الفرق المختلفة
أحيانا (١) .

وهكذا استمر النزاع بين الفرق الاسلامية ، وأصحاب المذاهب المختلفة
وساعد انقسام السلاجقة ، وتجزؤ دولتهم فى القرن السادس الهجرى ،
واشتعال الحروب بين أفراد البيت السلجوقى ، على بلبله الأفكار وتفرق
المسلمين ، مما مهد السبيل أمام الصوفية لنشر تعاليمهم بين الناس (٢)
الذين مال كثير منهم الى العزلة ، والتقرب الى الله عن طريق الزهد
والتقشف .

وكانت الظروف تساعد على رواج سوق التصوف ، فقد كان الصوفية
موضع احترام الناس والأمراء والسلاطين ، فانتشر التصوف ، وكثر
التمسحون به ، وكان السلاجقة لبدائتهم يعجبون بالمظاهر البراقة ، فراقهم
مظهر طوائف الصوفية ، وأعجبوا بتصرفات شيوخها ، فزاد احترامهم
لهم (٣) ، وكان السبب فى ذلك أن الصوفية يظهرون الزهد فى الدنيا وحطامها
الزائل ، ويبتعدون عن مصاحبة الملوك والأمراء ، وأصحاب الجاه والسلطان ،
ولا يتدخلون فى النزاع بين الفرق المختلفة ، ويحرصون على اتباع سياسة
السلام مع الجميع (٤) .

= السنة وأهل محلة الكرخ الشيعية ، ثم تحدث فى حوادث عام ٤٣٣هـ
عن النزاع بين أهل السنة والشيعية ، وتخريب أهل السنة منازل
الشيعية وأبنيتهم ، حتى قبور كاظمين ، وذكر مثل هذا النزاع فى
حوادث عام ٤٤٤هـ وقال أنه امتد الى عام ٤٤٥هـ . مما يدل على
استمرار النزاع بين الفرق الاسلامية والمذاهب المختلفة .

- (١) قاسم غنى : تاريخ تصوف در اسلام ، ص ٤٦٨ .
- (٢) ارجع الى كتاب نظامى الكنجوى للمؤلف ، ص ٥٧ - ٧١ ، للامام
بتفصيلات أكثر عن هذا الموضوع .
- (٣) ارجع الى راحة الصدور للراوندى ، ص ٩٨ - ٩٩ فقد ذكر احترام
طغرل الأول لبابا طاهر العريان أحد مشايخ الصوفية وشعرائهم فى
فى همذان حين دخول طغرل هذه المدينة . واستماعه الى نصائحه .
- (٤) قاسم غنى : تاريخ تصوف در اسلام ، ص ٤٧٣ - ٤٧٥ .

وقد اشتد النزاع بين هذه الفرق فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، وازدادت الخلافة العباسية ضعفا ، وكثرت غارات الصليبيين على بلاد المسلمين ، وزاد الانقسام فى دولة السلاجقة فاضطربت الأحوال فى العالم الاسلامى ، وساعد اضطراب الأحوال على انتشار التصوف ، وازدياد سوقه رواجاً ، اذ خيل للناس حينذاك أن تعاليم الصوفية فيها تهذيب للنفوس ، وراحة للقلوب من التكالب على ماديات الدنيا الفانية ، فى وقت قل فيه التمسك بالمثل الأخلاقية الرفيعة ، وشاع فيه التعصب وضيق النظر ، كما شاع فيه الغلو فى طرح الخلافات المذهبية على بساط البحث والمجادلة العنيفة .

وهكذا أدى اضطراب الأحوال فى البلاد الاسلامية الى قلق الناس وخوفهم ، وتزلزل الروح المعنوية بينهم ، مما أدى الى ضعف الأخلاق ، والتمسك بالفضائل بصورة واضحة ملموسة تحدث عنها الشعراء والكتاب فى القرن السادس الهجرى بكثرة ، بحيث يستطيع الدارس أن يلمس كثرة الحديث عن انعدام المروءة ، وضياع الوفاء ، وابدال الأمانة بالخيانة ، والمحبة بالعداوة ، والانسانية بالجفاء ، كما كثر الحديث عن تحيز العلماء ، وابتلاء الفضلاء ، وزم الاختلاط ، والدعوة الى الوحدة والانزواء (١) .

وقد أدى فساد الأخلاق الى انشغال الناس بأمورهم الشخصية ، والترويج لبضاعتهم ، عن طريق اظهار العلم والفضل ، والشكوى من بقاء قدر الواحد منهم مجهولاً (٢) ، بينما علا شأن من هو أقل علماً وشأناً ، فانتشر الهجاء والقذح الى جانب مدح النفس ، واختفت المبادئ القويمة ، والمثل الرفيعة فى أكثر الأحيان .

أوجدت روح العصر شيئاً من السأم ، فصار الناس يميلون الى جو فيه — — — وراحة بال ، وخیل للناس أن الجنوح الى التصوف يهينهم لهم الجوى الذى ينشدونه ، لأن شيوخ الصوفية كانوا يبدون فى صورة دعاة للإصلاح

(١) قاسم غنى : تاريخ تصوف در اسلام ، ص ٤٨٧ .

(٢) نظامى گنجوى : گنجنه گنجوى ، ص ١١٧٤ — ١٧٩ ؛ قاسم غنى : تاريخ تصوف در اسلام ، ص ٤٨٩ .

والصفاء ، والعدل والوفاء ، والبعد عن التعصب والبغضاء ، فذيل للناس أنهم عامل ملطف فى جى ملغهم بالأحداث المختلفة ، والتيارات المتعارضة ، فهرع كثير من الناس الى حظيرة التصوف هربا من عواصف الأحداث ، وتقلب الأحوال ، وعدم الاستقرار وكثرت مجالس الصوفية ، وأقبل الناس عليها ليقضوا سويغات فى صحبتهم بقلب فارغ (١) .

وهكذا ساعد تقلب الحياة السياسية فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى الى رواج سوق الصوفية ، والى اضعاف عزائم المسلمين ونشر التواكل بينهم ، فمال كثير منهم الى الزهد والميل الى الخلوة والاعتكاف والانقطاع عن الحياة ، بحجة التفرغ لعبادة الله ، وازدادت هذه الرغبة بين المسلمين فى أواخر العصر السلجوقى ، وظلت فى ازدياد مستمر فى العصور التالية لهذا العصر ، فدخل المسلمون مرحلة سبات عميق ، ظلوا غرقى فيه ، الى أن أفاقوا منه فى العصر الحديث ، فأخذوا يعملون على استعادة قوتهم وعزتهم وأمجادهم ، ليلحقوا بركب الدول المتقدمة ، ولتصبح حضارتهم - كما كانت - حضارة انسانية راقية كريمة فريدة فى تاريخ البشرية .

* * *

رابعاً : الحياة الاجتماعية

كان السلاجقة - كما ذكرنا - قوما تغلب عليهم البداوة ، فظهر أثرها فى التنظيم الاجتماعى فى ايران والعراق فى عصرهم ، ووضح هذا الأثر فى طبقات المجتمع المختلفة ، وفى مظاهر الحياة الاجتماعية بألوانها المتنوعة .

- طبقات المجتمع :

أما طبقات الشعب فكان أهمها طبقة السلاطين وحكام الأقاليم ثم طبقة القواد وأمراء الجند ثم طبقة الموظفين ؛ وكان السلطان يرأس أفراد هذه الطبقات ، كما كان - دائماً - من أفراد البيت السلجوقى .

(١) قاسم غنى : تاريخ تصوف در اسلام ، ص ٥٠١ .

وكان السلاجقة قبل قيام دولتهم يغلب عليهم الميل الى التنقل والارتحال ، فلم يكونوا يألّفون حياة المدن (١) ، فلما قامت دولتهم ، غيروا أسلوب حياتهم ، فسكنوا المدن وبنوا الدور والقصور ، وعاشوا حياة اجتماعية تختلف مظاهرها كثيرا عن مظاهر حياتهم البدوية قبل قيام الدولة السلجوقية .

وقد حكام الأقاليم السلاطين ، كما قلدهم القواد وأمراء الجند والوزراء والحجاب وكبار الموظفين ، فأخذوا يعيشون عيشة مترفة ناعمة ، تتفق مع ما تحقق لهم من جاه وثراء .

وكان كثير من سلاطين السلاجقة غير مثقفين (٢) ثقافة تتفق مع ازدهار الثقافة الاسلامية ورقيتها في ذلك العصر ، فوجدوا أنفسهم في حاجة ماسة الى كثير من الموظفين للاستعانة بهم في مختلف الأمور (٣) ، فصارت طبقة الموظفين من أظهر طبقات المجتمع وأهمها ، وكان نفوذ أفرادها يختلف باختلاف مناصبهم ومدى اتصالهم بالسلطان السلجوقي ، فكان الوزراء والحجاب والكتاب أكثر الموظفين نفوذا وظهورا في المجتمع حينذاك ، واستطاع بعضهم أن يوجه سير الأحداث السياسية وغير السياسية في الدولة السلجوقية ، وأن يكون تأثيره على السلاطين أنفسهم ، كما بينا .

وقد ظهرت طبقة أبناء القبائل السلجوقية ، وساعد على ظهورها وفود عدد من القبائل السلجوقية الى ايران وغيرهما من الأقطار الاسلامية ، واضطرار سلاطين السلاجقة - أديانا - الى اعطاء أفراد هذه القبائل مرتبات كالجنود سواء بسواء ، وكثيرا ما كان أفراد هذه الطبقة مصدر قلق اضطراب في المجتمع حين كان السلاطين ، لا يدفعون لهم مرتباتهم (٤) ، وكان وجود القبائل سببا في الابقاء على النظم القبلية ، فظهرت في بعض مظاهر الحياة المختلفة .

-
- (١) نظامى عروضى سمرقندى : چهار مقاله ، ص ٢٣ - ٢٤ .
(٢) سلاطين السلاجقة أميين لا يعرفون القراءة ، والكتابة مثل منجر كما ذكر نظامى عروضى سمرقندى في كتابه چهار مقاله ، وكان معاصرا له .
(٣) برتلس : نظامى شاعر آذربيجان ، ص ١٣ .
(٤) المرجع السابق ، ص ١٤ .

كما كانت طبقة رجال الصوفية من طبقات المجتمع المهمة في العصر السلجوقي ، وكان لأفراد هذه الطبقة تأثير واضح في حياة الناس الاجتماعية، فقد انتشر بينهم الميل الى الاعتكاف ، وحب الوحدة ، هربا من حياة القلق والاضطراب التي أوجدها اضطراب الحياة السياسية في إيران والعراق في القرن السادس الهجري ، مما أدى الى انتشار الشك ، واختفاء المثل الأخلاقية الرفيعة ، والشعور بالحاجة الى اصلاح المجتمع .

وقد ظهرت في الثغور فرقة صوفية ، أطلق أفرادها على أنفسهم اسم « الأخية الفتيان » ، وكان هؤلاء الأخية يدعون الى الاصلاح بالقوة اذ الزم الأمر ؛ كالضرب على أيدي الظلمة ، وقتل الشرطة ومن لحق بهم من أهل الشر ، وتقديم المساعدة للمحتاجين ، والوقوف في وجه الحكام الظالمين ، وكانت تعاليم هذه الفرقة أكثر تمشيا مع سكان الثغور ، فانضوى كثير منهم تحت لوائها(١) .

وهكذا أوجدت غلبة العنصر السلجوقي ظواهر اجتماعية وضحت في إيران والعراق ، وظهرت آثارها في حياة الناس الاجتماعية في العصر السلجوقي ، وكان من أبرز هذه الظواهر كثرة عدد الرقيق في المجتمع السلجوقي .

وقد انتشر اتخاذ الرقيق انتشارا كبيرا في العصر السلجوقي ، وكانت سمرقند من أكبر أسواق الرقيق ، كما كانت بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر ، وكان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها(٢) .

ولم ينظر الخلفاء العباسيون الى الرقيق نظرة ازدراء ، لأن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق ، وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الاماء من غير العرب ، حتى انهم كانوا يفضلونهن - أحيانا - على العربيات الحرائر(٣) .

(ابن بطوطة : رحلته ج ١ ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٢) متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ص ٢٦٨ .

(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ٤٢٤ .

وقد ظهرت طبقة الرقيق فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ظهورا ملموسا ، لأن كثيرا من هؤلاء الرقيق ، وصلوا الى درجة الامارة ، وكونوا دولا ، ساهمت فى توجيه سير الأحداث فى العالم الاسلامى - كما ذكرنا - .

ومن طبقات المجتمع - فى ذلك العصر - أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود الذين كانوا يعيشون فى ايران والعراق ويتمتعون بكثير من ضروب التسامح الدينى ، ويقيمون شعائرهم الدينية فى حرية وأمن ، لما عرف به المسلمون من تسامح مستمد من مبادئ الاسلام القويمة ، فلم تتدخل الحكومة الاسلامية - فى وقت من الأوقات - فى شعائر أهل الذمة (١) وقد أصبحت طبقة أهل الذمة تضم المجوس الى جانب النصارى واليهود ، بعد أن اعترف المسلمون بهم أهل ذمة ، فعاملوهم معاملة النصارى واليهود ، وقبلوا منه رفع الجزية ، وقد عاش عدد من المجوس فى العراق وجنوبى ايران (٢) فى العصر السلجوقى وتمتعوا بحياة حرة آمنة فى ظل التسامح الاسلامى .

* * *

٢ - مظاهر الحياة الاجتماعية :

كان أهم مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية فى ايران والعراق فى عصر الدولة السلجوقية ، انغماس السلاطين وكبار رجال الدولة فى الترف ، ان كانوا يعيشون عيشة تتسم بالبذخ والأنبهة ، لأن اتساع الدولة يسر لهم سبل الحياة المترفة الناعمة .

وقد شغف السلاجقة بسكنى القصور الفاخرة ، بعد قيام دولتهم واستقرارهم وتركهم حياة البداوة والتنقل ، وتفننوا فى تجميل قصورهم ، فكانت قصور السلاطين مضرب المثل فى الزوعة والجمال ، وكانت لهم مجالس للطرب والغناء والشرب ، ولم تقتصر مجالس الغناء والطرب على السلاطين بل قلدهم فيها الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة ، وساعد على انتشار

(١) ح : تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ٤٢٤ .
(٢) الم : من التقاسيم فى معرفة الاقليم ، ص ١٢٦ .

الغناء وجود عدد كبير من الجوارى المدربات على الغناء مما جعل أكثر السلاطين وعظماء الدولة يولعون بالشراب وسماع المغنيات (١) .

كما تأنقوا فى مآئدهم ، فأسرفوا فى الطعام ، وأولعوا بتنوعه ، وتفننوا فى أعداده ، وفى تنوع ألوانه ، وفى تزيين الموائد بالورود والرياحين .

وكانت القصور آية فى روعة البناء ، وحسن التنسيق ، وجمال التأثيث ، وبديع التزيين ، كما كانت محاطة بالحدائق الغناء ، ذات الأناقة والبهاء .

وقد أدى انغماس السلاطين وكبار رجال الدولة فى أنوان الحياة المترفة الى اصابتهم بالأمراض المهلكة التى قضت على كثير منهم فى سن الشباب ، نتيجة الانكباب على الملذات والشهوات ، وعدم التوسط فى ممارسة ألوان الحياة المختلفة ، كما أمرت بذلك تعاليم الإسلام التى دعت المسلمين الى أن يكونوا أمة وسطا ، والى أن يأكلوا ويشربوا دون أن يسرفوا .

وقد سمح السلاجقة لشخصيته المرأة بالظهور والمشاركة فى الأحداث بصورة سافرة ، فاشتركن فى اختيار الوزراء ، وإدارة الحروب ، وتدبير المؤامرات ضد الخصوم ، من أشهر النساء اللاتى ظهرت شخصياتهن فى العصر السلجوقى ، ترکان خاتون زوجة ملكشاه المفضلة ، وزبيدة خاتون إحدى زوجات ملكشاه وأم ابنه الأكبر بركيارق ، والخاتون زوجة الأتابك محمد جهان بهلوان ثم زوجة الأتابك قزل أرسلان ، ثم زوجة السلطان طغرل الثالث آخر سلاطين دولة سلاجقة العراق .

وكان تعدد الزوجات من الأمور المألوفة فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، فكثير الأبناء الأخوة من أمهات مختلفات وكانت صلة الأم بالأب ذات أثر واضح فى التمييز بين الأبناء ، مما كان له تأثير فى صلات الأبناء بعضهم ببعض وفى توجيه سير الأحداث فى كثير من الأحيان .

كما كثر عدد الجوارى ، وصار كثير منهن زوجات للسلاطين وكبار

(١) ارجع الى مكتبته الراوندى فى راحة الصدور عن الشراب ، ص ٤١٦ - ٤٢٨ .

الدولة ، وأمّهات لبعض سلاطين السلاجقة(١) ، كان لهذه الظاهرة أثرها فى المجتمع السلجوقى ، وفى الحياة الاجتماعية فى إيران والعراق فى ذلك العصر .

وكان من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى العصر السلجوقى رواج سوق الألعاب الرياضية ، فراجت ممارسة الناس للرماية ولعب السيف والترس ، وسباق الخيل والصيد ولعب الكرة والشطرنج(١) ، كما كان من أهم مظاهرها انتشار مجالسى الشراب والمناذمة ، حتى أصبحت للمناذمة أصول ، وصارت مهنة لها أرباب محترفون .

وهكذا كانت للحياة الاجتماعية مظاهر متميزة فى ظل الدولة السلجوقية، ووضحت هذه المظاهر فى إيران والعراق فى ذلك العصر بصورة ملموسة ظهرت آثارها فى ألوان النشاط البشرى الأخرى فى العصر السلجوقى .

* * *

خامسا : الحياة الاقتصادية

كانت الحياة الاقتصادية فى إيران والعراق مزدهرة فى العصر السلجوقى ، فقد نشطت التجارة والصناعة ، ووصل تجار المسلمين الى الصين شرقا ، وكان من أهم طرق التجارة فى ذلك العصر طريق الحرير العظيم الذى كان يمر بسمرقند وتركستان الصينية وكانت هناك قوافل متعددة لنقل البضائع المختلفة .

كما ازدهرت الصناعات اليدوية كصناعة السجاد والنسيج الموشى والحرير والمنسوجات الصوفية وغيرها من أدوات الفرش والأثاث وأوانى المطبخ ، وكانت أنوال فارس والعراق الكثيرة تنتج أنواع السجاجيد الفاخرة التى كانت تعد أفخر أنواع السجاد حينذاك .

(١) من هؤلاء السلاطين على سبيل المثال السلطان محمد بن ملكشاه وأخوه السلطان سنجر .

(٢) ارجع لمعرفة المزيد عن الألعاب الرياضية فى العصر السلجوقى الى الفصول التى كتبها الراوندى فى كتابه راحة الصدور عن المناذمة ولعب الشطرنج والرماية والصيد ، ص ٤٠٥ - ٤٣٧ .

وقد اشتهرت خراسان وأرمينية بأغطية الفرش والستائر وأغطية المقاعد
والمساند ، واشتهرت بخارى بسجادها الفاخر .

كما ازدهرت صياغة الجواهر ، وكان اللؤلؤ والياقوت الأزرق والأحمر
والزمرد والماس من الأشياء التي يرغب فيها السلاطين والعظماء .

وقد ساعد على ترويح هذه الصناعة غنى الدولة بالمعادن فكان الذهب
والفضة يوجدان في خراسان ، كما كان الرخام والزئبق يوجدان فيها ، وكان
الياقوت واللاجورد يستخرجان من إقليم ما وراء النهر (١) ، ووجد الرصاص
والفضة في كرمان (٢) ، ووجد الفيروز في نيسابور ، واستخرج اللؤلؤ من
البحرين .

وازدهرت الزراعة في خراسان وسجستان وما وراء النهر ، وعرفت
الصناعات الزراعية بعامة ، وصناعة العطر بخاصة في اقليم فارس .

وهكذا شهدت ايران والعراق في العصر السلجوقي تقدما اقتصاديا
كبيرا ، ظهرت آثاره في حياة الناس ، فكان كثير منهم يعيش عيشة مترفة
ناعمة .

* * *

سادسا : الناحية الثقافية

١ - مراكز الثقافة :

اتسع أفق الفكر الاسلامي - في ايران والعراق - في العصر السلجوقي
اتساعا كبيرا ، فكانت ملكات المسلمين في البحث والتأليف قد بلغت درجة
عظيمة من النضج ، نتيجة لحركة الترجمة التي نشطت في الدولة العباسية
قبل قيام الدولة السلجوقية بأكثر من قرنين من الزمان ، وكثرة تنقل رجال
العلم والأدب في مشارق العالم الاسلامي ومغاربه في ذلك الوقت ،
فنشطت الحركة الفكرية ، وراجت سوق الثقافة ، وكثر العلماء والأدباء .
كما ساعد وجود الفرق الدينية المختلفة - على تنشيط الفكر العلمي ،

(١) حتى وجرى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٤٢١ - ٤٢٧ .

(٢) ابن الفقيه الهمداني : البلدان ، ص ٢٠٦ .

لأن هذه الفرق اتخذت العلم وسيلة لترويج تعاليمها ، ومحاولة الاقناع بصحة هذه التعاليم ، وكان الجدل الذى ثار بين هذه الفرق من وسائل ترويج سوق الثقافة فى ذلك العصر ، وأوضح دليل على صحة ذلك الآثار العلمية الوفيرة التى خلفها علماء الفرق الدينية المختلفة ، برغم ما أحدثته هذه الفرق من انقسام بين المسلمين ، واضعاف لقوتهم ، واضعاف للخلافة العباسية (١) .

وكان طلاب العلم يجوبون البلاد سعياً الى موارد العلم والمعرفة ، مما يسر للدارسين الأخذ بحظ وافر من العلوم المختلفة من نقلية (٢) وعقلية (٣) ، مما أثمر تقدماً علمياً ملموساً فى سائر العلوم المعروفة فى ذلك العصر .

وتعد المدارس النظامية التى أنشأها الوزير السلجوقى المعروف نظام الملك أول نوع من المؤسسات العلمية بمعناها الصحيح ظهر فى ظل الاسلام (٤) ، فقد هيات هذه المدارس لطلابها أسباب العيش والتعليم ، وصارت مثالا لما قام بعدها من دور العلم ومراكز الثقافة العالية .

وقد شجع السلجقة بناء المدارس النظامية ، وتنافسوا فى تكريم العلماء والمتخصصين فى كل علم وفن حتى يذيع صيتهم وتذكر أسمائهم فى مقدمات الكتب ، وفى قصائد الشعراء وكتابات الكتاب ، مما زاد الحياة الثقافية فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى تقدماً وازدهاراً .

وقد خصصت المدارس النظامية لتعليم الفقه ، ولاسيما أصول الفقه الشافعى ، وكان طلابها يتناولون الطعام فيها ، وتجزى على كثير منهم رواتب شهرية .

وكانت المدرسة النظامية فى بغداد مدرسة فقه رسمية اعترفت الدولة

-
- (١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ٣٣١ .
(٢) يقصد بالعلوم النقلية علم التفسير ، وعلم القرارات ، وعلم الحديث والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو واللغة والبيان والأدب .
(٣) تشمل العلوم العقلية الفلسفة والهندسية وعلم النجوم والموسيقى والطب والسحر والكيمياء ، والرياضيات ، والتاريخ والجغرافية .
(٤) القزوينى : آثار البلاد ، ص ٢٧٦ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٥٦ - ١٥٧ .

بها ، وقد بدىء فى بنائها فى عام ٤٥٧هـ (١٠٦٥ م) .

وكان مدرسوها يعينون من قبل الخليفة العباسى ، ومن أشهر العلماء الذين اشتغلوا بالتدريس فيها الغزالى (١) ، الذى ذكر فى كتابه « احياء علوم الدين » (٢) شيئا عن التربية ، فندد بالفكرة التى تقول ان هدف التربية هو ادخال الفكرة الى العقل ، ودعا الى ضرورة تحريك الشعور الأخلاقى فى طالب العلم .

وقد بنى نظام الملك مدارس دينية على سائكة مدرسة بغداد فى المدن الكبرى كاصفهان ونيسابور ومرو ، مما أبقى ذكره باعتباره راعيا من رعاة العلم والثقافة .

وكان علم الحديث أساس التدريس فى جميع المدارس الدينية العالية التى حفلت بالعديد من العلماء والمتخصصين .

٢ - دور الكتب وحوانيت الوراقين :

كانت المساجد فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى - دورا للكتب ، فكانت خزائنها غنية بالكتب - لاسيما الكتب الدينية - التى كان الناس يهبونها لها ، أو يقفونها فيها على القراء ، كما كانت هناك خزائن كتب أخرى ، أنشأها الأغنياء والوجهاء (٣) ، وكانت تضم كتباً فى مواضيع مختلفة كالمنطق والفلسفة والفلك وغيرها . وكانت الدور التى تضم هذه الخزائن مفتحة الأبواب لطالبي العلم والمعرفة ، وكثيرا ما صارت منتدى للعلماء يتداولون فيها البحوث العلمية والمناظرات الأدبية .

كما كانت توجد حوانيت الوراقين - الى جانب دور الكتب - وكانت هذه الحوانيت دكاكين صغيرة ، تقام بالقرب من المساجد ، ويجلس فيها باعة الكتب الذين كان أكثرهم من الخطاطين أو النساخين أو المتأدبين .

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٥٧هـ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٣) الغزالى : احياء علوم الدين ، ج ١ ، ص ٤٣ - ٤٩ .

(٤) دتلى وجرجى وجبور : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٤٩٧ - ٥١١ .

وكان بعض هذه الدكاكين من السعة بحيث تعرض فيها الكتب المختلفة ،
ويلتقى فيها هواة الدرس والبحث العلمى والعلماء والمتخصصون ، فكانت
بذلك مراكز للبحوث العلمية الراقية .
وقد ساعدت دور الكتب وحوانيت الوراقين على رفع مستوى الثقافة
فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، وايجاد طبقة من المثقفين على
درجة كبيرة من النضج والتفوق العلمى .

٣ - ازدياد التقدم العلمى :

واصل المسلمون تقدمهم العلمى فى العصر السلجوقى ، فبلغوا درجة
عظيمة من التقدم فى كثير من العلوم ؛ كالطب والكيمياء والرياضيات والفلك
والجغرافية ، وحقت الحضارة الاسلامية رقيا رفيعا ، لم يشهد له التاريخ
مثيلا من قبل ، وهو رقى اعترف به الدارسون المنصفون ، من كل جنس ولون
ودين ، وكانت حضارة فاضلة تستهدف الخير لجميع البشر .

وقد استفاد المسلمون من حضارات الأمم غير العربية عن طريق الترجمة
والاقتباس ، فأخذوا خير ما فى حضارات الهند والفرس والاعريق ،
وهضموا ما أخذوه ، ثم استنبطوا منه ، وأضافوا اليه ، وأخرجوا ذلك
كله مصبوغا بالصيغة الاسلامية ، حتى يكون العلم ملتزما بمبادئ الدين
والخلق القويم ، يعمل على تقوية الايمان بالله خالق الكون ، الذى بيده
ملكوت كل شىء .

وظهرت مآثر المسلمين فى كثير من العلوم - التى مر ذكرها - وزخرت
ايران والعراق فى العصر السلجوقى بالعديد من العلماء المتخصصين الأفاضل
الذين أشاد بذكرهم الدارسين فى الشرق والغرب (١) .

(١) هذا موضوع يضيق مجال هذا الكتاب عن استقصاء البحث فيه ، وعن
مجرد التعريف ببعض العلماء النابهين فى كل علم من العلوم المذكورة
كما أن معرفة الجديد الذى أضافه علماء المسلمين الى كل علم يدركها
المتخصصون فى هذا العلم غير أنه من المسلم به بين الدارسين فى
الشرق والغرب أن المسلمين أضافوا الى العلم جديدا فى كثير من
فروعه ، ويمكن الرجوع الى كتاب : حتى وجرجى وجبور ، تاريخ
الغزل ، ج ٢ ، ص ٤٤٤ - ٤٩٤ لمعرفة مزيد من المعلومات عن هذا
الموضوع ، ومن المعروف أن مؤلفى هذا الكتاب ليسوا من الدارسين
المسلمين .

وكان سلاطين السلاجقة - كما ذكرنا - يشجعون العلماء والأدباء ،
والنابهين في كل علم وفن ، على مواصلة الانتاج والابداع ، بما يقدمونه
لهم من المكافآت والجوائز السخية ، حتى يشيدوا بذكرهم في مقدمات كتبهم ،
وفي ألوان انتاجهم المختلفة ، مما جعل الانتاج العلمى والفنى غزيراً في
العصر السلجوقى ، وتشهد بهذه الغزارة والكثرة الآثار الباقية عن هذا
العصر من كل علم وفن .

وقد شجع السلطان ملكشاه السلجوقى الدراسات الفلكية ، فأقام
مرصداً في مدينة نيسابور في عام ٤٦٧هـ (١٠٧٤م) (٢) .

وقد اشتغل في هذا المرصد جماعة من العلماء المتخصصين في علم
الفلك - منهم عمر الخيام الشاعر المعروف - في تنظيم التقويم الفارسى
واصلاحه ، وأثمر عملهم التقويم المعروف باسم « التقويم الجلالى » نسبة
الى السلطان المذكور جلال الدين ملكشاه ، كما أشرنا الى ذلك من قبل .

وكثرت المؤلفات في العلوم المختلفة باللغتين العربية والفارسية اللتين
كان يتقنهما المشتغلون بالعلوم والآداب في ايران والعراق في العصر
السلجوقى ، وكان اصطلاح « أصحاب اللسانين » رائجا في هذا العصر ،
وكان المقصود به من يتقنون اللغتين العربية والفارسية ، ويستطيعون بهما
دراسة العلوم والفنون المختلفة ، والتخصص فيها ، بعد أن بلغت درجة رفيعة
من التقدم والرقى .

وكان العلماء والكتاب والشعراء يحرصون في انتاجهم على اظهار
ثقافتهم الواسعة والمأمهم بأطراف من مختلف العلوم والفنون الرائجة في
عصرهم لاثبات نبوغهم وتفوقهم ، فصارت هذه الظاهرة واضحة في العصر
السلجوقى (١) .

والحقيقة التى لاشك فيها أن العلم ازداد تقدماً ورقياً في ايران والعراق
في العصر السلجوقى الذى كان من أزهى عصور الحضارة الاسلامية .

* * *

(١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٤٦٧هـ .
(٢) نظامى الكنجوى للمؤلف ، ص ١١٤ - ١٢٣ .

سابعاً : الناحية الفنية

ارتقت الفنون في إيران والعراق في العصر السلجوقي ارتقاء ملحوظاً ، فازدهرت فنون النقش والتصوير والصناعة والمعمار ، لأن السلاجقة كانوا يعشقون الفنون الجميلة ويرعونها (٢) ، ويشجعون المشتغلين بها ، ويجزلون لهم العطاء ، مما ساعد على تقدم الفنون الجميلة وكثرة المهرة المتفوقين فيها ، وكان هذا الأمر ظاهرة ملحوظة في مختلف الفنون .

١ - فنون النقش والتصوير والمعمار :

شغف السلاجقة بالمباني الفخمة والنقوش الجميلة واللوحات المزخرفة ، وكان لبدائيتهم أثر في هذا ، فقد كانت المظاهر الخلابة تبهر أنظارهم ، وترضى أذواقهم ، وتسعد ما في نفوسهم من فراغ ثقافي وحضاري ، فكان سلاطين السلاجقة أنفسهم ، يجمعون حولهم المهرة في الفنون المختلفة ويشجعونهم (١) ، ليدعوا في انتاجهم الفني ، ولهذا بقيت روائع الفن منذ عصر السلاجقة ، حتى ان كثيراً من الدارسين المتخصصين في الفنون يعتقدون أن الفن الاسلامي قد وصل الى أرقى درجاته في عصرهم ، ويقررون أن الآثار الباقية عن العصر السلجوقي ، قليلة النظير في تاريخ الفن الإيراني (٢) بخاصة ، وفي تاريخ الفن الاسلامي بعامة .

وقد ظهرت خصائص الفن الفارسي في الفن الاسلامي في مختلف أنحاء العالم الاسلامي ، لأنه كان فنا راقياً ، فقلده المشتغلون بالفنون من غير الفرس ، وساعدت فتوحات السلاجقة - في أوقات قوتهم - على نقل خصائص الفن الفارسي الى سواحل البحر الأبيض المتوسط وشمالى افريقية ، فشوهدت سمات من الفنون الفارسية - في العصر السلجوقي - في الآثار المصرية والسورية بعد هذا العصر ببضعة قرون ، كما بقى الفن الفارسي حياً راقياً مقروناً بالعشق والابتكار في داخل إيران وخارجها (٣)

(١) كريستى ويلسون : تاريخ صنایع ایران ، ص ١٤٢ .

(٢)

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٤) تى ويلسون : تاريخ صنایع ایران ، ص ١٤٢ .

فى ظل الخلافة العباسية فى عصر السلاجقة ، وبعد سقوط دولتهم ، وفى العصور التالية لهم حتى بعد سقوط الخلافة العباسية .

وكان الفرس منذ أقدم العصور أساتذة فى فن الزخرفة والتلوين ، وقد ارتقى هذا الفن فى العصر السلجوقى ، كما ارتقى فن زخرفة السجاد واتخذت مشاهد الصيد والحدائق لرسمها على السجاد ، واستعمل حجر الشعب لتثبيت الألوان(٤) .

وقد ازدهرت فن الخط ازدهارا بديعا ، وهو فن اسلامى خالص ، كان أهم أهدافه أن يذفظ القرآن الكريم ، كلام الله الحكيم ، فى صدف جميلة أنيقة ، يتكون منها المصحف الذى توزع نسخة على الأمصار الاسلامية المختلفة .

وكان للخط مكانة سامية ، استمدت من كونه وسيلة لتسجيل آيات القرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولهذا كانت للخطاطين مكانة وكرامة ، وكان السلاطين وحكام الأقاليم والأمراء وكبار رجال الدولة فى العصر السلجوقى يتسابقون الى كتابة القرآن بخط جميل وزخرفة بديعة ، فيختارون المهرة من الخطاطين للقيام بهذه المهمة المباركة .

كما ارتقت الفنون المتصلة بكتابة المصحف مثل فن الزخرفة بالألوان وفن تزيين الكتب وفن التذهيب ، وفن التجليد حتى وصل فن تزيين الكتب وفن زخرفتها وفن تذهيبها الى أرقى الدرجات فى العصر السلجوقى .

وقد تعددت أنواع الخطوط فى هذا العصر حتى بلغ سبعين نوعا كما ذكر الراوندى فى كتابه راحة الصدور الذى ألفه فى أواخر العصر السلجوقى فى ايران والعراق حين كان يعمل مؤرخا لدولة السلاجقة فى العراق ، فقد ذكر أنه تعلم سبعين نوعا من الخط ، وأتقن فن تذهيب المصاحف وتجليدها ، وكان يكسب قوته من هذا العمل المبارك ، وكان كسبه وفييرا مكنه من شراء الكتب والتثقيف حتى صار مؤرخا معروفا ، فاستطاع الالتحاق بخدمة السلطان طغرل الثالث آخر سلاطين سلاجقة العراق(١) ، وصار مؤرخا

(١) حتى وجرى وحبور : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٥٠٩ .

(٢) الراوندى : راحة الصدور ، ص ٤٠ - ٤٤ .

للدولة ، مما يدل على رقى فن الخط وازدهاره وأهميته فى ايران والعراق
فى العصر السلجوقى .

وقد تأثر الفن الاسلامى فى الدولة العباسية بالفن الفارسى تأثرا عظيما
لمموسا ، فأولع الخلفاء العباسيون والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة
ببناء القصور الفخمة المحلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج ،
وعليها صوّر من الجص المجسم على الطريقة الفارسية ، وكانت طبقاتها
مغطاة بستور الديباج ، مزيّنة بالرسوم التى كانت من مميزات الفن
الفارسى (١) .

وكان بلوغ الفنون الجميلة أعلى درجات رقيها فى العصر السلجوقى
من أهم خصائص الحضارة الاسلامية الى جانب رقى العلوم ، وازدياد
التقدم فى جوانب الحضارة المختلفة فى ايران والعراق فى هذا العصر .

٢ - فن الأدب :

ارتقى فن الأدب فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، كما ارتقى
غيره من الفنون ، نتيجة للتقدم الثقافى والحضارى ، وتشجيع السلاطين
والحكام وكبار رجال الدولة للمشغولين بالعلوم والفنون المختلفة ومنها فن
الأدب .

وكانت اللغتان العربية والفارسية أداتى التعبير فى الأدب ، والتأليف
فى ميدان العلوم المختلفة - كما ذكرنا - أما اللغة العربية فهى لغة الاسلام
التي نزل بها القرآن الكريم ، وقيلت بها الأحاديث النبوية الشريفة ، وهى
اللغة التي يحرص المسلمون من كل لون وجنس على تعلمها ، ليتعلموا بها
أمر دينهم ، وليدرسوا بها العلوم المختلفة ، مما جعلها لغة رائجة مألوفة
فى أنحاء العالم الاسلامى المختلفة ، وجعل الأدب العربى أدبا متداولاً ،
يساهم فى انتاجه العرب وغيرهم من أبناء الدول التي أشرقت عليها شمس
الاسلام ، واستظلت برأيته ، وكان فن الأدب العربى قد بلغ أوج رقيه فى
القرنين الخامس والسادس الهجريين اللذين كان السلاجقة فى أثنائهما
يسيطرون على ايران والعراق ، وهى أدب معروف مدروس ، فلا داعى للتعريف

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، ج ٣ ، ص ٤٠٥ .

بخصائص الفن الادبي العربى ، لأن مجال هذا الكتاب يضيق عن مثل هذا التعريف .

وأما اللغة الفارسية فكانت أولى اللغتا الاسلامية غير العربية ظهورا بعد شروق شمس الاسلام ، وقد ظهرت فى ظل العربية ، ولبست ثوبا عربيا ، فكتبت بالحروف العربية ، ودخل فى تركيبها كثير من العناصر العربية ، وبدأ استعمالها - فى صورتها الجديدة - فى ميدان الأدب الفارسى الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى ، فكانت فى العصر السجلوقى قد بلغت درجة النضج والكمال ، وكان فن الأدب الفارسى قد ارتقى رقيا كبيرا .

كما نشرت فتوحات السلاجقة اللغة الفارسية فى آسيا الصغرى ، فأصبحت الفارسية لغة معروفة فى منطقة واسعة تمتد من الهند شرقا الى البحر الأبيض المتوسط غربا ، وظهرت آثارها فى بلاد الأرمن وفى جورجيا (١) ، فتأثر الأدب فيهما بالأدب الفارسى ، وظهرت مفردات اللغة الفارسية فى اللغة المستعملة فى كل من هذين الاقليمين .

وكان كثير من سلاطين السلاجقة لا يعرفون اللغة الفارسية ، لأنها ليست لغتهم الأصلية ، فكانوا لا يستطيعون فهم الأدب وتذوقه ، كما أن بعضهم لم يكن ذا حظ وافر من الثقافة (٢) لصغر سنهم ، فكانوا لا يستطيعون نقد الأدب ، ومعرفة الجيد منه ، غير أنهم كانوا يشجعون الأدباء من كتاب وشعراء ويجزلون لهم العطاء ليكثروا من مدحهم والثناء عليهم ، فيبقى ذكرهم على مر السنين ، وحذا حكام الأقاليم ، وكبار رجال الدولة فى العصر السلجوقى - حذى السلاطين ، فى تشجيع الأدباء ، فكانوا يعطونهم بسخاء ، فراجت سوق الأدب رواجا كبيرا فى ايران والعراق فى هذا العصر ، وتفنن الشعراء والكتاب فى صناعة الأدب ، فوصل فن الأدب الفارسى الى درجة رفيعة من الرقى والتقدم وكثر عدد الشعراء والكتاب النابيهين الذين ذاعت شهرتهم فى أرجاء العالم الإسلامى كله فى ذلك الوقت .

(١) برتلس : نظامى ، ص ١٦ - ١٧ .

(٢) بهار : سبك شناسى ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .

كما ظهر لون جديد من ألوان الأدب الفارسي هو أدب المدينة وهو لون أنتجته ظاهرة معينة ، هى وضوح أهمية بعض المدن فى العصر السلجوقى الى درجة جعلت المدينة بيئة مستقلة ، لها خصائصها ومقوماتها ومميزاتها الخاصة ، وهى ظاهرة تنبى دارسى الأدب لها منذ قرون عديدة ، فقسم بعضهم الآداب بحسب المدن (٣) .

وقد اجتهد حكام المدن فى جمع الشعراء والكتاب حولهم حتى يظفروا بمدحهم ، والاشادة بفضائلهم ، فكثرت عدد الشعراء والكتاب المجيدين فى المدن ، غير أن الأدب الفارسي الذى أنتج فى المدن ، كان شبيها بالادب الذى يقال فى بلاط السلاطين فى أسلوبه ، وصياغته الفنية ، وان كانت آثار المدينة وما فيها من عادات وتقاليد قد ظهرت فى الأدب الذى أنتج فيها (١) ، وكانت هذه الآثار واضحة - أحيانا - الى درجة تمكن الدارس من التعرف على انتاج المدينة بسهولة ويسر .

وظلت الآداب السلطانية - فى العصر السلجوقى - تغذى الأدب الفارسي بأكبر قدر من انتاجه ، برغم ما كان يتعرض له شعراء البلاط وكتاباه من دسائس المنافسين الحاقدين ، فكانت حياة الشعراء والكتاب فى البلاد لا تخلو من المتاعب ، لأن جو البلاط كان يساعد على انتشار خلق الأنانية والوصولية بين كثير من الشعراء والكتاب رغبة فى الظفر بالقرب من السلطان ، وكانت الغاية عند هؤلاء تبرر الوسيلة التى يمكنهم الوصول بها ، مما جعل التلاميذ يهجون أساتذتهم ، ويشمون بهم فى سبيل الظفر برضا رجال البلاد ، وخلق طريق فيه لأنفسهم حتى يحظوا بالقرب من السلطان ، والظفر بعطاياه وهباته .

وقد اعترف كثير من الشعراء والكتاب بما فى حياة البلاط من النفاق والكذب ، وبأن أدب البلاط مملوء بالمبالغة والتهويل (٢) والبعد عن الحقيقة

-
- (١) قسم محمد عوفى فى كتابه لباب الألباب ولطفعللى بك فى آتشكده الشعراء بحسب المدن .
(٢) نظامى الكنجوى للمؤلف ، ص ٨٣ .
(٣) ارجع الى أمين رازى : هفت اقليم ، ص ٥١٠ ، ٥١٧ ، ٥٢١ .

والواقع ، غير أن هذا الاعتراف لا يقلل من أهمية أدب البلاط من الناحية الفنية ، لأن اقبال الأدباء على مدح السلاطين قد أثرى الأدب الفارسي بما أنتجه هؤلاء الأدباء ، كما ساعد على رقى الفن الأدبي وتقدمه ، لأن شعراء البلاط برعوا في فن القصيدة ، وقد بلغ هذا الفن قمة رقيه في عصر السلجقة ، ويكفي أن نذكر على سبيل المثال الأنوري شاعر السلطان سنجر ، فقد كان من خير البارعين في هذا الفن (٢) .

كما ارتقى فن القصيدة المنظومة بالفارسية في العصر السلجوقي وبلغ درجة رفيعة من الجودة والانتقان ، ويكفي أن نذكر من شعراء هذا الفن في ذلك العصر نظامي الكنجوي لأنه كان يحسن اختيار موضوع القصيدة ، ويجيد تصوير مناظرها ، ويجعل هذه المناظر متنوعة فيها جادة وطرافة وابتكار بطريقة مشوقة ، تجذب اهتمام المتتبع للقصيدة ، وتغريه بتتبعها ، والاشتراك في التفكير في حل مشكلاتها ؛ كما كان يتخذ القصيدة ميداناً للدعوة إلى الإصلاح الخلقي ، بتطهير النفس من النقائص ، وترك الظلم ، والتخلق بالفضائل ، والتطلع إلى المثل العليا (١) .

وقد تطور فن الكتابة في العصر السلجوقي ، وأصبحت « المقامة » من فنون النثر الفارسي ، وكان من أشهر كتاب المقامات بالفارسية في هذا العصر القاضي حميد الدين عمر بن محمود البلخي المتوفى سنة ٥٥٩هـ (٢) (١٠٦٤م) .

وهكذا ارتقى فن الأدب في إيران والعراق في العصر السلجوقي وتقدم تقدماً ملموساً ، وامتاز بما امتازت به سائر الفنون في هذا العصر من ميل إلى التأنق والتفنن ، فكان الأدباء من كتاب وشعراء ، لا يكتفون بصب أفكارهم في قوالب جميلة من الألفاظ ، بل يحاولون أن يرسموا على هذه القوالب من النقوش والزخارف ما يجعل منظرها رائعاً جميلاً ، فامتلاً الأدب بالمحسنات اللفظية والتشبيهات والاستعارات والدخايات وغيرها من الفنون

(١) نظامي الكنجوي للمؤلف ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٢) ارجع إلى كتاب نظامي الكنجوي للمؤلف ، ص ٢٧٨ - ٢٨١ .

(٣) بهار : سبك شناسي ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ - ٣٤٤ .

البلاغية ، وصار القول فنا جميلا كغيره من الفنون الجميلة الاخرى التى عرفنا بها .

ورأيت هذه الفنون فى أعين الناس ، واستحسنتها أذواقهم ، فأكثر الشعراء والكتاب منها فى انتاجهم الأدبى ، ولا أجد ضرورة لذكر أمثلة شعرية ونثرية بالفارسية لأن مجال الكتاب لا يتسع لها ، ولأن الغرض هنا التعريف بفن الأدب فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، لاتخاذ هذا التعريف وسيلة لفهم طابع هذا العصر من الناحية الفنية(٣) .

وهكذا كانت ايران والعراق تشهد ان ازدهارا ورواجا للفنون بمختلف أنواعها فى العصر السلجوقى ، وقد ساعد الحكم السلجوقى على اختلاط العراقيين بالاييرانيين وحدث امتزاج حضارى بين الشعبين أدى الى تبادل كثير من التقاليد والعادات الاجتماعية بين الطرفين نتيجة لما تم بينهما من تزواج ، فاختلطت الدماء ، كما اختلطت العادات والتقاليد فى ظل الاسلام ، وساهم الطرفان فى بناء صرح الحضارة الاسلامية الراقية .

(١) ارجع الى كتاب المؤلف نظامى الكنجوى لمعرفة معلومات أكثر عن هذا الموضوع .

الختامة

لعلنا لاحظنا بعد استعراض الأحداث المختلفة التى شهدتها ايران والعراق فى العصر السلجوقى أن السلاجقة تمكنوا من توحيد ايران والعراق تحت ادارة واحدة ما يقرب من قرن من الزمان حين كانت الصلات قوية بين السلاجقة والخلافة العباسية ، فكان السلاجقة يعدون جنود الخلافة المخلصين .

وقد استطاع السلاجقة بعد أقل من نصف قرن من اقامة دولتهم أن ينسطوا سيطرتهم على ايران وبلاد ما وراء النهر والعراق وأجزاء كبيرة من الشام وآسيا الصغرى بعد أن أنزلوا هزيمة ساحقة بالروم فى موقعة ملازگرد الشهيرة فى عام ٤٦٣هـ (١٠٧٠ م) ، فصاروا أقوى دولة فى العالم فى ذلك الوقت .

وكان السلاجقة أتراكا مسلمين ، متمكسين بالمذهب السنى ، معادين لما سواه ، كما كانوا فى الأصل قبائل بدوية ذات حظ قليل من الثقافة والحضارة ، فغلبت هذه الصفات عليهم بعد قيام دولتهم ، فكان أقوى أفراد البيت السلجوقى هو الذى يتولى السلطة ، ولم يكن هناك نظام معين للحكم ، فالكل يحب الرئاسة لو استطاع اليها سبيلا ويسعى للوصول اليها بكل وسيلة ممكنة ، مما أدى الى تنافس شديد بين أفراد البيت السلجوقى على الامساك بزمام الأمور فى الدولة ، واشتعال نيران الحروب الداخلية بينهم ، ثم الى انقسام الدولة وضعفها وسقوطها فى النهاية .

كما كان لبداوة السلاجقة وقلة حظهم من الثقافة والحضارة أثر فى ألوان الحضارة المختلفة فى ايران والعراق فى العصر السلجوقى ، سواء فى نظم الحكم أو فى الجوانب الادارية والروحية والاجتماعية والاقتصادية 'لثقافية والفنية .

وكان أهم أثر لبداوة السلاجقة بعد قيام دولتهم اهتمامهم الشديد بالمظاهر الخلابة ، مما أدى الى ازدهار الفنون الجميلة فازدهر فن البناء وفن النقش وفى التصوير وفى الخط وفن التذهيب وسائر الفنون الجميلة الأخرى ، بما فيها الفن الأدبى فى العربية والفارسية اللتين كانتا اللغتين اللتين يعرفهما الدارسون فى ايران والعراق ويتلقون بهما العلوم المختلفة ، ويؤلف المتخصصون بهما الكتب المختلفة فى سائر ألوان العلم والمعرفة .

وهكذا كان العصر السلجوقى من العصور المميزة فى ايران والعراق فى ظل الاسلام ، مما يجعله جديرا بالدراسة التى تبرز خصائصه ، ولعلنا بهذه الدراسة الموجزة قد أظهرنا أهم هذه الخصائص .
والله الموفق للصواب ، والحمد لله رب العالمين .



الشَّرق الأوسط
 في عصر السلاجقة

ثبت بأسماء المراجع (١)

أولا : المراجع العربية

- ابن الأثير : على بن أحمد أبى الكرم .
- ١ - الكامل فى التاريخ ، ج ١٠ و ١١ و ١٢ طبع نورنبرج ١٨٥١م
أو ج ٨ و ٩ طبع القاهرة .
- البندارى : الفتح بن على بن محمد البندارى الاصفهانى .
- ٢ - مختصر تواريخ آل سلجوق ، نشر هوتسما ، طبع ليدن ١٨٨٩م
- البيرونى : أبو الريحان محمد بن أحمد .
- ٣ - الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبع ليبزيج ١٨٧٨ و ١٨٧٩م .
- الحافظ الذهبى : الحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبى .
- ٤ - تاريخ الاسلام الذهبى ، طبع حيدر آباد الدكن ، ١٣٣٧هـ .
- حتى وجرجى وجبور : فيليب حتى وادوارد جرجى وجبرائيل جبور .
- ٥ - تاريخ العرب ، ج ٢ ، طبع بيروت ١٩٥٠م و ج ٣ طبع بيروت ١٩٥١م .
- حسن ابراهيم حسن : دكتور .
- ٦ - تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، ج ٣
الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٥م .
- الحسينى : صدر الدين أبو الحسن على السيد الامام الشهيد أبو الفوارس
ناصر بن على الحسينى .

(١) المراجع المذكورة فى هذا الثبوت هى أهم المراجع اللازمة لدراسة العصر السلجوقى فى ايران والعراق ، وقد ورده ذكرها هى وغيرها فى ثنايا هذا الكتاب ، وهى جميعا منشورة يستطيع الدارس الرجوع اليها بسهولة .

٧ - أخبار الدولة السلجوقية ، نشر محمد اقبال ، طبع لاهور
١٩٣٣م .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد .

٨ - مقدمة ابن خلدون ، طبع بيروت ١٨٨٦م .

٩ - العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء ، طبع القاهرة ،
١٢٨٤هـ .

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر الشامي .

١٠ - وفيات الأعيان ، طبع بولاق ، ١٢٨٣هـ .

الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .

١١ - الملل والنحل ، ٥ أجزاء ، طبع القاهرة ، ١٣١٧هـ .

عبد النعيم محمد حسنين : دكتور .

١٢ - نظامي الكنجوي ، شاعر الفضيحة الايراني ، طبع القاهرة ،

١٩٥٤م .

ابن العبري : غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطبيب المعروف بابن

العبري .

١٣ - تاريخ مختصر الدول ، طبع بيروت ، ١٨٩٠م .

ابن العماد : أبو الفلاح بن العماد الحنبلي .

١٤ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٤ و ٥ طبع مصر ،

١٣٥٠هـ .

الغزالي : الامام أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد .

١٥ - احياء علوم الدين ، طبع القاهرة ، ١٣٣٤هـ .

١٦ - تهافت الفلاسفة ، طبع بمباي ، ١٣٠٤هـ .

أبو الفداء : الملك المؤيد أبو الفداء صاحب حماة .

١٧ - تاريخه المسمى المختصر في أخبار البشر ، طبع استانبول ،

١٢٨٦هـ .

القزوينى : زكريا بن محمد بن محمود القزوينى .
١٨ - آثار البلاد وأخبار العباد ، نشر وستنفلد ، طبع جوتنجن ،
١٩٤٨م .

القفطى : الوزير جمال الدين أبو الحسن على بن القاضى الأشرف يوسف
القفطى .

١٩ - اخبار العلماء بأخبار الحكماء ، طبع مصر ، ١٣٢٦هـ .

ابن القلانسى : أبو يعلى حمزة .

٢٠ - ذيل تاريخ دمشق ، طبع بيروت ، ١٩٠٨م .

ابن الوردى : زين الدين عمر بن الوردى .

٢١ - تاريخه ، ج ٢ ، طبع مصر .

ثانيا : المراجع الفارسية

- أفضل الدين الكرمانى : أبو حامد أحمد بن حامد الكرمانى .
٢٢ - عقد العلا للموقف الأعلى ، نشر على محمد نائينى ، طبع
طهران ، ١٣١١ هجرية شمسية (١) .
٢٣ - تاريخ أفضل يابدايع الزمان فى وقايع كرمان ، جمع ونشر
مهدى بيانى ، طبع طهران ، ١٣٢٦ هـ .ش .
أمير خواند البلخى : محمد بن خاوند شاه بن محمود .
٢٤ - روضة الصفا ، الجزء الرابع ، طبع طهران ، ١٢٧٠ هـ .
أمين رازى :
٢٥ - هفت اقليم ، طبع كلكتة ، ١٩٣٩ م .
بهار : محمد تقى بهار ملك الشعراء .
٢٦ - سبك شناسى ، ج ٢ ، طبع طهران ، ١٣٢١ هـ .ق .
ابن البيبى : يحيى بن محمد المعروف بابن البيبى .
٢٧ - مختصر سلجوقنامه ، نشر هوتسما ، طبع ليدن ، ١٩٠٢ م .
البيهقى : أبو الفضل محمد بن حسين الكاتب البيهقى .
٢٨ - تاريخ مسعودى المعروف بتاريخ البيهقى ، نشر سعيد نفيسى
ج ١ ، طبع طهران ١٣١٩ هـ .ش . و ج ٢ طبع طهران ١٣١٦
هـ .ش .
وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة العربية ، ترجمة الأستاذان الدكتور
يحيى الخشاب ، وصادق نشأت وطبعت الترجمة فى القاهرة .

(١) التقويم الهجرى الشمسى هو التقويم المستعمل فى ايران ، وتبدأ السنة
الهجرية الشمسية فى ٢١ مارس غالبا وعدد أيام كعدد أيام السنة
الشمسية أى ٣٦٥ يوم اذا كانت السنة بسيطة و ٣٦٦ يوم اذا كانت
كبيسة فبينها وبين السنة الهجرية أحد عشر يوما وربع يوم ولذلك
فان السنة الهجرية الشمسية تقل الآن عن السنة الهجرية بأكثر من
أربعين عاما .

حمد الله المستوفى قراوينى : حمد الله بن أبى بكر بن أحمد بن نصر المستوفى
القزوينى .

٢٩ - تاريخ كزیده ، ج ١ ، نشر براون ، طبع بمبای ١٣٢٨ هـ /
١٩١٠ م

خواند أمير : غياث الدين بن همام الدين .
٣٠ - حبيب السیر فى معرفة أخبار أفراد البشر ، طبع بمبای ١٢٧٣ هـ /
١٨٥٨ م .

الراوندى : محمد بن على بن سليمان الراوندى .
٣١ - راحة الصدور وآية السرور ، نشر وتصحيح محمد اقبال ،
طبع ليدن ، ١٩٢١ م .

وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية ، ترجمة الأساتذة الدكتور ابراهيم
أمين الشواربى والدكتور عبد النعيم محمد حسنين والدكتور فؤاد عبد
المعطى الصياد ونشرت الترجمة فى القاهرة ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .
عوفى : محمد عوفى .

٣٢ - لباب الألباب ، ج ٢ ، نشر براون ، طبع ليدن ، ١٣٢١ هـ /
١٩٠٣ م .

قاسم غنى : دكتور .
٣٣ - تاريخ تصوف در اسلام ، طبع طهران ، ١٣٦٢ هـ / ١٣٢٢
هـ . ش .

وقد ترجم هذا الكتاب الى العربية بواسطة الأستاذ صادق نشأت
وطبعت الترجمة فى القاهرة .
كريستى ويلسن :

٣٤ - تاريخ صنایع ايران ، ترجمة عبد الله فريار الفارسية ، طبع
طهران ، ١٩٣٨ م / ١٣١٧ هـ . ش .

گرديزى : أبو سعيد عبد الحى بن الضحاک بن محمود الگرديزى .

٣٥ - زين الأخبار ، طبع برلين .

مؤلف مجهول يبدو أنه كان يعيش في القرن السادس الهجري .
٣٦ - مجمل القصص والتاريخ ، نشر بهار ، طبع طهران ، ١٣١٨ هـ .ش .

محمد بن ابراهيم :

٣٧ - تاريخ سلجوقيان كرمان ، نشر هوتسما ، طبع ليدن ، ١٨٨٦ م .

ثالثا : المراجع الانجليزية

Browne : Edward G.

38 — Aliterary History of Persia (From the Earliest Times until Firdawsi) London, 1909.

Dimand : M. S.

39 — A Handbook of Mohammadan Art, New York, 1947.

Lane - Poole.

40 — Mohammadan Dynasties, London, 1894, Paris, 1925.

Sykes : Sir Percy.

41 — A History of Persia, Vol. II, London, 1930.

فهرس

رقم الصفحة

مقدمة : ٥

الفصل الأول

العالم الاسلامى قبيل ظهور قوة السلاجقة

تمهيد : ٩

أولا : الخلافة العباسية : ١٠

١ - الدولة السامانية ١٣

٢ - الغزنويون ١٥

٣ - البويهيون ١٧

ثانيا : الخلافة الفاطمية ١٩

الفصل الثانى

تعريف بالسلاجقة وقيام دولتهم

تمهيد : ٢١

٢٣ التعريف بالسلاجقة

أصل السلاجقة ٢٤

قيام الدولة السلجوقية ٢٩

اعلان قيام الدولة السلجوقية ٣٤

الفصل الثالث

سيطرة السلاجقة على ايران والعراق

أولا : سيطرة السلاجقة على ايران ٣٩

ثانيا : سيطرة السلاجقة على العراق ٤٥

الفصل الرابع

٥٣	السلالة في أوج قوتهم
٥٨	أولا : تحقيق الأهداف القريبة
٦٠	ثانيا : تحقيق الأهداف البعيدة
٦٠	غزو بلاد الروم
٦٢	موقعة ملازكرد
٦٣	نتائج موقعة ملازكرد
٦٥	نهاية ألب أرسلان
٦٧	تجدد النزاع على عرش السلالة
٦٩	فتوحات ملكشاه
٧٠	فتح بلاد الشام
٧١	فتح بلاد الروم
٧٤	ازدياد التقارب بين العباسيين والسلالة
٧٤	السيطرة على إقليم ما وراء النهر

الفصل الخامس

السلالة في مواجهة المشاكل الخطيرة

٧٧	أولا : ظهور الاسماعيلية في إيران
٨١	ثانيا : مصرع الوزير نظام الملك
٨٥	ثالثا : موت السلطان ملكشاه
٨٦	دولة السلالة بعد اختفاء نظام الملك وملكشاه

الفصل السادس

تنافس السلالة وتمزق دولتهم

٩١	النزاع حول العرش
٩٧	التنافس على الوزارة
١٠٠	كثرة الحروب الداخلية

الفصل السابع

السلالة في مواجهة خطر الاسماعيلية والصليبية

١٠٥	تمهيد :
١٠٦	الخطر الاسماعيلي
١٠٩	الخطر الصليبي

الفصل الثامن

١١٧	انقسام دولة السلاجقة
١١٨	تجدد النزاع حول العرش
١١٩	سلاجقة خراسان
١٢١	الدولة القره خطائية
١٢٢	الدولة الخوارزمية
١٢٥	سلاجقة العراق
١٢٨	النزاع حول عرش سلاجقة العراق
١٢٩	النزاع بين السلاجقة والخلافة العباسية

الفصل التاسع

١٣٣	انهيار دولة سلاجقة خراسان
١٣٤	فتنة الغز

الفصل العاشر

	انهيار دولة سلاجقة العراق
١٣٩	تمهيد :
١٤٠	نفوذ الأتابكة
١٤٦	تغير الأوضاع خارج دولة السلاجقة
١٤٩	انهيار دولة سلاجقة العراق

الفصل الحادى عشر

	ألوان الحضارة فى العصر السلجوقى
١٥٩	أولا : الجانب السياسى :
١٦٠	١ - السلطنة
١٦١	٢ - حكام الأقاليم
١٦٢	٣ - الوزارة
١٦٤	٤ - الحجابة
١٦٥	٥ - الكتابة
	ثانيا : الجانب الادارى :
١٦٧	١ - حكم الأقاليم
١٦٨	٢ - الدواوين
١٦٩	٣ - الشرطة

رقم الصفحة

١٧٠	ثالثا : الجانب الروحي :
١٧٢	رواج التصوف
	رابعا : الحياة الاجتماعية :
١٧٥	١ - طبقات المجتمع
١٧٨	٢ - مظاهر الحياة الاجتماعية
١٨٠	خامسا : الحياة الاقتصادية
	سادسا : الناحية الثقافية :
١٨١	١ - مراكز الثقافة
١٨٣	٢ - دور الكتب وحوانيت الوراقين
١٨٤	٣ - ازدياد التقدم العلمى
	سابعا : الناحية الفنية :
١٨٦	١ - فنون النقش والتصوير والمعمار
١٩٣	الخاتمة :
١٩٦	ثبت باسماء المراجع

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

١٩٨٢/٢١٣٢ م

الترقيم الدولى

٩٧٧ - ٧٣٢٢ - ٧٠ - ٤

دار الثقافة للطباعة والنشر
٢١ شارع كامل صدقى - الفجالة
ت : ٩١٦٠٧٦ - القاهرة